[redacted]
افبرى ،جون لوبوك، البارون الاول
السعادة والسلام
AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES
01002425

171.4 [redacted]

افبرى ، جون لوبوك، البارون الاول .

السعادة والسلام .

171.4
A94aA

1 Jun 70

4 JUL 1973

JAFET LIB.
30 JUN 2005
Circulation Dept. 5

171.4
A940A
C.1

السعادة والسلام

تأليف

اللورد اڤبري

وهو العلامة الشهير وفياسوف الحياة اليومية صاحب
« معنى الحياة » و « مسرات الحياة »
و « محاسن الطبيعة » الخ .

تعريب

وديع البستاني

معرب معنى الحياة

ON PEACE AND HAPPINESS

BY

THE RIGHT HON. LORD AVEBURY P. C.

TRANSLATED BY

WADIH BOUSTANY B. A.

يطلب من ملتزم طبعه

نجيب متري

صاحب مطبعة المعارف ومكتبتها

٢١٥٦

مطبعة المعارف بشارع الفجالة بمصر

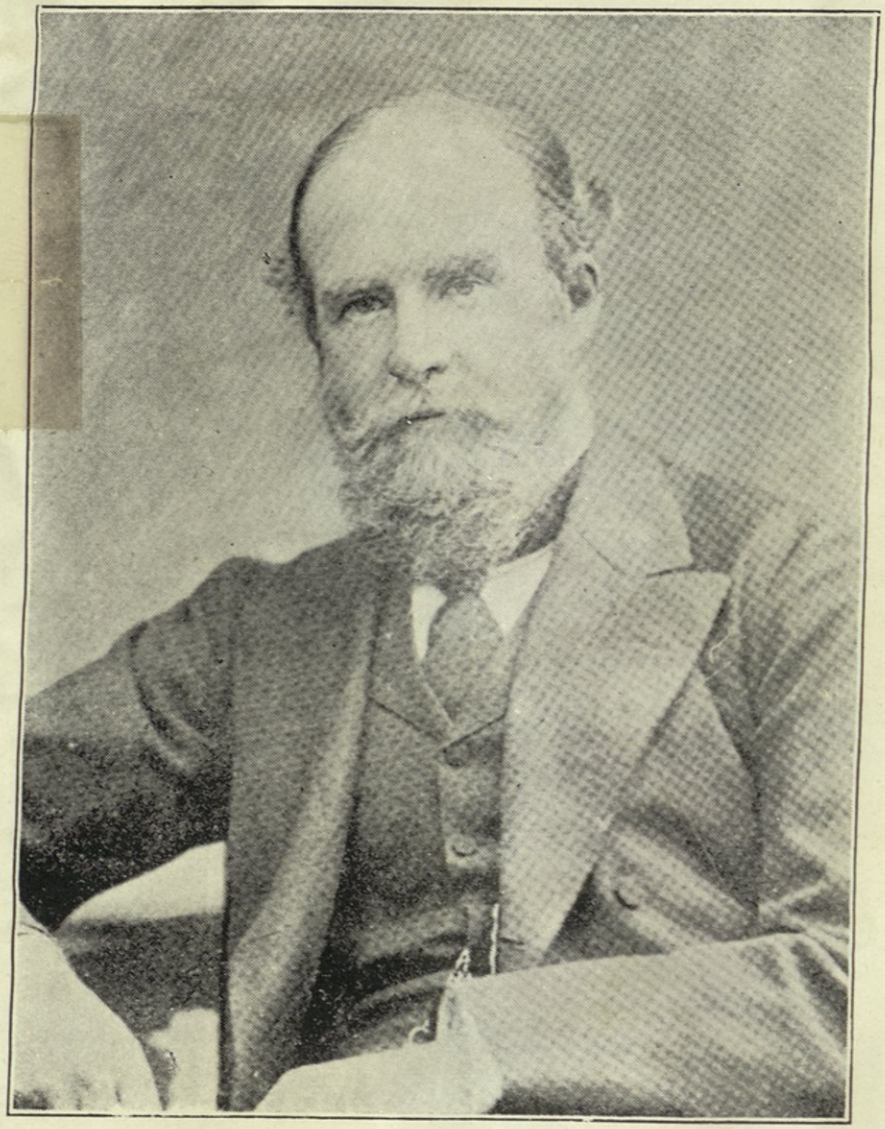

THE RIGHT HON. LORD AVEBURY

اللورد اڤبري

Mr. EDWARD HOOD

المستر ادوارد هود

اهداء الكتاب

Dedicated

to

Mr Edward Hood

as a token of Oriental gratitude for Western education, with my warmest wishes for his "peace and happiness".

Wadih Boustany

الى

المستر ادورد هود

دلالةً على اعتراف الشرقيين بفضل الغربيين على العلم
والتهذيب ، متمنياً له كل سعادة وسلام

وديع البستانى

مقدمة

للناشئتين المصرية والسورية سعادة وسلام !

اليكم اخواني في الشبيبة حديثاً فلسفياً شعرياً في الحياة وسعادتها وسلامها ، وسائر احوال ايامها واعوامها ، يبسطهُ شيخ جليل وعالم كبير ، قطع من مراحل الحياة ما لم نقطع ، واختبر فيها ما لم نختبر ، حديثاً موّجهاً للعقل والقلب والنفس جميعاً

اجل ، اخواني ، اني كلفتُ منذ الصغر بمطالعة امثال هـذا الكتاب ، وقد شجعني اقبالكم على « معنى الحياة » (١) الذي نشرته العام الماضي ، فامتثلت لإيعاز مؤلّفه الكريم اليَّ بترجمة مؤلَّفه هذا ايضاً ، فما انا اذاً الاّ الترجمان بينكم و بينه ، وعساني قد قمت بواجباتي نحوكم ونحوه ، وحسبي صدق النية ان فاتتني الامنية ، والسلام

القاهرة ٦ دسمبر ١٩١٠ وديع البستاني

---

(١) وقد نفدت طبعته الاولى او تكاد . وملتزم هذه الطبعة نجيب افندى متري (صاحب مكتبة المعارف ومطبعتها) عازم على إعادة طبعه بالاتقان المعروف عن مطبعته وعلى الاهتمام بنشره بالاجتهاد المعهود في غيرته

الفصل الاول

في السعادة

اهمية الموضوع — منية الجميع — الفوز بالسعادة والهناء — تقديم النصائح — امثولة الحياة — إشكال الحياة — واجب السعادة — الحكم على النفس — جهالة الغضب — كظم الغيظ — امكان الصلاح — المسرات — ابيقوروس — رواية قديمة — الشقاء واسبابه — منفعة الالم — المصائب الفكرية — الخطيئة — الحظ — ضرورة الشغل — الكسل — الاجتهاد — الاعتبار بسائر الامم — البرميون — اليابانيون — المدنية والعلم — العقل — حدود المعرفة — المبدآن في الحياة : — اعتزال الناس ونفع الانسانية — الراحة — يوم الاحد — اوقات الفراغ وعظم اهميتها

كلنا نتمنى السعادة والهناء . وماذا عسانا ان نتمنى اكثر ولماذا نرضى بأقلّ ؟ ولقد يُشك في امكانية الفوز بالهناء دون السعادة او بالسعادة دون الهناء . فالسؤال المهم اذاً — كيف يُنال احدهما او كلاهما جميعاً ؟

المال لا يسعدنا . النجاح لا يسعدنا . الاصدقاء لا تسعدنا . ولا الصحة ولا القوة تسعداننا . أجل ! جميع هذه الامور تدعو الى السعادة ولكن ايها يُبلغ اليها ويكفل الرتوع في بحبوحة بركاتها . وقد تجود الطبيعة علينا بما في يدها فتمنحنا صيتاً طائراً وصحة وعافية ومالاً طائلاً وعمراً طويلاً — الا ان يدها تقصر عن اسعادنا . وكل فرد له وعليهِ ان يُسعد نفسه بنفسه . وكفانا بالمتداول على الالسنة دليلاً

الى حقيقة ضالّة ننشدها . اذ ماذا نقول عشية نهار سعيد سحبنا مع سحابته ذيول السعادة وجررناها ؟ ألا نقول «رحنا اليوم روّحنا النفس وطيناها » او ما شاكل واشبه ؟

نعم ! سعادتنا لنا وعلينا . انما نحن مختلفون الفرد عن الآخر احوالاً وحالات ومتفاوتون اعماراً ومتباينون واجبات ومكتسبات بحيث قد يخال وضع الاصول والقواعد ضرباً من المحال ويُعد مجرد النصح والاشارة تهجماً وجسارة . هذا وان يكن فارّو سبق فأتى اهل زمانه بـ ٢٨٨ رأياً من آراء الفلاسفة في السعادة

وحسبنا ان نعتبر بحالة المتقدمين في سبيل الحياة من رجال ونساء اذ نرى حتى المفلح الموفق منهم لا ينظر الى ما قطع من مراحل هذه العاجلة الا بعين التأسف لهفوات كان في غنى عنها وتجارب كان يتسنى له التغلب عليها او زلات كان يمكنهُ تجنبها — لو انهُ كان يعلم في تلك الاحايين ما صار يعلمهُ الآن ولو كان عنده بعض الاختبار الذي بدون ادنى كلفة او أقلّ مشقة يجعل حياة المرء ابهى سناء واسعد اياماً واجزل نفعاً

بل اعتبر بآخر ما فاه بهِ ثيودور پاركر وهو على فراش الموت مع انهُ كان مفعم الصدر حكمة ومعرفة : « اواه ! حبذا لو كنت عرفت فن الحياة او وجدت كتاباً او انساناً يعلمني كيف كان يجب ان أعيش وأدرس واروّض بدني »

ومما يؤثر عن اهالي اثينا القدماء اتباعهم لسنّة كانوا بموجبها

يعاقبون بالقتل اي من حمل شمعة ومنع غيره من الاقتباس من نارها . فحلالٌ اذاً ان نقتبس ممن عنده نوراً نضيء بهِ ظلمة قلوبنا ونفوسنا

قال بلوتارك المؤرخ الشهير : « كنت في اول الامر اذا دوّنت التراجم فلأجل اطلاع غيري عليها . فما لبثت ان صرت ادقق فيها وأسرّ بتحبيرها ابداً باذلاً جهدي في سبيل اقتفاء آثار مَن أترجم مطبقاً سيرتي على رسم سيرته متشبهاً بمثاله المنجلي امامي في مرآة الفكر . وهكذا بفضل اشتغالنا بالتواريخ ومزاولتنا تسطيرها قد نسلم من العثار اذا اعترضت سبيلنا الدنايا والشرور بان نصد الفكر عنها ونحوله الى اولئك الاعلام الذين لا تفتأ تنغرس تذكاراتهم في عقولنا ونفوسنا »

ونظرياً ، ان لم يكن الجميع فالسواد الاعظم متفقون على ان السعادة والطمأنينة من أعظم البركات . اما فعلياً ، فكثير من يبيعهما مغبوناً مؤثراً الثروة او القوة او الشهرة عليهما

لا مراء ، صعبة هي الحياة ! . « الطبيعة كثيراً ما تختفي فلا تظهر وقد يُستظهر عليها احياناً ولكن نادراً ما تعدم وتزول . القوة تعيرها قوة والسنة والعقيدة قد يخففان من سورتها ويضعفان من صولتها اما ما يذللها ويبدّلها فهو العادة لا غير » (١)

ليست الحياة صورة في صفحة او صفحة كاملة من كتاب بل هي جزء كبير بصفحات وفصول ليس بالسهل قراءتها وفهمها . ونقول

---

(١) بايكون

« العالم » والحق اننا لفي عوالم وان كل فرد يخلق عالمه لنفسه

كل الناس ينشدون السعادة وقليل من يجدها . والحكمة ان يبحث المرء عن رغائب واميال لا ان يسعى في طلب المسرات . والذين لا يهتمون ولا يرزنون في حداثتهم فالاكتئاب ينتظرهم وسينال منهم اذا كبروا وشاخوا بينما « الذين يزرعون بالدموع يحصدون بالابتهاج » (١) ولقد قال سليمان الحكيم : « محب الفرح انسان معوز ومحب الخمرة والدهن لا يستغني » (٢)

وقد اكبر توماس اكمبس شأن هذه الحقيقة وغالى فيها وقال : « هذا هو الحق الصراح : الاثنان لا يجتمعان — أعلى الارض سرور وابتهاج وفي السماء ميراث ابدي؟ »

قال مكس مولّر : « انها لخطيئة حقيقية ان لا يكون المرء سعيداً . » فلنذكر قوله هذا وقول باسكال التالي : « فلنعرف اذن حدنا وغاية جهدنا . أجل اننا شيء ما في هذا الوجود ولكننا لسنا كل شيء »

ولا أهم من ان نرسخ في نفوسنا تصوراً عادلاً عن هذه الحياة لكيلا تقلقنا صروف الدهر وتقلباته ولنكون مستعدين لمقابلة اي وجه تديره لنا الايام ثابتين تجاه الافلاح والحبوط امام الظفر والفشل على الخوف والامل في الصحة والسقام والمسرات والآلام وفي الافراح والاحزان ولدى التذكارات الحلوة والتأسفات الباطلة

« طالما انت على هذه الارض تمتع بما فيها من الصالحات لانها

---

(١) المزامير (٢) امثال سليمان

لاجل ذلك خلقت . ولا تكتئب ولا تبتئس بل احسب نفسك في السماء[1] » والذين لا يعرفون قيمة الحياة لا شك انهم لا يستحقونها والسعادة بحسب تعاليم المسيح ليست جزاء الواجب فقط بل هي نفسها اعظم الواجبات

ولعل ضبط النفس والتسلط عليها أهمّ ما يكون في ابتغاء السعادة ولله درّ تنسون القائل :

نفسك اعرفها اعتبرها واحكمنْ ثم في القوَّة أمّل واطمعنْ

وإخاله يعني القوة الحقيقية — القوة الفضلى التي يحق الافتخار بها — ألا وهي قوة المرءِ على نفسهِ

أجل كل فرد مملوك ومحكوم عليهِ على حين الافضل ان يحكم الانسان نفسه ويملكها عن غيره . ولكن يا للعجب اننا نتحمل من شيم الغير واطوارهم ما لا طاقة لنا عليهِ لو رأيناه من انفسنا . وزد على ذلك اننا قد نتحرر من رقّ سوانا وننجو من ظلمهم اما ربقة اهوائنا فلا تسقط عن اعناقنا . وعدم الطاعة لأحد خير من الامرة على كل احد . وكذلك تسلطك على نفسك خير من الحكم على الاخرين والتسلط عليهم . وانهُ لواجب على كل انسان ان يستخرج من نفسهِ خير ما فيها ويظهرها للملا اذ كما قال تنسون :

ليس حب النفس ذنباً فاحشاً انما اهمالها الذنب العظيم

وقد قيل ان الناس يتسلط عليهم احد اثنين — اما العقل واما

---

(١) سلدن

الهوى . اما الهوى فسيد متقلب الاطوار يرمي بعبيده في كل تهلكة وخطر . ومن كان لا يستطيع التسوّد على نفسهِ فأنّى له ان يتطلّب السؤدد على الآخرين ! واما « سيّد نفسهِ واميرها فلا يلبث ان يبيت سيّداً لسواها (١) » ومن لا يسود نفسه فالآخرون سائدوه عن قريب . واي نصيب لغضوب تغلي مراجل حدته مع جلود تخمد نيران غيظه ؟ وكم أجاد سينكا بقوله : « الغضب كالمطر يتذرّر ويتفلّق مما ينصب ويصيب » . فاكبح جماح الحدة ما استطعت واذكر انهُ اذا كان الحق بجانبك فزمام طبعك في قبضة يدك لا محالة . روى الفيلسوف سينكا ان الفيلسوف ديموقراطوس كان يضحك من جهالة البشر وحمقهم بينما هريكايتوس كان يبكي من اجل ذلك . ثم قال : « ولكن من سمع يا ترى بفيلسوف غضبان ؟ » . واذا تمكنت من معرفة حروف الهجاء ومن معرفة نفسك فقد امكنك كل شيء . ليس الثاني بالسهل ولا الاول . وكم ينسى الكبار صعوبة تعلم الألف باء . . . الاّ انها تتعلم مرة في الحياة وكلنا تضلعنا منها منذ الصغر اما التمكن من النفس فيقتضي لهُ مراقبة وسهر دائمان . وكل واحد يمكنهُ تحقيق هذه الأمنية فيتغلب على نفسهِ اذا قصد وأراد . ولقد يتعذر ان يكون الجميع ساسة محنكين او فنيين متفننين او فلاسفة معدودين ولكن الألزم والأهمّ والأولى ان نكون اولاً من عداد الاخيار الصالحين وذلك لنا ان نختارهُ — فلنختارهُ ونتوخّه غاية هي

---

(١) بايكون

غاية الغايات . « حسن حالنا وسوءُها متوقفان علينا والباقي على الله[١] »
والذي يشقي المرء انما هو العالمُ الذي في صدره وليس العالمُ الذي
يعيش فيهِ . نصلي ونطلب ألاَّ نُقاد الى التجارب وتسعاً وتسعين مرة
من مائة انما نحن القائدون انفسنا الى مهاويها

ونِعمَ ما قالتهُ مسز برونن من اننا لا نهتم بنفوسنا اهتمامنا باشتغال
الحديد . وحقًّا ان القلب كثيراً ما يضارع الحديد صلابة وقساءً .
اما الارادة فهي أصلب من الحديد وأقوى او يجب ان تكون كذلك
ومحدودة هي صلابة الحجر والحديد . فقطرات ماءٍ تذيب الصخر
وتفتتهُ . فاحرِ بالارادة (صدق العزيمة) ان تكون اكثر من الماءِ
تأثيراً ومفعولاً . ومن تلفت حاله فما غير نفسهِ من جانٍ عليها

يفتخر الانكليز بكونهم أحراراً . على ان الحرية حريتان .
الباطلة وهي ان تفعل ما تشاء . والحقة وهي ان تفعل ما يجب .
وكثيرون يحسبون الثروة تغني عن العمل ويفرغ معها الوقت وان
الفراغ تملأه المسرات والملذات . لكن اي نوع من المسرات ؟ اذ
فرق عظيم وبون شاسع ما بين المسرات الزائفة والمسرات الحقيقية .
فالاولى تمرّ مرّ السحاب . والثانية تستمر وتدوم . المسرات الحقيقية
تشترى سلفاً . اما الفاسدة فيدفع ثمنها بعد حين ومع الربا والفوائد
الفاحشة . وما اصدق قول توماس اكمبس « يُقبل الفرح الجسدي
بثغر بسام . لكنهُ يعض ويقتل في آخر الامر » . المسرات الباطلة

---

(١) جوبرت

تأتينا من الخارج ومما حولنا وهي ابداً ناقصة . اما السعادة فشعور داخلي هو فينا ولنا

قال السر جورج كورنوال لِوس « لكانت الحياة محتملة لولا ملاهيها » او كما قالت مدام دي سڤيني « نحن بين المسرات ولا نعرف دقيقة فرح » . وألفرد أوستن يقول : « الهدوء والسكينة خير افراحنا جميعاً »

ومن لنا بوصف السعادة ! انها لا توصف . وهاك ما قاله شاكسبير بهذا المعنى « الهدوء والسكينة هما رائدا الفرح . وما أقل سروري اذا كنت استطيع ان اصفهُ لك » . وفي نظر ابقراط « الانسان لا يقدر ان يعيش براحة الاَّ اذا كان يعيش بشرف وعدل وحكمة . واذا عاش على الحكمة والعدل والشرف فمن المستحيل ان يعيش على غير الراحة »

قيل انهُ ما فرغ الآلهة من شأن الخليقة حتى أعلنوا للبشر أن سيقتسموا الارض فيما بينهم وضربوا لهم موعداً لذلك . وما آن الموعد المضروب حتى وضع اهل الزراعة أيديهم على الحقول الممرعة واخذ التجار يمهدون القفار و يسلكون البحار ، واحتل الرهبان منحدرات الجبال الصالحة لغرس الكروم ، وخصص الاشراف وابناء الترف الأحراج والغابات لاجل الاصطياد والتنزه ، واستولت الملوك على الجسور والمضايق والخلجان لاجل وضع المكوس والضرائب عليها . اما الشاعر فما نجا من حيث كان غريق التأملات العميقة ، حتى هبَّ

يسعى ووصل فوجد كلاً قد فاز بنصيبهِ فراح يبكي بختــهُ ويطالب بحقه . ولكن ما الحيلة ولم يبقَ في يد الالهة شيءٌ يُعطى . فقالوا له : « هيَّا تعال اسكن معنا في صفاءِ السماء الابدي . تعال الينا كلما شئت فالباب ابداً مفتوح لك » . فقنع الشاعر بما أصابهُ . الاَّ انهُ غني عن تكلف مشقة الصعود الى طبقات الجو وطياق السماء فهو اذا شاء وخلا باله وسكن بلباله ففكره يستنزل السماء الى الارض

أجل ! ليس لأي شاءَ ان يكون شاعراً . على ان هذه الدعوة الالاهية تشمل الجميع وما علينا الاّ ان نقبلها . لا يتسنى لجميعنا فنكون اصحاب سطوة ، او اغنياء ، او ثاقبي العقول . اما السعادة والصلاح فنصيب كل انسان . كل واحد يمكنهُ ان يعيش حياة زاهية زاهرة وجميلة اذا اختار . ان الامر في يدينا . ننجح ونتوفق اذا اخترنا ، انما اذا استفرغنا الجهــد وبذلنا المستطاع . نحن لا نظفر الى العالم كاملين كما وُلدت فالاس . والاطفال يولدون على البراءة من الذنوب ولكن ليس على الفضيلة . وحتى الذين لسوء حظهم يرثون ميلاً الى الشرّ فقد ينجون من شرّ سلالتهم ان أرادوا . وما العبرة بالحذاقة ، بل بمجموع الصفات وقوتهــا . « العقل ينفع في كل شيءٍ لكنهُ لا يكفي تماماً لشيءٍ ما » . فروسو لا ريب في انهُ من احذق الناس والبّهم ، اما حياتهُ فكانت السعادة بعيدة عنها . ولماذا ! حبه لذاته ، وافتخاره واعتداده بنفسه ، اتعساه واشقياه

الأحزان والآلام لا بد منها . الاَّ انها كم يبالغ فيها وتعظم

كثيرون من الناس يشقون انفسهم من اجل امور تافهة او طفيفة قليلة الأهمية . فمن نظر الى الامور مدركاً نسبتها بعضاً لبعض رأى كبيرها صغيراً واصلح شأنه . ولكن الناس ميالون الى التحديق في مصادر الأحزان ومصادر الوجد ، معرضون عن مجاري البركات التي تكتنفهم او كأنهم يحتقرونها لانها ابداً تحت عيونهم وابصارهم . فالمصيبة الصغيرة تتوهمها كبيرة ، والبركة الكبيرة تلوح لنا صغيرة وما اولى الامر بالعكس

ليس الألم شرًّا وضرراً دائماً كلاًّ ولا هو غالباً كذلك . فكثيراً ما يكون علامة خطر تنذر وتحذِّر . وحقاً لولا الألم لكنا نخسر حياتنا ونموت مراراً كل يوم . هذا مسلم بهِ ومقبول . وليتنا بنفس السهولة نعتبر ان الآلام العقلية لها ذات الشأن ، فنحسب الحذر والاهتمام والسهر ، وقايةً من الخطر والرزيئة ، والحزن الوقتي منجاةً من اليأس والقنوط

من الجهالة ان نشقي النفس ونعذِّبها توقعاً لمصائب قد لا تقع مطلقاً . وتبعاً للمثل القديم لا فائدة من القفز قبل الوصول الى الحفرة . لا مشاحة انهُ يشق علينا نفي الاضطراب وعدم القلق اذا اندفعت امورنا في غير مجاريها . على ان ذلك محض خرق وجهالة . لانهُ ان نكن نقدر ان نردّها الى حيث نريد فلنفعل ، والاَّ فماذا يجدينا ان نتحسر ونأسف . وكثير من متاعب الحياة ليس الاَّ تجارب نبلى بها فلنحسن البلاء ، او فرصاً تسنح لنا فلنغتنمها

واذا كنا غالباً نكبر المصائب ونزيد في الطنبور نغمات ، نتج اننا دائماً نعجز عن قدر البركات قدرها وصممنا عن سماع المطربات .فكم من لمعة خير تلوح لنا كل يوم ولا تستلفت منا نظراً ، على حين ينبغي علينا ان نتلقاها بالبشر والشكر . فبكلمة يجب ان نتمتع بما في يدينا بدلاً من التحرُّق والتشوق لما ليس لدينا

الخطيئة نبع الأحزان الاصلي. وهو خطأ فاحش ان نحسب التوبة نجاة من التبعة . قال جوبرت : « وخس الضمير هو عقاب الجريمة ، والتوبة الكفَّارة. فلا تقل ان الصالح هو كل عمل يدعو الى السعادة ، بل ان الصالح وحدهُ هو ما يدعوها ويجلبها »

ولله مخاطبة روسكن لصورة جميلة قولاً بهذا المعنى : « لما أجيل نظري فيها ، كل خطاءٍ ارتكبتهُ وكل جهالة فعلتها في حياتي ، بل كل ما أتيت من هذا القبيل يتمثل لي ويسترقني ابتهاجي بها ، وكأنما يقصر يدي عن امتلاكها وبصري عن رؤيتها ، وفهمي عن ادراك معانيها . كما ان كل همة ابديتها وكل بارقة اصلاح واستقامة لاحت في حياتي تعود اليَّ الآن وتساعدني على التلذذ بهذه الصورة وبكل جميل »

السعادة والسلام لا يتوقفان على الحظ والبخت . « هو الضعيف العاجز من يزعم ان النجاح يتوقف على الحظ بالأكثر . انا لا اعتقد اصالةً بالحظ والطالع والنصيب . والإنسان الذي يعلل نفسهُ ببارقة حسن طالع تلوح في السماء قد يظل منتظراً الى ان يومض لهُ برق صاعقة

تنقضّ عليهِ فتقضي على امره » [١] . اما انا فلا انفي وجود شيءٍ كالحظ . ويروى ان تيموثوس الأثيني بعدما قدم حساب حكومته مكرراً في تقريره عبارة (وهنا لم يكن دخل للحظ والنصيب) ناوأهُ الزمان من اجل ذلك وما عاد افلح في مشروع شرع فيهِ . فاعتقاد المرءِ بنجم سعده لا يُنكر تأثيره وفعله . واسمع مقالة الفيلسوف بايكون « الحظ وما ادراك ما هو . هو باعث الشجاعة في الصدور . هو الشعور بان الأيام لنا ومعنا والخالق فينا الجرأة والاقدام . وبدون اقدام لا يأتي المرء شيئاً يذكر . وواحدنا لا يقدم الاَّ اذا كان واثقاً من ان الأيام ستنيلهُ مبتغاه » . ومع ذلك فعاجلاً او آجلاً يتحصحص الحق وينجلي ما كان مبهماً غامضاً فيعرف صاحب الاقدام شأن الحظ ودخله في اموره

أجل اننا نعيش في عالم جميل للغاية ، ولكن قليلة هي الصالحات الطيبات التي تنال فيهِ بدون تعب او مشقة . فهو ليس عالماً يطمع فيهِ بالافلاح والتقدم من كان خوّار العزم سريع الفشل قليل الامل . المثابرة — المثابرة المتواصلة الجدية — هي عنوان النجاح والزم لزومياتهِ . فالثبات الثبات ! !

طالب الإثراء من محراثه ربما انقاد لهُ عاصي الغنى
ذاك ان يقبض على نفس لهُ ويسقها نحو هاتيك المنى [٢]

النوم — ليس من ينكر انهُ من كبرى البركات التي نُمنى بها .

---

(١) فردرك تريفس (٢) فبرنكان

الاَّ انهُ كسائر الخيرات لا بد مع التمتع بهِ من الحكمة والإِعتدال . فالاكثار منهُ يصيرهُ احدى اللعنات والضربات

اما الراحة والبطالة فليسا كسلاً . بل هما شيءٌ وهو آخر . هما استعدادٌ ، وتجميع قوة للعمل وللتقدم ، وهو الابتعاد والفرار من العمل والاجتهاد

اذا ما الصحة ، او اعوازها او اي سبب آخر اقعدنا عن العمل واوصد في وجهنا باب الاجتهاد واوقفنا عن اتباع خطة مؤداها النجاح ، فباب الصبر و التسليم مفتوح لنا والبطل العاقل من يدخله . كل انسان يمكنهُ ان يحيا حياة العظمة الادبية ، وغالباً ما تكون اكاليل الظفر على العذاب اي أكاليل التجلد والتجمل ، اشرف واجمل من غار الانتصار على الصعوبات وتذليلها . وما الذي يمنع من صيرورة كل حياة حياة فرح وظفر . « اجسامنا قد يُعبث بها ولا يكون الذنب ذنبنا اما عقولنا فلا » (١) فشعوران يجدر ان يلازمانا ملازمة الروح للبدن ذكر الماضي بالجميل ، وانتظار الآتي بالامل . ولكن الأمل الوطيد لا يكون بدون اتكال وايمان وكرم نفس واحسان اذ لا يكفينا ان نعتد بقوتنا الشخصية بل نحن مثل بروموثيوس محتاجون الى اقتباس نار من السماءِ واستمداد قوة علوية

انهُ لخطأ مميت ان نحسب الخلو من الأعمال والبطالة في عداد الامتيازات ، والكدح والاجتهاد من نوع العقوبات . « لا حقارة في

---

(١) شيشرون

الشغل ، انما الكسل حقارة هي كل الحقارة[١] » هذا كان مبدأ هزيود اليوناني اما بنو أمته فلم يروا رأيه . ولعل تخليهم عن هذا المبدأ العملي ما آل الى سقوطهم وتقهقرهم. انهم اهتموا بالفنون الجميلة واعلوا منارها ، وواصلوا الحروب واصطلوا بنارها ، واعتنوا بالأبدان وروّضوا اعضاءها الاّ انهم غفلوا عن رياضة النفس على العمل والاجتهاد فكان ينقصهم الثبات وضبط النفس والاحتمال ، وطول الأناة ومعاودة الشغل ومواصلة قوة ادبية عظمى ، وهذه القوة كانت تعوزهم فلم يقتنوها . لا ريب انهم كانوا امة عظيمة الاّ انهم لم ينصفوا في احتقار الغير واعتبارهم من نسقط المتاع ولا احسنوا في ترفعهم عن العمل وتكبرهم على من سواهم

ان ابناء الجنس الأبيض لا يزالون ينظرون بعين الاحتقار الى من خالفهم لوناً و بشرة . وكان الأجدر بنا ان نقلب الطرف فيهم لنرى ماذا نقدر ان نأخذ عنهم ونتعلم منهم . فالبرميون يكرهون الحرب واليابانيون يبالغون في احترام البوشيدو . فهل تعلمنا من هؤلاء اعتبار انبيائنا ومن اولئك حب السلام

واليك شذرة من فقرة عثرت عليها في جريدة التيمس لسنة ١٩٠٤ بخصوص كتاب اليابانيين وتعاليمه . قال كاتبها « اذا لم نستطع الكلام عن بوشيودو اليابان ايجابياً ربما استطعناه سلبياً . خذ متوسط طرق المعيشة عند الهيئة الاجتماعية المتوسطة يكن البوشيدو

---

(١) هزيود

واياه على طرفي نقيض . فالبوشيدو يقيم لنا مثال الحاجة لا الثروة والوداعة لا الذل والتستر لا المباهاة ويحل الذات محل حبها ويُفضل صالح الحكومة على صالح الأفراد . وهو يبعث في الصدر الجرأة والجسارة ويأمر بعدم تولية الأعداءِ الظهور ويزيل رهبة الموت ويفضله على اي نوع من العار . يعلم الخضوع للسلطة وتضحية المصالح الخصوصية الشخصية منها والعائلية على مذبح الخير العام . يطلب من تلاميذه تمام الاذعان لكل تأديب مادّي وأدبي ويُنمي فيهم روحاً حربية . وبتحبيبه بفضائل الثبات والشجاعةوالتجلد والأمانة والاقدام وملك زمام النفس يُصبح مجلة سنية للشرائع الأدبية ليس للرجل والجندي فقط بل لعموم الرجال والنساء في وقتي السلم والحرب . فالبوشيدو هو فعلاً روح الامة اليابانية وهو سر ترقيها الى مصاف الأمم العظيمة

يقول « اميل » ان المدنية ليست بالضمير اكثر مما هي بالعلم . أوَليست بالاثنين بالأحرى ؟ اذ بدون العلم حياتنا المادية أمر مستحيل وكذلك بدون الضمير الحياة شيء لا يطاق . فالعلم ضروري من ضروريات الجسد والضمير من ضروريات النفس

العلم جاء الانسان بما لم يخطر للسحرة ببال . وشتوبريان لم ينصف ولا أصاب بحكمه على العلم ورميهِ بكل فرية اذ يقول : « انهُ يفسد كل ما يصل اليهِ . فالنباتي لا تهمهُ نكهة الأزاهر ولا يعبأ ببهاء الوانها ولا يؤثر عليهِ جمالها » ولو انهُ ذاق لذة علم النبات لما راح يرشقهُ بهذه

السهام . انما لله قوله في محل آخر : « محاسن الطبيعة انما القلب مقرّها »

الحقيقة هي فوق العقل . وقصارى جهد العقل ان يتوصل الى ادراك شيءٍ من الحقيقة . فمن اجل الحقيقة يحسن بنا ان نشتغل ونعيش على أهبة الموت اذا لزم !

« اعرف الحقيقة لتعرف الحق وتفعلهُ . هذا هو مختصر واجبات الانسان . فليتمسك بهِ من تتلاعب بهم ارياح السلطة هائجة من كل كل جانب » . العقل لا غنى عنهُ . أجل انهُ قد يغلط فهو ليس معصوماً . ولكن كيف نعرف ذلك ؟ بالعقل ! فهو ضروري ولكن يجب الاعتدال في تقدير استطاعته . يقول باسكال : « ان التوصل الى الحقائق الدينية يتم عن طريق القلب وروح شريرة تفسد كل شيءٍ » . ولو قلت قوله لحوّرتهُ واستبدلت كلمة حقائق بشعائر لأن أفضل دليل الى الاولى انما هو العقل . هذا ولا شك ان مجموع صفات المرءِ واخلاقه تؤثر في اعتقاده تأثيراً ظاهراً . فتصوّرات رجل بارّ صالح عن الخالق الباري قد تكون صواباً او خطأً اما الشرير الطالح فتصوّراته عنهُ تعالى خطأ لا محالة

نظرياتنا اليوم ليست الا وقتية . ورغماً عن تقدم العلم وازدياد معرفتنا العجيبين ان هذه الآراء والنظريات لا تزال تجريبية ابتدائية وكأنها ارض تنبت مواد البحث للاجيال الآتية . وقبل الانتهاء الى حل مسألة الحياة واستطلاع سر هذا الكون العجيب المتاح لنا ان

نعيش فيه عظيمة هي الاشياء التي يترتب علينا علمها وعملها او تناسيها بعد تعلمها

مهما زاد شوقنا الى وجه السلام عبثاً نسعى في اثره ونحن هاربون من وجه الواجب

في عصور المسيحية المتقدمة زعم النساك والزهاد انهم يكرسون انفسهم ويتقدسون ويعيشون بسلام الفكر بمجرد انقطاعهم في القفار والابتعاد ليس عن هموم الدنيا وتجاربها فقط بل عن الواجبات الانسانية وكل مسؤولية في هذه الحياة . واني لأشكُّ كثيراً في انهم نجحوا وتحقَّقت امانيهم . العمل بامانة والاشتغال بالمفيد وقاية وصيانة في عدة احوال . ناهيك عما في الواجبات العائلية اللاذة وفي قوة ابساط نفوس الغير والتخفيف عنها وفي المساعدة والمعاونة من صفة القوة المطهِّرة للقلب المشرّفة للنفس . ومن ذا الذي يرى نفسه أحسن حالاً اذا تناسى احبابهُ واصدقاءهُ وتخلَّى عن واجباته نحو وطنه لكيما ينفق ايامه المعدودة ساعياً وراء ما لن يدرك ومفكراً بما لن يفهم

بقدر ما يجوز لي ان ابني الحكم على ما طالعتهُ في الكتب اقول ان الحسد والشقاق ليسا بعزيزي الوجود ضمن اسوار الأديرة ولو على قمم الجبال . ولا يحملنَّ هذا على الاعتقاد ان حياة الحركة والنفع يتحتم ان تكون مملوءة من الهموم والقلق . والمسألة ليست اي الحياتين حياة الانفراد والاعتزال أم حياة الحركة والعمل أقرب من مناهل السعادة والسلام لكن ايهما يتسنى فيها خدمة الغير اكثر

لا ريب ان الأديرة كانت اثناء الأجيال المظلمة لا يطفأ مصباح العلم فيهـا وكانت مستودع الآداب والعلوم ومعهد التثقيف وهيكل العبادة . بل كانت اشبه بموانٍ وملاجئ يأوي اليها طالب العلم والمعوز والمظلوم . انها كانت اذ ذاك من اكبر الفواعل لازالة بعض الشيء من همجية تلك الأيام وقساوتها . وحاشا ان ننكر فضلها

انما مهما يكن من ذلك فامرنا هو امرنا وواجباتنا تظل واجباتنا اي ان نشتغل في هذا العالم والاَّ نتبرَّأ منهُ وان نسلم من كل تشويه ووصمة وان كان هذا غير السهل اليسير . أوَليس يوجد حتى اليوم بين جدران المدرسة وضمن سجن الدير من يتاح لهم ان يُساعدوا اخوانهم اكثر مما يفعلون لو كانو من المترددين الى المثابة (القهوة) او من اعضاءِ مجلس الاعيان ؟

الشاعر الكبير دانتي قضى على البابا سلستين بعذاب النار لأنهُ اعتزل مهام الحياة وانزوى في ديرهِ . بل خصص لهُ ولأمثاله محلاً معلوماً من جهنم العذاب . وقد اشار الى ذلك بقولهِ في ملحمتـهِ المشهورة : « وصلت وحالاً عرفت زمرة الأوغاد الأرذال المبغضين لدى الله واعدائه » . ان اكثرنا قد يكون اكثر نفعاً اذا تعـاطى مهنة او عملاً في مزرعة او حانوت ولحسن الحظ يمكننا ان نجد الراحة والسلام حتى في معترك الأشغال وضوضاء المدنية . والذين يعرفون كيف ينبغي ان يعيشوا لا تزيد الحياة لهم الاَّ غنىً ولذة وغرابة والحق يقال انهُ لا يلزم ان يستديم العمل بدون انقطاع .

والشاعر شلِر أشار الى ما نحن بصدده اذ قال : « الانسان انسان وهو يلعب فقط » فاجاد الاَّ انهُ بالغ واغرق . وكل أحدينبغي لهُ ان يعيّد عيداً كبيراً كل سنة وعيداً صغيراً كل اسبوع. وزيادة على ذلك يلزمهُ ان يعيّد قسماً من كل يوم بمعنى انهُ يخصص ساعة او ساعتين لمحاسبة النفس والتفكر ثم لراحة الدماغ والرياضة البدنيـة واخيراً لأجل التسلية واللهو وهذا وان تأخر وضعاً فحقهُ التقدم اهمية. اذا ما ولّى النهار وأقبل الظلام يجدر بكل انسان ان يقف بنفسه بضع دقائق مفكراً في ما عمله اثنـاء نهاره وفي ما كان يمكنهُ او يجب عليهِ ان يعملهُ . ومن يتبع هذه الخطة يضمن سلامة ضميرهِ وجودة شاهيتهِ وراحة نومهِ

يظهر لي ان بعضنا اليوم يجهلون قيمة الفراغ والخلو من العمل وتخصيص ساعات للتأمل الانفرادي ومحاسبة النفس. فلمَ لا تزيد الحياة لنا الاَّ ضوضاءً وارتباكا فنعتبر حتى الألعاب المروّضة النافعة لابداننا قسماً من اعمالنا المملة المضجرة ؟

الشغل واجب من الواجبات الاَّ انهُ ليس كل ما يجب . أوَلسنا نرانا على أحسن ما نكون اذا انجزنا ما علينا وخلونا بعقولنا ونفوسنا ؟ وابناء وطني يشتغلون جيداً وقت الشغل وليت شعري لو كانوا يحسنون التصرُّف باوقات الفراغ ! ستة ايام العمل ما احسنها وما انفعهـا ! اما السابع فهو مقدس او يجب ان يعتبر كذلك . وأحرِ بنا في السابع من السبعة ان نفك العقل من عقالهِ فيحلّق فوق هذا العالم ويناجي

السموات العليا فيبقى بسلامهِ وصفائهِ وألوهيتهِ أوسع وأعمق من البحار وأعلى من السموات . ان انكلترا لم تنقص ثروتها بل نمت وزادت بما ان اسلافنا استمرُّوا لأجيال متوالية يشتغلون ستة ايام ويرتاحون يوماً واحداً . ان ذلك اليوم لا يعد ضياعاً . وما اجمل قول مكولي التالي : « اذا ما وقف دولاب الأشغال وتُرك المحراث في التلم وهدأت حركة التجارة وخلا الجو من دخان المعامل عندئذٍ دارت آلة دورانها أدعى الى غنى الامة من كل آلة سواها ألا وهي الانسان آلةُ الآلات تجدهُ يوم الاحد يصبح فينفض الغبار اللاصق ويرمم المتداعي الى السقوط واذا صح تشبيههُ بساعة قلنا « ويشد جنزيره » ويستعد للاسبوع الجديد فيقابله بروح وقوة جديدتين

ولكم نسمع الناس يقولون انهم خالو الايدي ولا عمل يعملونهُ . ويالهُ من وهم !! بل يالها من كذبة ! اذ ان أهم شغل لدينا واكبر مسؤولية علينا انما هما اصلاح النفس وهذا الواجب وتلك المسؤولية لا يفارقاننا طرفة عين . ولقد نحسب تولّي تهذيب أمير او ولي عهد من المراكز الخطيرة وهل ترى أهم من سهر المرء على نفسهِ مركزاً وواجباً ؟

فساعات الفراغ من هذا القبيل أهم الاوقات وأثمنها . لان القيام بواجبات المهنة والمواظبة على اشغال المكتب والسهر على تجارة المخزن وما اشبه كل ذلك من قبيل تحصيل ضروريات الجسم . ولكن لا يذهبنَّ عنا ان الجسم ان استحق التفاتاً فما ذلك الاَّ لكونهِ

هيكلاً للنفس لا اكثر

وقد نطق القديس اوغسطينوس بحكمة فائقة اذ قال : « الساعة التي تخلو فيهـا من العمل يملأها شغل عظيم » . ومع ذلك فكم من شيخ تخلَّى عن الأعمال واعتزلها ولزم بيتـه فصار يستبطئ الساعات ويشعر بثقل الوقت يتوهم الاَّ عمل لديهِ فيعمله ويغفل عن اكبر الواجبات واقدسها الاَّ وهما ترقية المرءِ لنفسه وعمله على اسعـاد الغير وهذا أسمى غايات هذا الوجود

الفصل الثاني

الجسم

عجيبة الخمسة ارغفة وسمكتين — الحياة عجيبة العجائب — الجسم والعقل — تركيب الجسم العجيب — الدماغ — الذاكرة — الحياة عطية ثمينة — شروط الصحة — النظافة — الصحة — الاضطرابات الفكرية — الترف — الثروة والقوة والصحة — الاعتدال — الهواء النقي — الصيام — الاكل والشرب — العمل والاجتهاد — الكسل — الصبر — النوم — الاحلام — الكحل

ان اشباع الخمسة آلاف نفس بخمسة أرغفة وسمكتين يُعدّ عجيبة بمعنى انهُ مخالف للسنة الطبيعية المعتادة ولكن هذه السنة نفسها عجيبة العجائب وأم العجب . فان كيفية معيشة الانسان على بذور تُزرع وتحصد أضعافاً وعلى قطعان تتوالد وتتكاثر وبالتالي كيفية تحول الخنطة واللحم واللبن الى عضلات ودم ودماغ هذا هو العجب العجاب . ثم بعد ذلك التحوّل انها لعجيبة أخرى كيف ان الدم يقوم بتغذية اعضاء الجسم المختلفة

اما الأعجب والاكثر ابهاماً فالعلاقة الكائنة بين العقل والجسم والهوّة الحائلة بين الحياة والموت . يخطئ سائق القطار قراءة علامة الخطر او يغفل عنها بالكلية او يجمح الجواد بفارسه او يختل احكام

الحك بين يدي الربان او نفقد الموازنة ونميل الى السقوط . . . هكذا الى ما لا يحصى تتعدد احتمالات حدوث المهلكات وهي محدقة بنا في كل زمان ومكان . وليست عوامل التلف والهلاك حولنا وحوالينا فقط بل في داخلنا واحشائنا ايضاً . اعتبر ذلك بانفجار شريان في الدماغ او ضعف يستولي على القلب او باقل اختلال يطرأ على الجهاز العصبي . أليس لحدوث أي من هذه العوارض والطوارىء يصبح كتلة مادة لا حياة فيها ما كان بالأمس حياً ناطقاً ذا شعائر ومدارك يحس ويفتكر ؟

ان خلقنا « لعجيب مريع » وليس لنا بعد من سبيل الى ادراك كيفية تركيبنا الغريب . ومع ان سپينوزا يقول بكل صراحة : « ان العقل البشري يلاحظ ويدرك كل ما يجري في الجسم » فاننا بالعكس جاهلون تمام الجهل وحتى أعلم العلماء والأطباء قليلٌ ما يعلمون عما في أجسامنا . وهو من المقرر المسلم بهِ انهُ اذا تكلمنا أو قرأنا أو افتكرنا حدث في الدماغ شيء ما . . . انما من لنا بمعرفة ما يحدث . ثم كيف نسمع ونبصر ونلمس ونشم ؟ أشهر علماء التشريح يعجز عن اطلاعنا على حقيقة هذه الأمور . فقليلة وزهيدة هي معرفتنا عن اجسامنا . ولنأخذ تركيب اعضاء الحواس الخمس أمثالاً

يوجد في الجلد عموماً وفي اليدين واللسان بالأخص كريات دقيقة صغيرة كل واحدة منها متصلة بعصب واعضاء لمس وغيرها مما وظيفته نقل الاحساس بالحرارة والبرد الخ . نعرف هذا . اما كيفية

انتقال التأثيرات الخارجية الى الدماغ وتحولها فيهِ الى شعور واحساس فاننا لفي تمام الجهل عنها

في اللسان ألوف من الخلايا الدقيقة المزعوم انها اعضاء الذوق . ولكن كيف تتأثر تلك الخلايا تأثرات مختلفة بحسب اختلاف الطعم وتنوعاتهِ ثم كيف يحصل ادراك ذلك في الدماغ — اننا عن حقيقة ذلك لفي جهل تام

ان في غشاء الانف المخاطي بعض خلايا صفراء او ضاربة الى السمرة تختلف عن سواها بعض الاختلاف — نعلم هذا. اما كيف ان هذه الخلايا تحمل الى الدماغ الروائح الكثيرة على اختلافها وكيفية تلقي الدماغ لهذه الروائح وتمييزها بعضاً عن بعض فلا علم لنا بذلك مطلقاً

تستقبل طبلة الاذن اهتزازات الهواء وتنقلها الى مجتمع اعصاب السمع بواسطة سلسلة عُظيمات مقصود بها تقوية تلك تلك الاهتزازات الهوائية . وقد ذهبوا الى ان في الاذن اقواساً صغيرة نحو الاربعة آلاف عدًّا والى ان هذه اشبه بمفاتيح الأرغن او البيانو فتقع عليها التموجات الصوتية كما تقع انامل الموسيقي على آلته الموسيقية . وقد يكون الأمر كما يزعمون ولكن أي تفسير للسر هذا ! فالأذن آلة طرب اذاً ! ولكن كيف لها ان تفسر تلك الاحساسات الخارجية أو ان تميز بين الأنغام ؟

ثم انظر الى العين وتركيبها . فهي مؤلفة من اغشية منها القرنية

والرطوبة المائية والقزحية والجليدية والرطوبة الزجاجية والشبكية وهذه مع انها لا تزيد سمكاً عن أرق قطعة من الورق مركبة من لا أقل من تسع طبقات تعرف الداخلية منها بالعصي والمخروطات وهي قوابل تموجات النور . وعدد العصي والمخروطات لا يكاد يحصى . وقد قيل ان عدد المخروطات ٣٠٠٠،٠٠٠ وعدد العصي نحو ٣٠،٠٠٠،٠٠٠

هذا هو تركيب آلة النظر العجيبة . ترتسم المرئيات على الشبكية كما تنطبع الصوَر على اللوح الفوتوغرافي فيبقى الرسم واضحاً ولا يبرح هذا اللوح نظيفاً مستعداً لينطبع عليهِ رسم جديد . نعلم هذا ولكنهُ دون الغاية . فمن لنا بمعرفة ما يحدث بعد ما تنطبع الصورة على الشبكية وكيف تنقل هذه التأثيرات الى الدماغ . ثم كيف يتم تمييز الألوان الخ . وكيف تنقل هذه التأثيرات الخارجية الى الدماغ وكيف يحدث فهمها من قبله — هذا مما لا نزال نجهلهُ كل الجهل

ثم خذ عملية الهضم . نأكل ونحوّل الطعام الى لحم وعظم ودهن ودم واوتار وجلد بل الى اميال من العروق والشرايين والى رئة وكبد ومئات من المواد والسوائل كل بخاصياته ومنافعهِ الذاتية . ولكن كيف تتم كل هذه التغييرات الكيميّة — لا نعلم

وهكذا يمكنني ان أحلل سائر التغييرات والتحويلات التي لا تزال آخذة في مجراها في تركيبنا العجيب كالافراز وتكوُّن الدم ودورانه ومنافع سائر الأعضاء — ولكن ما الفائدة وكل وصف كما مر ينتهي بنا الى ضرورة الاعتراف بجهلنا التام !

فما أقل ما نعلم اذاً وبمعنى آخر ما اكثر ما نعلم ايضاً . ولقد ألفنا وجود الحافظة « الذاكرة » بين قوانا العقلية حتى صرنا لا نرى فيها عجيباً مع اننا نحار اذا تأملناها . ويجوز ان نقول بحصر المعنى ان أجهل الناس وأغباهم لهُ مَن ذاكرته خزانة مشحونة علماً ومعرفة . اعتبر ذلك بما يحتوي عليهِ الدماغ من امثال تذكارات ايام الطفولية والاصدقاء والاقارب والاصوات والاذواق والروائح والصوَر والاماكن والملامح والأشعار والأغاني واسماء الأصحاب والأنسباء والملوك والابطال ورجال السياسة والشعراء وتواريخ الحوادث والأقوال المأثورة والامثال السائرة والحقائق والاوهام الى آخر ما هنالك . ثم قف وتأمل كيف عرفنا ذلك وكيف حفظناه وكيف يمكننا ان نستعيده متى شئنا

الانسان بالحق عجيبة ، حُبِي « بعطية الحياة الثمينة التي لا يعطاها الاَّ مرة واحدة لانهُ انتظر مرور الأزل حتى خُلق والان وقد خُلق فان ابدية تنتظرهُ لترى ماذا عساهُ ان يفعل . ثم ان هذه العطية المهداة اليهِ قد يُنتزعها بما لا يحصى من الطرق واذا فقدها فماذا يبقى منهُ ؟ لا شيء الاَّ كتلة يأس منتنة لا حياة فيها نلفّها بالاكفان ونواريها التراب . زد على ذلك اننا نندبها ونبكيها اذا دفناها وبحق نفعل . وان للمفكر في هذا الأمر لداعياً الى الحزن هو اصل كل داعٍ سواهُ »

والخلاصة ان تركيب الجسم معقد تعقيداً لا يصح باعتباره التعجب

من اعتلاله ومرضه احياناً بل الأولى بنا ان نعجب لصحته وسلامته . ولا غرابة في اننا نتعذب احياناً ونتألم أخرى . ولكن من حسن الحظ انهُ اذا اشتد الألم قصرت مدته

والعلاقة الكائنة بين الجسم والنفس مبهمة غامضة وقد كثر التنازع في شأنها كما في أمر النسبة بين الايمان والأعمال . فالقديس يعقوب يقول « هكذا الايمان ايضاً ان لم يكن له اعمال ميت في ذاتهِ » وكما ان الجسم بدون روح ميت فهكذا العقل على هذه البسيطة بالأقل لا يحدث شيئاً الاَّ بواسطة الجسم . فضلاً عن هذا انهُ ليس لنا الاَّ جسم واحد لا نقدر ان نتخذ سواهُ . ولقد كان قدماء المصريين يعتقدون ان الروح ترجع فتحل في اي شبه لجسدها فكانوا لذلك يدفنون مع موتاهم اشكالاً وتماثيل تنتخب منها الروح ما يروقها . اما ارواحنا فليس لها قوة لمثل هذا الانتخاب

فمن أراد اذاً ان يعيش سعيداً وجب عليهِ ان يلتفت الى جسمهِ ويعتني بهِ التفاتاً واعتناءً معقولين ولكن ما أقل اعتناءنا باجسامنا وابعد التفاتنا عنها . نحشوها بالطعام ونحملها فوق طاقتها بل نسممها بالمشروبات ونهكها بالاجهاد أحياناً وندعها للكسل فيعبث بها الصدأ أخرى بل كم نُفرط بقواها تارة ونفرّط طوراً وكم نؤذيها ونشوّهها وقد نهملها ونغفل عنها بالكلية فلا نلبث ان نبلى بشديد العذاب عقاباً على ما جنينا عليها وما ذلك الاَّ عدل وانصاف

ومع انهُ لا يسع احداً ان يزيد في قامته قيراطاً واحداً فانهُ في

وسع كل واحد ان يمرض جسمه و يسقمهُ كما ان الكثير منا يستطيع ان يحفظ نفسه من كل مرض وسقام . والأغلب من الناس يمكنهم ان يتمتعوا بالعافية اذا اقلوا من الطعام وتجنبوا التبغ والكحُل واستكثروا من الهواء النقي والرياضة البدنية واشغلوا عقولهم وأراحوا ضمائرهم

لكل شعب وعصر ذوقهُ وشعاره . والنظافة التي نعدها اليوم ثانيهُ والألوهية (الصلاح) اولى لم يكن لها هذا المقام عند أسلافنا فكانت الأمراض والاوبئة تدهمهم من كل جانب . على انهُ مهما كانت الصحة جيدة ومهما بالغنا في تنظيم المعيشة من حيث المأكل والملبس وسائر العوائد الصحية فالجسم لا يسلم من تأثير العقل مطلقاً . ولذلك كما لا يخفى على الطبيب الماهر كثيراً ما يكون العقل اولى بالمعالجة من الجسم . وكثيراً ما يجدر بنا ان نخاطب الطبيب بعبارة مكبث :

ألا صف لعقل عراهُ الضنا ومن فكريَ استأصل الحزَنا
وطلسم خطوط الهموم الكبا ر بهذا الجبين خطوط العنا
وهاتِ دواءً دواءَ التناسي فاجرع منهُ بكل هنا
لعل سموماً تثقل قلبي تزول وابلغ بعض المنى

ومع هذا فكم من يسيئون الى اجسامهم بل يخطئون نحوها إما لضعف فيهم او لشر يستولي عليهم وبالاكثر لجهل يعمي بصائرهم . وما أغرب صنعنا وأعجب خلقنا ! وهذا الجسم كامل النظام ومرتب ومبني بدقة بل مناسب لمحيطه ومكتنفاتهِ بحيث يُعد اتلاف ادواتهِ

وآلاتهِ الدقيقة واخلال نظامهِ خطيئةً مميتة لا غلطة بسيطة . فلنذكر !

اننا لنعنى بتربية الغنم والبقر والخيل وتأصيلها باستبقاء أجودها والحرص عليهِ على حين الاهم انما هو ترقية الناس وتحسين الجنس البشري جسدياً وعقلياً وروحياً . اما اليسر وسعة الحال فلا يجيئان بهذا الاصلاح وربما كانت السعة مضيقاً ومهلكة . والتنعم وبالأحرى الترف والبذخ في المعيشة اخطار أولى لنا ان نجتنبها عوضاً عن الشوق الى الانغماس فيها . والمناخ الجميل قد يرخي ألياف الجسم والبارد او الشديد البرد قد يحبك العضلات ويقلصها لفرط ما يشدها فما الواسطة الى تلك الغاية ؟ « اصل الطهارة (بمعنى القداسة) في الطهارة (بمعنى الخلو من المرض) فمن اراد ان يكون طاهراً (قديساً) فليكن طاهر النفس أولاً » (١)

فضلاً عن ذلك متى كنا أصحاء وأقوياء سهل علينا ان نكون صالحين . ومعلوم اننا في حالة التألم والانتهاك نقلق ونضطرب لأقل الأمور اهمية بل ان نفس المصائب التي تزعجنا وتعكر علينا صفونا وهناءنا في حالة توعك مزاجنا قد لا ننتبه لها فنعبأ بها ونحن على غير حال

الثروة والقوة لا مأمن لنا فيهما من اوصاب الجسم ولا من هموم القلب بل انهما يزيدان التجارب والقلق والهوس في سبيل الرغائب . ومن المرويات ان الدكتور راد كليف وجد مرة بين يدي الملك وليم

---

(١) مدام دى سفيني

الثالث فقال لهُ : « انا لا أرضى برجلي جلالة الملك رجلين لجسمي ولو أعطيت معهما ممالكه الثلاث »

لا شك ان بعض الناس يولدون ضعيفي البنية مشحونين جراثيم امراض هم غير مسؤولين عنها ولا ملومون من اجلها . الاَّ انهُ لا مبالغة في القول ان التسعة اعشار من آلامنا مما جنتهُ ايدينا ونحن عنهُ المسؤولون

واليك ما ذكرهُ مستر تايلر في مؤلفه عن لعبة « الكولف » .

« اول ما يلزم لّعيب الكولف الرامي الى الغاية منها هو ان يعيش على النظافة والعفة والرزانة . وليعش المرء عيشة البساطة وليكن مع ذلك مهتماً معتنياً بنفسهِ ما يستطاع . ومن ينفق كل ما عندهُ من القوة ويفرط ويجازف بقواه الحيويه في أي سبيل كان فلا شك في انهُ حابط مسعىً ومعتزل ساحة اللعب عن قريب: فلديك احد امرين — إما ان تعتني بجسمك من كل قبيل او ان تطلّق اللعبة بتاتاً . ومن يعش على الرذيلة خلوًا من الاعتناء فلا يؤملنَّ النجاح في هذه اللعبة مطلقاً »

وما يصدق على لعبة الكولف قد يصدق على الحياة عموماً . وكلنا يعلم باي سهولة نستطيع ان نفسد الجسم ونضنيهِ . الاَّ اننا لا نكاد نصدق اننا نستطيع ان نحتفظ بصحته وسلامته ايضاً . فالاعتدال من الاهمية باعظم مكان . أعني الاعتدال في الاكل والشرب ! وربما كان تسعة من عشرة يأكلون فوق ما يصلح لهم . ولست اريد

الشراهة التي قد تتفق للمدعوين في وليمة بل الاستمرار يوماً فيوماً على تثقيل مِعَدنا وتحميلها فوق طاقتها . والاكثار من الاكل أسهل من سهل . ولا خوف على أحد من الاقلال . ناهيك عن ان المعدة اذا استقلت بحملها خفته خف القلب لذلك ورقص واشعر المرءَ بتمام الراحة . فالشراهة يعقبها السأم وانقباض النفس . وكثير من الناس يتعذبون من سوء الهضم وحدهُ ما يساوي سائر عذاباتهم جميعاً

لا يمكننا ان نصرف شيئاً من الوقت في الهواء النقي ونحسبهُ راح ضياعاً. بل ان الساعات التي نمضيها بانتشاق الهواء الطاهر محسوبة في عداد ايامنا بل قل و « تطيلها على هذه الارض »

الملاذ الجسدية وقتية لا تدوم وكثيراً ما تكلفنا اضعاف قيمتها . والاكل مجلبة للحزن والموت منذ كانت حواء في فردوسها . قال المثل « الحلق أقتل من السيف » وما اكثر قتلاهُ ! فاقفل فمك تخلص حياتك . والناس قلما يموتون الموت الطبيعي . فكثيراً مايقتلون انفسهم او يموتون قبل أجلهم . فطريقة اطالة الحياة هي ان تعيش بحكمة واعتدال في كل شيءٍ . والأكل باعتدال لذة يومية يتمتع بها المعتدل . وأحدهم كان يقول : « حسن الهضم من فضل القابلية والصحة من فضل الإثنين »

والافراط في الأكل مضر كالافراط في الشرب تقريباً. يحكى ان تيموثوس حاكم اثينا واميرها تعشى مرة مع الفيلسوف افلاطون وكان العشاء خفيفاً من حواضر البيت واجتمع بهِ في الغد فقال لهُ :

« ليس عشاؤك شهياً في وقتهِ فقط بل في الغد ايضاً » والعقل لا يقوم بوظيفته براحة والمعدة ملأى وتعبة بحملها . وطالما عدوا الصيام احسن استعداد للصلاة وحقاً انهُ لكذلك قبل الاقدام على اي عمل عقلي

الأكل فوق اللازم يسبب عسر الهضم وانقباض النفس وسواهما من الاضرار المألوفة . والشرب (المسكرات) اشد ضرراً وأذرع فتكاً . قال شاكسبير : « أعوذ بالله من ان يدخل الناس في أفواههم عدوًّا هو لص يسرق عقولهم » . والسكر هو اللعنة الكبرى الساقطة على الامم الشمالية

قال الحكيم « لِمن الويل لمن الشقاوة لمن المخاصمات لمن الكرب لمن الجروح بلا سبب لمن ازمهرار العينين . للذين يدمنون الخمر الذين يدخلون في طلب الشراب الممزوج . لا تنظر الى الخمر اذا احمرَّت حين تظهر حبابها في الكاس وساغت مرقرقة . في الآخر تلسع كالحية وتلدغ كالأفعوان »

ولو كانت عاقبة السكر الفقر فقط لهانت شرًّا . فالمدمن لا يدني نفسه لدرجة الفقير الشحاذ فقط بل يهبط دون هذه ويصير وحشاً وأقل من وحش . وعقابه ليس في عذابهِ بل في انهُ جرّ ذلك العذاب على نفسه . وليست العبرة بنتيجة الرذيلة بل بالرذيلة نفسها ورذيلة السكر هي مرارة الكاس وعلقمه

شر السكر في تمليقه واغرائه . يجلس الشاب وفي نفسه بعض الانقباض وقد اعترى ذهنه الكلل واستولى عليهِ القنوط واسودت

الدنيا في عينيهِ فيتناول قليلاً من الخمر (١) واذا بالافكار والخواطر تتوارد وتتخاطر والكلام يترادف ويتوالى ولا يلبث الهم ان يموت والرجاء أن يعيش وما هو الاَّ القليل حتى يرى نفسه سعيداً ويشعر ان قلبه يكاد ينزع من صدره فرحاً . كان قبل الكأس قنوطاً وهو بعدهُ سعيد طرب . ثم يشرب الكأس الثانية وكأنهُ الملك عزة وجلالاً . ولكن يا للأسف . كان آلهُ سراباً وكانت رؤياهُ حلماً

---

(١) اعوذ بالله من الانسان اذا ملك الخمرة من النفس وبات اسير الكاس لا يعرف الا الحانة بيتاً وغير اوحال الازقة مبيتاً فآل امره الى معقة ابويه ونسيان اخوته واخواته وانتهى بشقاء امرأته وبنيه وبناته وبموته قبل اجله وهذا لسان حاله

« اجعلوا ان مت يوماً كفني ورق الكرم وقبري المعصره
وادفنوني وادفنوا الخمر معي وضعوا الاقداح حول المقبره »

يغرس الكرمة بيمينه ويسقيها ماء جبينه حتى اذا دنت قطوفها جنى اثمارها واستخرج عصيرها وانتظره ريثما يختمر فيشربه اذ ذاك مراً بعد حلاوته وفاسداً بعد طهارته ! فهو الزارع والجاني والمجرم والجاني

اما عصير العنب الصافي فقد قرر الاطباء انه عظيم النفع وقاية وغذاء وشفاء وانه من افعل المقويات للدم ومنقياته وتأثيره الحسن في حالات سوء الهضم والامساك مما لا شك فيه. وقد انتبه له الاوربيون وصاروا يستخرجونه ويبيعونه للسليم وقاية وللضعيف غذاء وللسقيم شفاء

ويسرني هنا ان اذكر ان مواطننا جول افندي منصور (من حيفا مقيم بمصر) اخذ يهتم بترويج هذا الصنف المفيد في كلا القطرين مصر والسودان ولديه شهادة من المعمل الكيمي لمجلس بلدية باريس تؤيد ان العصير الذي يستخرجه هي اجود عنب جبل الكرمل خلاصة صافية لا اثر فيها للكحل مطلقاً. ويمتاز عن سائر المشروبات بانه لا يسكر مطلقاً فحقه التحليل في كل المذاهب والاديان . وحبذا لو اقبل الناس عليه وفازوا بفوائده (المعرب)

ففصاحته تحوّلت عياً وحمقاً وتماديه في اظهار الصداقة نحو رفاقه ادّى بهِ الى الاختصام معهم واتقاد ذهنه الوقتي انتهى بصداع اليم في رأسه

فالتبلّد والقنوط والكلل مخاطر وتهالك على التهذيب والتربية ان يقيانا منها ما امكن . لان كثيراً من الناس يلفون انفسهم على مثل هذه الحالات فيلجأون الى الخمر دواءً و بئسه من دواءٍ

دلت الاحصاآت على ان مطلقي المسكرات بتاتاً اطول حياةً من معاقريه ومدمنيه بل ومن المعتدلين فيهِ ايضاً. والكحُل لايقتصر ضررهُ على الجسم فقط بل يشمل الجسم والعقل جميعاً . فانهُ يصير المرءَ نزق الطبع شرسه دائماً مستعداً للخصام و يوقظ الشهوات ويقوّي سلطة الاميال والاهواءِ بحيث تصبح مقاومتها غير السهل اليسير

قال جرمي تايلر : « ان مصائبنا لفي داخلنا . ولو ان اكلة خس وشربة ماءٍ باردٍ تطفئان جميع نيراني فلا أعود أشعر بعطش الى الماءِ ولا الى الفخر و يفارقني حب اشباع الشهوات وشفاءِ الغليل واخلو من الحسد والطمع لكنت أحسبني من السعادة في حضنها. وحقاً لا أحد ينام نوم الراحة مثل ذلك المضطجع على بساط الطبيعة المسند رأسه الى ركبتها »

وحينما يكون الجسم صحيحاً سليماً ، لله ما اجملهُ من آلة ملقاة بين يدينا كوديعة نؤتمن عليها فيجب ان نحرص عليها ايما حرص . فمن العار والشنار اذاً ان نترك صحيحه معتلاً وجميله مشوّهاً وكامله ناقصاً وقد سلمناهُ امانة . ثم اذا اسأنا استعمالهُ او أهملناهُ فلا نلبث ان نراهُ

على غير ذينك الجمال والكمال اللذين يتصف بهما وهو متلبس بالعافية. والأمر لنا فاما ان نترك الجسم هيكلاً جميلاً ترتاح فيه النفس واما ان نغادرهُ خراباً ينخر عظامه السوس ويعلو عضلاته الصدأ بناءً متداعياً الى السقوط لا يلبث ان يختل ويسقط

الاَّ انهُ لا حياة لنا بدون الطعام والشراب . ونيكول يشير الى هذه الضروريات ببعض الاحتقار اذ يقول : « الانسان لا بد لهُ من الطعام غذاءً لدماغه الذي بدونه لا تستطيع النفس شيئاً . ولكن أي شيءٍ أحط من ذلك . ألكيما يعيش يلزمه ان يموت كل يوم بان يتوقف عن التفكر مدة اهتمامه بامر بطنه ؟ . فليشاء الله ويحطه الى رتبة الحيوان !

سار بين الرومانيين مثلان ملؤهما الحكمة وهما : « الشغل أي العمل يغلب كل صعوبة » « والشغل نفسه هو مسرة » . والمثلان متقاربان معنىً باعتبار ان الغلبة ولو في الطفيفات من الامور لا تخلو من مسرة . وجميعنا نحب ان نغلب ونربح ولو في لعبة مقصود بها التسلية وقليل من لا يجزع ويرتبك اذا غُلب وكان خاسراً . فاذا كان الشغل يُكسب ويربح في الختام فهل من ريب في ان السعادة اليفته وحليفته . ومن يعرف كيف يُقبل على شغله فيرى فيه لذة ويولع به ولوعاً فاحرِ به ان يكون فائزاً بالمسرات الحقيقية . الجسم والعقل خلقا للعمل ولا راحة لأيهما الا ريثما عمل واشتغل . وما الكسل الاَّ الصدأ اللاحق بالاناء المتروك . وقد يشتبه التواني بطول الأناة احياناً

ولكن يجب الحذر من ذلك والتمييز بينهما فان الفرق عظيم جداً . ناهيك عن ان العمل والاجتهاد في النهار يمنحانك بركة النوم في الليل وهي بركة كم تستلبنا اياها الهموم وأثقال الواجبات ولا بركة بعدها على حد قول شاكسبير بلسان احد الملوك :

كم ألوف تنام نوماً هنيًّا من فقير ما بات يملك شيًّا
أيها النوم انت اكرم ضيف وانا الملك فاستضف عينيا
ولماذا جفوتني بعدما كنت بلطف تغضُّ لي جفنيًّا
مودعاً هاته الهموم ببحر النسي حتى اتمَّ نوماً هنيًّا

وقد تعددت اوصاف النوم الجميلة ومنها انه مُرضع الطبيعة اللطيفة وانه الرداء الذي يغطي الافكار او الطعام الذي يذهب بالجوع والشراب المطفئ لنار العطش والنار التي تدفئ البرد والبرد الذي يعدل الحرارة والدرهم الذي يشتري كل شيء والميزان الذي لا يرجح فيه ملك على راع ولا حكيم على جاهل . اما كيف نتمتع بهذه البركة فلا ايسر من ذلك . فمن قضى نهاره بحكمة أتاه ليله بلذة الراحة . على انهُ لا ينكر انهُ قد تُلم بالمرءِ مصائب عقلية او جسدية فيأتي الليل ولا يأتي النوم . وقد اختبرت هذه الحالة بنفسي ولله ما أصعبها . اما الخطر فهو في محاولة استدعائه (اي النوم) باستعمال الأدوية والعقاقير . وتلك تجربة يجب الحذر منها ومن فارقهُ نومه فلابد من ان يعود اليهِ ويعوض عليهِ من تلقاء ذاتهِ لان ملاك النوم حكيم رحيم

وكنا يعود صغيراً في احلامه . وكان النوم يخفف من اثقالنا

وينزع حملاً تنوء به نفوسنا. فنرانا نسبح ونطير في فضاء الخيال ونرى من فقدتهم ابصارنا واشتاقت اليهم قلوبنا . فنحلق فوق هذا العالم خالصين لا من قيود الزمان والمكان فقط بل من سلاسل العقل وروابطه ونرتفع في اعلى سموات الخيال نسترق لحظات ونستمد انواراً من عالم اسمى واحسن من عالمنا هذا

تعود الينا اذ ننام نفوسنا ولا مقلقات ازعجت في نهارها
وترتاح من اهوائها ومطالب يذوّب منا القلب آكل نارها

والرتوع في ظل رايات السلام ليس بالسهل اليسير كما قد يلوح ويظهر . واذا كنا في ساعات الراحة ندع العقل وشأنه مع المصاعب والمشكلات والهموم والعذابات التي نبلى بها فلا عجب ان وجدنا اوقات الفراغ اتعب من اوقات العمل. وليلة قلق واضطراب اسوأ على المرء تأثيراً من نهار شغل شاق. فالاولى بنا ان نطرح عنا كل الافكار المزعجة ونلقيها جانباً. على ان اطراح الهموم لايخلو من صعوبة تذكر. واذا طردناها وخلا الفكر منها ومن سواها كانت هي الأسبق عودة اليها ولذلك أخلق بنا ان نرحب بالافكار الصالحة والمسرة اذا شئنا ابعاد الشريرة والمحزنة عن نفوسنا . ولا افضل في مثل هذه الاحوال من الانعكاف على مطالعة كتاب في التاريخ القديم او في العصور السابقة للتاريخ او آخر يبحث عن طبقات الارض والعصور الخالية او آخر يبحث عن طباق السماء ونجومها القاصية الى غير ذلك مما يحمل الفكر ويبعدهُ عن الحاضر وقلاقلهُ ويضلله في ظلام الماضي وأبعادهُ

اما الضمير التَعِب المثقل فلا راحة معــهُ ولا سلام وكما قال روشفوكولد : « من لم تكن راحته داخل نفسه فعبثاً يطلبها خارجاً »

نعلم ان الرؤى والأحلام كانت تهبط على الحكماء والأنبياء والليل مرخ سدولهُ لا والشمس في رائعة النهار . واننا ننظر أغلب ما ننظر بفضل نور الشمس. ولكن اذا غابت وتوارت عن العيان وغمرنا جناح الظلام تألقت السموات بملايين النجوم وعلمنا ان الشمس تخبئ عنا اكثر مما تبدي لنا . وهكذا نحن في ايامنا هذه اذا اتفق ان لاح لنــا الغير محدود فلا يكون ذلك والشمس في القبة الزرقاء ساطعة باهرة بل حين يتجلى القمر بضيائه اللطيف وتسفر النجوم درراً ولالئ . وان في الليلة المقمرة لسرًّا عجيباً !

الفصل الثالث

العقل

الجسم هيكل للنفس — النفس كل العالم لصاحبها — ملك عدس — نار برموثوس — قصر الحياة — الزعم ان الانسان مخلوق حقير — شقاء الحياة — لا بأس في الموت بالنظر لشقاء الحياة — قولان في الانسان مترادفان لا متناقضان — القوة — المرأة — الجمال — هيلانة — الشعراء والنساء — دروبادي — قول سليمان الحكيم في مرأة حكيمة — شرف الحياة — سر الحياة — وضوح الواجبات — قول ملتن في الحياة

والجسم مع انهُ يقضي بالعجب العجاب ان هو الا هيكل للنفس. والنفس ليست أهم من الجسم فقط بل من العالم باسره لانهُ « ماذا ينتفع الانسان لو ربح العالم كله وخسر نفسه » . ونرى في الحكاية المسيحية القديمة ان ملك عدس استحق الملامة لانهُ لسماعهِ بعجائب المسيح أرسل يرجوه أن يشفي جسمهُ لا عقله . الا انهُ لا يجوز مطلقاً ان نبخس الجسم حقه من الاهمية لان الاثنين معاً يؤلفان انساناً « والانسان لله اليد التي صنعتهُ. ما اشرفهُ بعقله ! وما ابعد شأوه بقواه ! و بهيئتهِ وحركاتهِ ما ادعاه للاعجاب ! . و بتصرفاتهِ ما اشبههُ بملاك ! و بفهمهِ ما اشبههُ بإلاه[1]

---

(١) شاكسبير

ان للنار التي استمدها بروموثوس من السماء لقليل اضطرام او كثيره في كل واحد منا . ومَن يفكر لا يسعهُ ان يتجاهل عظمة الحياة وجلالها . والانسان بعبارة سر توماس برون « ما اشرفه من حيوان . انه رائع باهر ولو رماداً وذو هيبة ولو في ظلمة القبر »(١)

وبالحقيقة انهُ لفخر عظيم للكائن أن يكون انساناً . ولا شك اننا بمعنى لسنا الا مزيج اجزاءٍ كيميّة وقد قدروا معدل شغل الانسان اليومي بقوة اربع ليبرات من الفحم . وحسبما وصفنا الاستاذ هكسلي بطريق الهزل يقال اننا ائتلاف كربونات النشادر وفوسفات السودا وكالورس الخ

وعدة من الكتّاب وصفوا الانسان بما يحقره كل تحقير . واليك قول احدهم ذاكراً ان قصر الحياة موضوع يطرقه الفلاسفة والشعراء على حد سواء

مثل طلّ سحراً يعلو الجبال كلما لاح الضحى تلقاه زال
او كما فقّاعة الإزباد في النـــهر تلفي حالها في الحال حال
هكذا أنت أيا انسان ان تمضِ فالعودةُ وعدٌ بالمحال(٢)

تشبّه التوراة الحياة بحلم وبنوم وبخيالٍ يزول وبخارٍ يضمحل وماءٍ يهرق على الارض وبحكايةٍ تُحكى . ناهيك عن ان الحياة لم تنعت بالقصر فقط بل بالذمامة والحقارة ايضاً . وبوذا جعل اساءة الظن في الحياة بمقام العقيدة والمذهب . فكان يتراءى له ان الحياة كلها

---

(١) توماس برون (٢) سكوت

احزان وهاك قوله « الولادة حزن والكبر حزن والمرض حزن والاجتماع مع مَن لا نحب حزن والانفصال عمن نحب حزن وبالاختصار ان علاقاتنا الخمس مع حطام هذه الارض جميعهنَّ احزان »

وهوميروس انطق افلون بما يأتي :

أمن اجل اهل الارض نحن بنو السما
غدا بيننا هذا الخصام مضرَّما
أيجدر بالعقل السماوي وقد سما
تدن لهاتيك الشؤون ليحكما
ولادتهم شرٌّ عليهم ودَينهم
عليهم لها واهٍ حياةً ومطعما
كأنهم الاوراق يوماً ترونها
تتيه جمالاً تفتن الشمس مبسما
ويوماً على سطح الاديم ترونها
وقد ذبلت لا تبهج العين مثلما . . .
دعوهم وأحوالاً عليهم وبالها
وعهدي بأهل الخلد أسمى وأعظما (١)

وڤكتور هيغو نظر الى الحياة نظرة اليأس والانقباض حين قال

أولادة لنعيش في طلب الممات ومنية فيها نتوق الى الحياة

---

(١) لم اعثر على هذه الابيات في الالياذة ولعلها من ملحمة هوميروس المعروفة بالاوذبسية

فاذا شببنا شاقنا عهد الصبو وَة حين كان القلب في عمق السبات
واذا كبرنا نستعيد ولا يعو د شبابنا من بعد ما ولّى وفات
ولدن نموت نقول اواه الحيا ة ولو شيوخاً آه ما اقسى الممات

ومع ذلك فكثيرون من اولئك الذين يتأففون من الحياة ويعافونها يتذمرون شديد التذمر عندما يُقضى عليهم بتوديعها . فكأنهم في موقف الوداع يعتبرون وهذا لسان حالهم

أفخر القيادة والسطوةِ وذاك الجمال مع الثروةِ
وكلٌّ سبيل لمجد العلى يؤدي اخيراً الى الحفرةِ (١)

ولكنهم يستأنفون ويقولون كانهم ينتحلون لانفسهم عذراً

اذا حلَّ موت فما نوجلُ من الموت لولا الذي نجهلُ
فبعد الممات ترى ما نكون ؟ واين نكون ؟ لذا نوجلُ (٢)

وحقًّا ليس الخوف من ان كل حيّ عرضة لسهام الموت المسددة بل مما يليهِ اذا نفذت سهامه :

نجدّ الرحيل لذاك البلد وما آب منهُ الينا احد
ونخشى المعدّ لما بعد موتٍ لما نحن نجهل ذاك المعد
فنحمل رزءًا هنا يعترينا توقع رزءٍ هنالك أشد
كذاك الضمير يصيّر كلاًّ جباناً ويخلق فينا الجلد (٣)

ولا مراء ان الوُجَه التي يُنظر منها الى الموت مختلفة جدًّا . فهو « منية البعض ونجاة البعض وآخرة الجميع (٤) » وكثيرون يرهبون

(١) كراي (٢) دريدن (٣) شاكسبير (٤) سينكا

الآلام الشديدة اما الموت فغالباً ما يكون سهلاً جدًّا ولا سيما في الشيخوخة —

رأت في المنام سماءً فحلّت ولن تستفيق بتلك السما
بكل هدوءٍ تتبع فيها الـ حياةَ الممات ويا بئس ما...[1]

اعتبر حكماء الاسرائيليين ميتة موسى وهارون ومريم كانها قبلةٌ لا يكاد يشعر بها. فهل هذا يصدق على هؤلاء الثلاثة فقط ؟

وآخرون يعزّون انفسهم بالاعتقاد الآتي

لا موت ان العيش صاح ارتحالْ فيها وموت المرء عنها انتقال
وان يمرّ العمر مرَّ الخيال في سرعةٍ فلنقطعنَّ المجال
والقبر ذاك الباب حين يُنال نأوي دياراً نحوها الارتحال[2]

لما وقف سقراط لدى المحكمة وشرع يدافع عن نفسه ذكرها (المحكمة) كيف انهُ قاوم غضب الشعب برفضه ان يكون ممالئاً على الحكم باعدام العشرة قواد و بالتالي كيف انهُ واضعاً روحهُ على راحته بكل هدوءٍ وسكينة ابى الرضوخ لاوامر العتاة الثلاثين . وكم اجاد ما كولي بقوله « ان سقراط صرح باعتقاده تصريحاً ثابتاً وواضحاً حينما قال ان الموت هو ربح وانهُ ليس الا نوماً هادئاً خالياً من الاحلام واضغاثها » ثم اردف بمقالة هذا الفيلسوف قول الشاعر ملتن المختلف عنها :

اي جهلٍ ان قلت ان المنيه هي برءٌ من سقم كل بليه

---

(١) دريدن (٢) لونفلو

من ترى يفقد الفكار وهذي تتمشى في عالم الابديه ؟

وقال (اي ماكولي) واني وان كنت فكرت فكر ملتن مرة في الزمان فكل يوم اراني اقرب فأقرب من المبدإِ الذي وضعهُ سقراط »

والاجدر بنا في كل حال ان نقابل الموت اذا أقبل كما قابله سقراط الذي لم يتكلم في دفاعهِ كمحكوم عليهِ بالاعدام بل كمزمع ان يصعد الى السماء

ان هذين القولين — ان الانسان احط قليلاً من الملائكة وانهُ اسمى قليلاً من الحيوانات الهالكة — ليسا بمتناقضين بل انهما معطوفان الواحد على الآخر . ولكل انسان الخيار بين ان يتصف بالاول او بالثاني . وكل شخص يمكنهُ ان يكون شريفاً وصالحاً او دنيئاً وطالحاً ذلك كما يختار لنفسهِ . وكلنا رب قضاء نفسهِ وقدرها . وانهُ لفي استطاعتنا واختيارنا ان نصير ضعفاء واشراراً واشقياء او اقوياء وموضعاً للثقة وسعداء . وانهُ لامتياز وفخر مجيد لكل انسان ان يكون كذلك كما انهُ مسؤولية عظمى وعبء ثقيل على عاتقهِ . اجل يمكننا ان نرفع النفس الى قدس الاقداس او نهوي بها الى دركات الجحيم واذا كان الانسان ذميماً محتقراً فهذا ما هو صيّر نفسه اليه لا ما يمكنه او ما قُصد به ان يكون

الاطفال في بدء نشأتهم « ادنى من الملائكة بقليل » . وبعبارة سر توماس برون « لا بد ان فينا مسكة من الالوهية او شيئاً ما

سبق العناصر بوجوده ولا يدَ للشمس فيهِ » . فبحق قد قيل اذاً انهُ يجب حب النـاس جميعاً و بالاحرى اعتبارهم اللهمَّ بقدر ما يصونون كرامة نفوسهم و يحافظون هم على اعتبارها

ان الاولاد في نعومة اظفارهم خاضعون بحكم الطبع لمؤثرات الوسط الذي يكونون فيه . ومن ثم فالوالدون والمعلمون مسؤولون عنهم كل المسؤولية . وعقل الولد أشبه بصفحة بيضاء طاهرة نكتب عليها ما نشاء ولكن اذا كتبنا شيئاً تعذر علينا محوه . والمثال الذي نضعهُ نصب عيونهم مهم كالمثالة التي نلقنهم اياها ان لم يكن اهم بكثير

وجميعنا مدينون ليس لوالدينا ومعلمينا فقط بل للعصور التي خلت وسلفت .

« لاجلنا عاش المسيح ومات . ولاجلنا تعذب الشهداء وماتوا . ولاجلنا صلت الكنيسةُ الوثنيةَ حرباً عواناً . فكيف نقرأ تاريخهـا كأن لا دخل لنا فيهِ ؟ »

الانسان بالحق تركيب عجيب من الحيوان والملاك . وفنلون يقول « جسدنا شبيه بالحيوان ونفسنا شبيهة بالملائكة » ولكن كثيرون لسوء الحظ يحتقرون أنفسهم و يحطونها فيصيرون ليس ادنى من الملائكة فقط بل احط وادني من الحيوانات ايضـاً . ولكي نحفظ النفس على طهارتها يلزمنا ان نحرص على الصحة ما امكن . على انهُ لا ينبغي لنا أن نبالغ في مقدرة الجسم واستطـاعته فانهُ احقر من ان يدنينا من كل غاية

القوة عطية عظيمه . ولكن ماذا اجدت هرقل قوتهُ ! انهُ على رغمها لم يكن حرًّا بل عبداً مأموراً لظالم ضعيف . وعاش عيشة كدح ونصب ثم آل أمره الى ان قتل اولاده ومات هو اشنع ميتة ذاهباً غنيمة باردة لامرأة غيورة . وشمشون مثال آخر للقوة وهو ايضاً مات عن حياة غير حميدة وكانت آخرتهُ غاية في الشقاء

ان الشرائع المدنية تتناول الرجل والمرأة جميعاً . وانا لكذلك نعني المرأة في ما نقول . على انهُ لا بد من تخصيصها بشيءٍ من القول. فاذا كان العقل في الرجل اقوى منهُ في المرأة (واني لا اقطع بذلك) فان نور النفس فيها لا شك اسنى وابهى . وآدم لم يستطع ان يعيش حتى في الفردوس بدون حوائهِ .« و بدون المرأة يمسي بدءُ الحياة وآخرها لا قِبَل لنا بهما واوسطها لا مسرات لنا فيهِ » . ولكن لا شك « ان خفة رأس المرأة تثقل قلب الرجل »

كالقوة للرجل كذلك الجمال للمرأة . الا ان عطية الجمال كسائر العطايا ليست نفعاً خالصاً غير مشوب بشيءٍ من الضرر بل غالباً ما تكون لا نفع فيها اصلاً . والجمال منجم اخطار . ويا لسرعة ما يذبل جمال الشباب وتذهب نضارته . « لما وقفت هيلانة مرة امام مرآتها وتأملت تجعدات الكبر في وجهها تعجبت في نفسها كيف انها سُبيت مرتين لمجرد جمالها » . ولقد حاولت في غير هذا الموضع ان اظهر كيف ان اليونان اساؤُا فهم حياة هيلانتهم . وحسبي ان اقول في هذا المقام — انها لو لم ترضَ بأن تسبى مرة فاخرى ولو

انها عاشت بحظ اوفر من الحكمة واحسنت اختيار اصحابها لما كان فارقها حسن صباها بل لكان تحوَّل الى جمال الكبر الرزين والشريف وعندئذٍ لكانت الرجال تفتخر بالركوع تحت قدميها عوضاً عن محاولة سبيها بالخداع والقوة

كل النساء عليهنَّ نطاق الزهرة اذا اردنَ استعماله . وقد قيل انهُ ليس للفتاة ان تختار ان تكون جميلة في الربيع العشرين من عمرها ولكنهـا هي الملومة اذا كانت غير جميلة وقد وصلت الى خريف الخمسين . وفضلاً عن هذا مهما كانت المرأة جميلة في العشرين من سنيها فليس من الضروري ان يدوم جمالها لطويل

والمرأة طالما حركت قلوب الشعراء الحساسة وضربت على اوتار نفوسهم فاسمعتنا انغاماً شجية . وتأثيرها لا يقتصر عليهم فقط بل قد يتناول الفلاسفة والكتاب ايضاً . وقد ذكر بلوتارك : « ان مطمع المرأة الاسبرطية كان محصوراً في صيرورتها زوجة لرجل عظيم واماً لاولادٍ فائقين » . أما الشعراء الناظمون فطبعاً أشد لهجةً وتأثيراً من الكتـاب الناثرين . وهربرت سبنسر زعم ان الشعراء اتفقوا على اتلاف المرأة بفرط ما يطرونها ويتملقون اليها وقلّ ما يبعد زعمهُ عن الحقيقة . واذا اردت الاستشهاد فلا حاجة بي الى الرجوع الى الازمان القديمة ولْأبدأ بقول شوسر

كأني بها مما بها من فضيلةٍ صحيفة حسن قد حوت للفضائلِ
فناظرها يقرا جميـل خلالهـا على وجهها الحاوي جميع الشمائل

وتعشق من راءٍ يشاهد حسنها وتمدح طرًّا في مقالة قائلِ

واليك ما قاله بن جنسن في ضريح الياصاباط

حجرٌ يحوي جمالاً ذابلاً مائتًا من بعد ما كان نضيرا
بل جمالاً كان أبهى مظهرٍ لمعاني مفضل ان عزَّت ظهورا

وملتن يصف لنا امنا حواء بقوله :

كان الجمال مرافقًا خطواتها وسنا السما قد كان في لحظاتها
والنُبل كان مضمنًا سكناتها والحب كان مصاحبًا حركاتها

وهاك وصف سر ه . تايلر لاحدى ابطال رواياته : « واذا تحركت فكأنما الموسيقى هزَّتها وأطربتها » . او خذ قول وُلّر في نطاق يضمّ خصر سيدة :

هو حلقةٌ مع ضيقها اشتملت على خير الشمائل في جوانب خصرها
دارت على المحبوب طرًّا والجميـ ـل فدعهُ لي وخذ السماء بأسرها

و بلايك لا يقلّ عنهُ بحماسهِ الحبي اذ يقول :

اذا كلمتني فصوت السماءِ أو اقتربت فجواري طهُر
وان تصطحبني فكل الحقول فراديس تبهج مني النظر
وإما وقفنا بوادٍ سكوتًا فأرض مقدسة يا بشر

ومن ابدع ما جاء في الروايات الخيالية امرُ درو بادي في ملحمة ماهاباراتا الهندية . فهي التي اسرها الملك دُوريودهان وطلب اليها ان تتزوج بهِ ولما رفضت سؤله رفضاً باتًّا محتقرة اياه كل احتقار أمر أن تعرَّى وتجلد على عيون الاشهاد فضرعت الى معبودها كرشنا

وشكت حالها اليهِ ثم خلعوا عنها اول ثوب واذا بثوب آخر تحته فنزعوه واذا بغيره تحته ايضاً الى ان أتوا اخيراً الى ثوب تعذر عليهم نزعهُ فخجل الملك ولام نفسهُ ولم يسعهُ الاَّ ان يلغي حكمهُ و يسترد امره

ولكن اي قول يفوق قول الحكيم سليمان صاحب الامثال المشهورة والاقوال المأثورة : « المرأة الفاضلة مَن يجدها لان ثمنها يفوق اللآلئ . بها يثق قلب زوجها . تصنع له خيراً لا شرًّا كل ايام حياتها . تمد يديها الى المغزل وتمسك كفاها بالفلكة . تبسط كفيها للفقير وتمد يديها الى المسكين . العز والبهاء لباسها وتضحك على الزمن الاتي . تفتح فمها بالحكمة وفي لسانها سنَّة المعروف . تراقب طرق اهل بيتها ولا تاكل خبز الكسل . يقوم اولادها ويطوبونها ، زوجها ايضاً فيمدحها . بنات كثيرات عملنَ فضلاً أما أنتِ ففقتِ عليهنَّ جميعاً . الحسن غش والجمال باطل . أما المرأة المتقية الرَب فهي تُمدح »

فاذا كان للنساء أن يوحينَ الى الرجال الخير او الشر فأي قوة بعد هذه يعوزهنَّ !

ومع ان الرجال يختلفون عن النساء من عدة وجوه فان اكثر ما يصدق على الجنس الواحد قد يصدق على الاخر تماماً . فيمكننا ان نشمل الجنسين اذ نقول ان تشبيه الانسان بقصبة تحركها الريح لا يخلو من الصحة الاَّ انهُ قصبة ذات عقل وتفتكر

العظمة نصيب كل انسان . والمرء يبقى عظيماً الى ان يصغّر نفسهُ باختياره وارادته . فهو عظيم في قواه وفي الفرص التي لديهِ وفي

الامتيازات التى يتمتع بها وفي البركات التي يتنعم فيها . وهو صغير بقدر ما ينقاد لشهواتهِ وأهوائهِ و يستسلم للتجارب . وأن تكون رجلاً حقيقيًّا اعظم من أن تكون ملكاً ليس كذلك . والمجد انما هو ان تحكم نفسك لا من دونك . واحسان الخدمة والاطاعة فيهما من الشرف ما في الاستخدام والإمرة لا مشاحة

فما هو عنوان الرجولية اذاً ؟ ليس المقام الاجتماعي ولا البيت الفخيم ولا الاموال الوفيرة ولا الملابس المجوهرة ما يجعل الرجل رجلاً . انما العبرة بالشيم والاخلاق لا غير

يقال «الولد أبُ الرجل» بمعنى ان رجل اليوم هو بعينه طفل الامس وطفل اليوم رجل الغد . ولكن كثيراً ما لا نرى نسبة بين طفولية بعض الناس ورجوليتهم لكثرة ما يختلفان

وانهُ ليمكننا ان نعيش بحيث يقال عنا اخيراً كما قيل عن حياة كاسّيو : ان في حياتهِ لجمالاً يوميًّا

لا ريب ان الحياة سرّ مكتوم . وقد قال الفيلسوف پاسكال : «وُلدت ولم اعرف لماذا ولدت ، وعشت ولم اعرف كيف عشت ، والآن اموت ولا اعرف لماذا اموت » وهو القائل « الانسان أغرب ما في الطبيعة . لانهُ قليل ما يمكنهُ أن يتصور ماهية الجسم وأقل ماهية العقل وأقل ايضاً كيف الاثنان يتحدان . ففي اجتماع الاثنين حيرتهُ وما هو الا اجتماعهما »

الانسان ملاك ، انما ملاك في حيوان . واذا هو افتخر بعلويته

فان اصله الحيواني يعيده الى التواضع . فماديًّا وروحيًّا ان نحن الاَّ مخلوقات حقيرة أحياناً

« كل انسانٍ حيٍّ هو سرّ منظور يتراوح بين ابديتين وثلاث لانهايات[1] » ومع ان الامر كذلك أليست واجباتنا واضحة تمام الوضوح . أوَلسنا نفهم ما يوحيهِ الينا الضمير ؟

وان سلمنا ان الانسان ضعيف مسكين وغبي بوجه من الوجوه أفننكر انهُ وزن الارض على ضخامتها وقاس الجبال على علوها وسبر غور البحار على عمقها وقرّر مسافات السيارات والشمس واقرب النجوم على بعدها الهائل ؟ بل انهُ وزن الاجرام السماوية وقاسها وعرف حركاتها ومقدار سرعتها ولم يقف عند ذلك الحد بل عرف نوع تركيبها الكيميّ

فالعقل لا شك انهُ يترفع عن شهوات الارض ودناستها ولكنهُ كالمستحيل على النفس كما على الجسم أن تتحرَّر من ربقة الوجود المادي وترتفع بكليتها الى السماء . ومع ذلك فانهُ يتسنى لنا أن نعمل كثيراً . واذا كنا نبذل جهدنا حُق لنا أن نأمل أن نكون يوماً ما كما قال ملتن « متقدين بحب العلم وحب الفضيلة مفعمين آمالاً أن نعيش رجالاً اصحاب اقدام وذوي وطنية حقة أعزاء في عين الله ومعروفين في كل العصور »

---

(١) كاريل

الفصل الرابع

الامل

ماذا يجب ان تكون آمالنا — البخل والطمع — القسم الاثيني — قول شيشرون في المجد — اضرار الثروة والقوة — المخاطر في سبيل الحياة — شاكسبير والطمع — الثبات — راي الاشتراكيين — راي القدماء في التقدم — العصر الذهبي — العلم والتقدم — مستقبل العلم .

أملوا ! ! هذه هي الكلمة التي قال سر جايمس ستيفن انها تحوي جميع النصائح التي قدمها لجمهور شبان وقف فيهم خطيباً

وانها لنصيحة سديدة . انما ما الذي يجب أن نؤمله . أان نملك كل شيء ونحاول العلو فوق كل مَن دوننا . لا لعمري ! و بئست تلك من غاية . انما لتكن غاية كلٍّ منا أن يرتفع بنفسهِ فوق ما هي عليهِ وأن يكون ارتفاعهُ مع الغير لا عليهم ما امكن . وان الذين يحتقرون رأي سواهم قلما يستحقونهُ . وحسن بنا ان نرمي الى العالي (من الغايات) لئلا نهبط الى الحضيض . وهو من المستحيل أن يسلم المرءُ من ركوب الشطط ولكنهُ يمكنهُ كل الامكان ان يجرب الابتعاد عن سبيل الغلط . و بعض الناس ينتظرون ريثما تأتي الفرص اليهم عوضاً عن أن يسعوا هم اليها فيتهزوها

قال القديس اوغسطينوس ان البخل والطمع يعتبرهما الناس من الاعمال البارَّة ولو أدَّيا الى اقتراف الذنوب وارتكاب المعاصي حين انهما خطيتان كبيرتان . ومقالته هذه صحيحة لا مراء فيها بشرط ألا يلتبس الطمع بالطموح والرغبة في الاعتلاء الى الافضل والاصلح والاّ يُقصد بالبخل الاقتصاد بل التقتير الذي يتناول ضنّ الوالد على اولاده بقوتهم الضروري

فماذا يجب أن تكون آمالنا ؟ اولاً يجب ان نفتكر بالآخرين كما نفتكر بانفسنا. ومن ثم وقد اتيح لنا أن نكون أبناء مملكة عظيمة فيجب علينا أن نطبع على صفحات صدورنا القَسَم الاثيني القديم القائل « انا لا ادنس ترسي المقدس ولن اغادر اخي الجندي في صف القتال واتركه وحده بل اخوض المعارك ذوداً عن هياكلنا ومنازلنا سواء معاناً ام غير مُعان . وقسماً ان اترك بلادي لا اصغر بل اشرف وأعظم مما أُلقيت بين يديَّ »

أجل يجوز لنا بل ينبغي علينا ان نتطلب اعتبار مواطنينا ومعاصرينا لشخصياتنا اما الجشع في طلب المجد فتهلكة وتغرير بالنفس . واليك ما قاله شيشرون بهذا المعنى « كما سبقت فقلت — كذلك يجب الحذر من الافراط في حب المجد لانهُ قد يحرمنا حريتنا والحرية اعز شيءٍ يجدر براقي الشعور ان يشتريهِ بكل غالٍ ونفيسٍ لديه . وليس للقوة صفة ذاتية تحب من اجلها بل ما اولاها بالرفض والترك احياناً. وكذلك ينبغي ان نكون احراراً خالصين من شوائب العقل ومزعجاته

واحراراً من سلطة الشهوات خالين من الخوف بل ومن الارتخاء والكلال والاندفاع والحدّة لكيما يتيسر لنا ان نفوز بذينك الهدوء والسلام اللذين يمنحاننا الثبات وعزة النفس »

كثيرون يغبطون الاغنياء الاقوياء لزعمهم ان هؤلاء مُسعدون يشترون ما يشتهون ويفعلون ما يشاؤون . على ان المُسعد ليس بالضرورة سعيداً . ففي الصيد مثلاً ليست اللذة في قتل الطريدة بل بمطاردتها . ولذة الارتقاء وهو مستمرّ اعظم من لذته بعد تمامه . واذا لم يكن عندنا شيء نتمناه او شيء نأمل الحصول عليه فخسارتنا هي خسارة نصف رونق الحياة والرغبة فيها

والذين يولدون على « الاطلس الوثير » لا يُنكر ما لهم مما ليس لغيرهم من اجل ذلك . فقليل ما يتمنونه ولكن كثير ما يخافونه ويخشونه . انهم يبددون وقتهم — والوقت هو الحياة والحياة هي اثمن ما يُملك — بين الرسميات والعوائد المملّة التي تقضي عليهم بلبس البدل اللائقة ونزعها . فهم ابداً بين مقابلات ومخابرات ومراجعات وحضور جلسات خصوصية او محافل عمومية او ولائم عمومية او نصف عمومية . . . الى غير ذلك من ارساليات وانتدابات الخ . فضلاً عن ذلك انهم مضطرون لان يكونوا ابداً على حذر من المتزلفين والمتملقين ومن تجارب هي اكثر مما يعرض لمن كان اقل نفوذاً وظهوراً منهم . وليس هذا كل امرهم . فان مهامّهم والمسؤولية الملقاة على عواتقهم تقوّس ظهورهم وتحنيها . وما اصدق قول شاكسبير بهذا

المعنى : « لا راحة لرأسٍ تحت تاج » . فعندهم اشياء كثيرة ولكن الراحة والسلام قلما يكونان من جملتها . « الامراء كالاجرام السماوية التي تسبّب السعد او النحس والتى لها من اجل ذلك اعتبار كبير الا انها لا سكون لها ولا راحة (٢) » . انهم عرضة للوقوع في تجارب قد ينجو منهـا الوضيع والصعلوك . بل قل كم من ملوك خلعوا او ثلّت عروشهم وكم منهم مَن ذاقوا مرارة النفي وكم منهم مَن سقطوا فرائس باردة اما في يد العدل او تحت أقدام الخائن والجاني

كتب البرنس لودوك اوف ورتمبرج الى روسّو الفيلسوف التهذيبيّ الشهير يستشيره في شأن تهذيب اولاده فصدر جوابهُ اليهِ بهذه العبارة — « لو كنت سيء البخت وولدتُ اميراً . . . . »

الظالم الذي يسجن مظلوماً هو من ظلمه كسجينه في شقائه بل ان حياتهُ لفي خطر اشد

وقد قال بايكن « مَن اعتاد ان يتقدم دائماً ووصل الى موقف لا يمكنهُ ان يتخطاه انقلب من تلقاءِ نفسه وبات على غير ما كان عليه بالامس »

والعيشة في السجن بضمير نقي لا يَخِسُ ولا يبكّت و بعقل سائدٍ عليه السلام افضل من العيشة على اسمى العروش بالهم والقلق والاضطراب ولا سيما اذا كان العرش مغتصباً بالقوة او مرتقىً بالخديعة . والقوة ليست كما يقولون دواء لكل داء . وسيفشل الآملون

---

(١) بايكون

العاملون بقول سعدي : « بقوة الذراع نجتذب الرغائب من تلابيبها » وزد على ذلك انه اذا كانت العلياء مصدر وجد وجزع فالسقوط ينبوع آلام لا ينشف . وكثيرون بعبارة ملتن :

همُ خوفاً من ان يصيروا أقلا ان يعيشوا ما همَّهم ذاك اصلا

ومَن كان على جناح بناءٍ شامخ كان ابداً عرضة لخطر السقوط الى اسفل . وجميعنا نعلم كيف تدور بنا الرأس اذا وقفنا على جرف هوة وكيف نأخذ بتجميع قوانا حذراً من الالقاء بانفسنا الى أعماقها . وان مركزاً عالياً في هذه الدنيا مرتفعاً على سائر الناس لهُ نفس التأثير على عقل صاحبه . وكثيرون ممن لم يكتب لهم العلاء في دنياهم يمكنهم ان يسيروا في طريقهم على وطوءها بكل امان واكرام — وهو الأولى

وقد يصح ما يقولون من ان :

ساعة المجد تساوي حقبةً من دون مجدِ

ومع ذلك فقد نشتري الذهب باكثر مما يساوي . « ويا له من غبن ان نفقد السلطة على أنفسنا والحكم على وقتنا ابتغاء نيل السلطة على الآخرين . وغريبة هي رغبتنا في طلب القوة ولو بخسارة الحرية . وغريب ان نرضى بالحكم على الآخرين ولا حكم لنا على أنفسنا [1] » ومدام دي ستايل وصفت الشهرة بقولها « انها فجر السعادة المبهج » الا انها ككثير سواها لم تتبع قولها وتعمل بهِ

---

(١) بايكون

أتحفنا مركيز اف مونتروز بشعر لطيف عنوانهُ «حبيبتي العزيزة الوحيدة» يقول فيه

إذا كان غيري يخاف القدَر وقلّت فعالٌ عليها قدر
فمجدكِ من ذا اليراع الاغر وصيتك من ذا الحسام الاغر

وفي رواية اخرى «فصيتك من ذا اليراع الاغر» واظن ان الرواية الاولى هي الاصل وهي الافضل في رأيي. وفي بعض الاحوال تصبح نصيحة ولسي قابلة للارتياب اذ يقول مخاطباً كرمول:

ألا دع بربك هذا الطمع فابليس فيه قديماً وقع (١)

وفي نفس المخاطبة أيضاً:

فوق ما في الارض من جاهٍ كبير
راحةٌ أمنٌ سلامٌ في الضمير

وزد على ذلك ان بسطة الثروة وعرض الجاه وصول القوة قد تحول دون تمتع المرء ببعض بركات الحياة الحقيقية. وولسي مع انهُ ينهى عن الطمع وحب المجد فهاك ما يقوله في هذه الابيات

ليالي العز طولي ودّعينا أو امضي في تنعمنا دعينا
أيوم نزرع الآمال فيه فتنبت بهجةً للناظرينا
ويوم تزهر الاغصان منها فنصبح بالمكارم مفعمينا
ويوم زمهرير القرّ منهُ يميت اصولها ان تدن حينا
فبينا نحن نأمل جني غرسٍ نموت كأننا وهماً حينا؟

---

(١) رواية شاكسبير هنري الثامن

فمن كانت آمالهم في القوة فلا أمل لهم في السلام . والذين يطلبون حياة سلام وطمأنينة فليدعوا حب العظمة جانباً . « انهُ لا يوجد طريق جميلة وسهلة المسلك بين هذه الارض وتلك النجوم » « لا عمل في هذه الدنيا اكبر مشقةً من العمل على تكبير الاسم (الشهرة) وقد تنتهي الحياة قبل تسطير الحرف الاول[١] » وربما آلت شدة الطمع في النجاح الى الفشل واخطاء المرمى . او كما قال شاكسبير :

رام ان يرقى الى رأس الجبل فاعتلى الرأس وللوادي انسفل

على انهُ « لا يلزمك ان تلح في طلب القوة او ان تجاهد في سبيلها اذ إن تكن حكيماً وصالحاً فهي أتبع لك من ظلك[٢] » ولئن نقف على صخرة الفضيلة افضل لنا من الوقوف على جليد السعد السريع الانكسار . والنجاح في اي خطة كانت لا يُنال بغير الكد والاجتهاد ولا وصول اليه لمن يهبُّ تارة وينام اخرى ويثب وثبة ثم يجلس منهوكاً . والثبات وتوطيد العزم هما من ألزم شروطه كما لا يخفى . فكمتسلق جبال الالب انهُ ينقل خطاه متثبتاً مستمكناً فلا يسرع ولا يتأخر بل ابداً الى الامام . ولا شك ان الثبات من اهم أسباب النجاح . ولله در شاكسبير القائل

داوم فعالك يا مولاي مجتهداً
تلبس من الفخر اثواباً لها جُددا

---

(١) لابرويار (٢) الملك الفرد

وطارف المجد فيهِ الخير فاعنَ له
لا خير في المجد ان ما فات او تلدا
وتالد المجد سيف مات صاحبهُ اسْ
تبقوا عليه فأمسى يعتليهِ صدا

اذا عجزت عن تخليف ثروة او منصب عالٍ لاولادك فاترك لهم بالاقل ذكراً جميلاً. ومَن فاتتهُ فعال الاريحية والبسالة في الحروب فان في استطاعتهِ ومن الواجب عليهِ ان يمارس العدل والشرف والكرم والوداعة والاعتدال في كل اطوار حياتهِ . واعلم ان احسن ميراث يتركه الوالد لاولاده انما هو فضائله ومآثره [1] »

وكل انسان مهما قلّت قسمتهُ ينفع العالم بافعاله اذا بذل جهده وافرغ ما في وسعهِ بينما كثير من الاغنياء والاقوياء يضعون ما لديهم في كفة الشر من الميزان ويرجحونها على كفة الخير

يؤيد الاشتراكيّون مبدأهم وخطتهم بدليل ان الحالة الحاضرة غير مرضية . وانهُ ليسهل على جميعنا ان نشعر بما يشعرون بدون أن نصير اشتراكيين مثلهم . والاشتراكية ضربة قاضية على الحرية والاستقلال الذاتي . ومن وجهة اقتصادية لا أمل لها بالقيام مطلقاً لانها تحمل على التقاعد عن العمل وتحصيل القوت وغيره من الضروريات بل الانكى فيها انها تنطوي على الخضوع الاختياري التام للحكومة بل لذات موظفيها . وما الذي أدّى بحكومة الرومان الى الظلم فالخراب ؟

---

(١) شيشرون

بعض رؤسائها كهادريان وماركوس اوريليوس وانتونيوس بيوس وامثالهم كانوا من خيرة الرجال ولقد ضُربت بهم الامثال في الحكمة والفضيلة . اما حكومة كالتي يقصدون فلا تكون الا استعباداً منظّماً واذا كانت الحكومة تتولى امر قوتنا وسكننا وكسوتنا بات من الواجب اذ ذاك ان ناكل ما يُقدَّم لنا ونلبس ما يُعطى الينا وان نعمل كل ما نؤمر بعمله . فلا يبقى لنا مجال للاختيار في شؤوننا ولا في شؤون اولادنا . فلا يحق لاحدنا بعد ذلك ان يختار مهنة لنفسهِ او لاحد ابنائهِ بل يصير محتّماً علينا ان نرضى بما يختاره الكاتب في المجلس المحلي او احد مستخدميهِ . ولعمر الحق انْ هذا الاّ محض عبودية وغلٌّ للايدي عن العمل وعقبة في سبيل التقدم وعقال يُثقل بهِ معصم الحرية . فلا أمل لنا بتحسين الحال عن طريق الاشتراكية وانني آمل اننا سنسلم من هذه الاخطار وعلى يقين من ان العالم سيتقدم

يظهر ان القدماء كانوا يجهلون ماهية التقدم فكانوا يتصورون العصور الذهبية كانها ماضٍ مضى . اما نحن فنعتقد ونرجو ان تكون الاواتي عصورنا الذهبية

ولئن كنا نأسف أن نرى « حقيقة مستكرهة تقتل نظرية جميلة » فبحق قد نبكيها ونندبها الا انهُ يجب ان نقبرها ونواريها تراب النسيان . والافكار تتقادم مثل الدراهم والمسكوكات . وقد يُنتج الدماغ فكراً يكون خطوةً الى الامام في سبيل التقدم ولكنهُ كقطعة سكت من خالص الذهب لا تلبث أن تبرى بالاستعمال

وتقلّ قيمتها» . « والنقطة التي كانت غير منظورة لعين الفكر بالامس هي اليوم غايته وغداً نقطة ارتحاله[١] »

عجيباً كان تقدم العلم في القرن الاخير . فانهُ مكّننا ليس من زنة النجوم وقياسها فقط بل من تحليلها ومعرفة العناصر المركبة منها . و بفضله صرنا ننحدر الى جوف الارض واعماق البحار ونشاهد بروز الجبال وتكوّن الاودية ونفهم تعرّجات الانهار . و بوسائله بتنا نمشي فوق الانهار العظيمة ونقطع البحار الشاسعة ونخوض عبابها ولا نخشى ضلالاً . و بواسطتهِ قرّبنا البعيد وتغلبنا على المسافات . بل انهُ منحنا نوراً وناراً وخفّف عذاباتنا وآلامنا بعلاجاتهِ واطال الحيـاة وضاعف لذة الوجود . وان كنا نعرف شيئاً عن العصور الخالية او كان لنا فكرٌ ما عن رقي العصور الآتية فبفضله كل ذلك

لقّب « رنان » القرن الماضي بالمسلّي . اما انا فلو وصفتهُ لقلت انهُ كان قرناً فائقاً با كتشافاته واختراعاته. فالقطار والباخرة والاسلاك البرقية والتصوير الشمسي والغاز والبترول والنور الكهربائي والتحليل الطيفي واشعة رونتجن واكتشاف عدة عناصر بسيطة اهمهـا الراديوم واختراع النـاقل والحاكي وتحويل الهواء والهيدروجين الى ماء واستنباطات دروين ووضع علم طبقات الارض على اساس راسخ واكتشاف العلاجات المخدرة والمانعـة للعدوى — جميع هذه أشبه بمجرّة في سماء العلم ليس لقرن آخر مجرّة تضارعها . وما قيل في العلوم

---

(١) ماكولي

المادّية يقال في النظرية والادبية ايضاً . فحرية التجارة وقدر التهذيب قدرهُ وتطهير الديانات من شوائب الخزعبلات والقضاء على السحر والعرافة اللذين طال تعلقهما على العقل الاوربي تعلق غطاء النعش فوق الميت ، وقطع الزيادات التي لحقت بالفنون والاداب — كل هذا من بركات القرن التاسع عشر ايضاً

ولما كان الامر كذلك فلا بدع ان تسألنا عما اذا كان القرن الجديد — اي الحاضر — يجود بتحقيق مثل تلك الرغائب البعيدة . والمرحوم لورد دربي — وهو بلا ريب احد ساستنا الكبار — ذهب الى ان ذلك أبعد من ان يؤمل . وانا مع اني اتردد في مخالفته عادة فانني لا اتمالك من الاعتقاد بانه يحق لنا ان ننظر الى المستقبل بعين ملؤها الامل والرجاء . ولو كان العالم معروفاً لدينا اكثر مما هو الان او لو كان يوجد بعض النسبة بين ما نعرف وما نجهل لكانت الحالة غير ما نقول . اما الواقع فهو ان معرفتنا ليست الا كسراً جزئيًّا مما لا نزال نجهله . فاي عنصر من العناصر نعرف جميع خاصياته او استعمالاته ؟ ام اي حيوان او نبات نعلم تاريخ حياته من الاول الى الآخر ؟ ألا اننا محاطون بقوًى وفواعل لا نكاد نعرف عنها شيئاً بعد . والغشاوة التى أثقلت ابصارنا لم تكد تزاح . وما نحن الا مبتدئين لا نرى الا سرّ القليل مما نرى . ونحن في عالم ملؤه الاسرار والغوامض . الا انهُ بالنظر لثلاثة امور يجوز لي ان ازيد آمالاً في رقي الانسانية وتقدمها . الاول استمرار التحسين في الالات والمعدّات

واختراع آلات جديدة تساعدنا على البحث والاكتشاف . الثاني تزايد عدد النازلين في هذا المضمار وان يكن يحق لنا حتى اليوم ان نقول « هوذا الحصاد كثير اما الفعلة فقليلون » . والثالث انهُ كما ان شمس الاكتشاف تقشع غيوم الجهل وتبددها وكما ان نور العلم يخرق ظلمة الاسرار والمبهمات التي حولنا فهكذا احتمال التقدم في المستقبل يقرب من الامكان شيئاً فشيئاً . فكل اكتشاف جديد يفتح باباً جديداً ويمهد سبيلاً جديداً لاكتشاف اهم ولفوز اسمى

ان اولادنا اليوم يتلقون العلوم على معلمين قديرين ولهم امتيازات وفرص عظيمة لم تكن لأسلافنا . واني لآمل بل اعتقد ان تقدم العلم المأمول لن يُعدم يداً بيضاء حتى من الاقرب اليَّ والأعز لديَّ فيأتون ما ينيلهم شرف العمل بالعلم ويزيد الانسانية معرفة . « والعلم قد اطال الحياة وخفَّف الآلام وافنى الاوبئة . وزاد الارض خصباً والبحري هداية . وسلَّح الجندي بعدة جديدة . وأقام فوق الانهر الكبيرة جسوراً فخيمة باشكال لم يحلم بها اجدادنا . وذلّل الصاعقة المنقضة من اعلى عليين وانزلها الى تحت التراب مخزيةً مخذولة . وأنار الليل بسناء النهار . بل اطال بصر الانسان فصار يرى بعيد الاشباح كانها اقرب اليه من الوريد وزاد حركة المتحرك وضاعف سرعة السريع . وحكم على البعد والمسافة بالاعدام . وسهل المخابرات والمراسلات بل مكَّن الانسان من النزول الى قرار البحار ومن التحليق في طبقات الجوّ ومن الدخول في ظلمات الارض وقطع

السهول على مركبات لا تجرها الخيول وقطع البحار بسرعة عشر عُقَد في الساعة ضد الريح[١] »

قال ملتن « شبه الكتاب الحقيقة بنبعٍ جارٍ . فاذا كانت مياهه ترجع الى الوراء لا تلبث ان تصير مستنقعاً قذراً »

للعلم اهمية عظمى في حياتنا . واخلق به ان يكون أخلب لالبابنا من حكايات الجن والروايات جميعاً . ومن يهمل تتبّع سير الاكتشافات الباهر الذي يتحفنا كل يوم بطرفة ويحدث فينا تأثيراً ادبياً بما يظهره للعيان من جمال الطبيعة وعجائبها التي طالما عشنا بينها ولم نشعر بوجودها قلت مَن يغفل عن مراقبة تقدم العلم كان كالرافض بارادته واختياره احدى بركات الحياة العظمى وخير عطية حبتنا بها العناية

ولكن ليس ذلك كل الامر . فياللاسف ان رجال العلم لحد الآن لم يقابلوا بحقهم من التشجيع . « فالرجل الذي اخترع المِقرب وقرَّب السموات من الابصار كان طرحه في السرداب جزاءه والرجل الذي اخترع المجهر وكان اول مَن نظر الارض بدقةٍ مات جوعاً وطُرد من بيته[٢] ». «واذا عد اختراع المركب ذا اهمية عظمى لانه ينقل خيرات بلاد الى اخرى ويسهل المواصلات واشتراك الامم المتباعدة بعضها مع بعض ، فكم يجب بالاحرى ان تكبر حروف الكتابة التي كالمراكب تجتاز بحار الازمان الشاسعة وتمكن عصراً من مشاركة آخر في انواره وحكمته ومخترعاته[٣] »

---

(١) مكولي (٢) رسكن (٣) بايكن

ما هو التقدم ؟ ليست العبرة في التقدم والرقي بزيادة حاصلات البلاد ومدخولاتها او بتجارتها وصناعتها وخطوطها الحديدية واسلاكها البرقية ولا بانتصاراتها الحربية . لا لعمري ! لا يتوقف توفيق البلاد ونجاحها الحقيقيان على احد هذه الامور . بل على ازدياد ابناء البلاد صحة وسعادة وجدارة واهلية . وانهُ لمن ابرك الامتيازات التي لنا واعظم الامال التي فينا ان يعمل الواحد منا في حياته ما يقرّبنا من هذه الغاية الشريفة

الفصل الخامس

القناعة

نور الشمس والظل — التذمرات الغير معقولة — سليمان الحكيم — ادوار الحياة : الطفولية ، الصبا ، الرجولية ، الشيخوخة — الموت — القنوط (السوداء) — التفكير في المصائب — العيش في فردوس — الحرية — الاضطراب والبلبال — الشجاعة

(اذا لم يكن ما تريد فأرد ما يكون)

والشمس مهما اشتد لمعانها تظل الارض ذات وجهين من ليل ونهار . بل قل لان الشمس تسطع بنورها يتحتم وجود الظل والخيال. وكقول بندار :

هكذا حتى الأبد بحرنا جزرٌ ومدّ
موجة الافراح تعلو ويلي جزر الكمد

الا انهُ انكار للجميل أن نستطرد الى مثل قوله

واذا الأرباب جادت بجميلٍ لأحد
تبتليهِ بنصيبين من الرزء الأشد

قال بلوتارك : « يستوقفني قول ديوجونيس التالي لدى مشاهدتهِ رجلاً غريباً يبالغ في استعداده لحضور وليمة : — أحرِ بالانسان الصالح

ان يحسب كل يوم من ايامه يوم مآدب وولائم — والحق يقال شائقة هي ولائمنا اليومية لو درينا وعقلنا . فعالمنا هيكل الاهي مقدس يدخله المرء حين يولد لا ليعاين أشباحاً غير متحركة من صنع يد الانسان ، بل ليشاهد ما صنعتهُ يد الحكمة الالاهية من ممثلاتها التي لا يدركها الا العقل ، وقد بعثت فيها علة الحياة والحركة ، كالشمس والقمر والنجوم والانهار المتدفقة بالمياه العذبة والارض التي تجود بمادتها غذاءً للحيوان والنبات . ولما كانت الحياة بثًّا و بعثاً في جميع هذه الاشياء وجب ان تكون ملآنة من الراحة والسرور . اما الناس فكانهم يحتقرون المآدب التي يأدبها لهم الخالق فيقضون اغلب ايامهم بالبكاء والنحيب و بانقباض النفس والاضطراب والاهتمام . وكيف ذلك ؟ . . انهم لا يصغون لاقوال الناصحين العارفين . على انهم لو فعلوا لكانوا يعيشون في حاضرهم أنعم بالاً و يذكرون ماضيهم بالخير و يعملون للغد الاتي بامل وسرور و بدون خوف ولا ريبة »

واذا كنا لا نرى الحياة بركة فما بالنا نحسب الموت لعنةً . وفي الحقيقة ما اقل الذين يطلبون الموت !

ليس أُنسيٌّ بهِ بعض النفَس يتمنى ساعةً لو يُختلَسْ (١)

ورغماً عن ذلك كم نقرأ من تأفّفات وتذمّرات في غير محلها فيُخيّل لنا كانما قصد بالعالم منذ خُلق ان يكون منبعاً للاضطراب والعذاب وظلمةً حالكةً باحزانه واكداره ، وكأن « الحياة أذا طالت

---

(١) تنسون .

فهي المصيبة تكبر[١] » . واليك هذه الاغنية القديمة :

حياتك ان تكن فيها مُعيرا غنيًّا مسرفاً تهب الكثيرا
تجدها حلوةً فاقت جمالاً فلا تلقى بها الاّ السرورا
ولكن ان تكن فيها فقيراً تُعار وتطلب المهضوم جورا
تقل قولي لها تبًّا وتبًّا لدنيا ما عرفت لها نظيرا

قال پوركاس : « خير للانسان ان لا يولد ، وان وُلد فأن يموت حالاً » وهو القائل ايضاً «جسمنا عالم صغير بل جهنم شقاء »

وحتى الملك سليمان الذي أُمطر ثاً بيب النعم والآلاء وأُغدق بالبركات تذمَّر من الحياة قائلاً : « فكرهت الحياة لانهُ رديءٌ عندي العمل الذي عمل تحت الشمس لان الكل باطل وقبض الريح . فكرهت كل تعبي الذي تعبت فيه تحت الشمس حيث اتركه للانسان الذي يكون بعدي . فتحولت لكي اجعل قلبي ييأس من كل التعب الذي تعبت فيه تحت الشمس . لانه ماذا للانسان من كل تعبه ومن اجتهاد قلبه الذي تعب فيه تحت الشمس . لان كل ايامه احزان وعمله غم . ايضاً بالليل لا يستريح قلبه »

يؤكد لنا لورد بيكنسفيلد « ان الشباب غرور ، والرجولية جهاد ، والشيخوخة حسرات » و « ان فشل الرجولية ملحق لغرور الشباب » . فيظهر ان الجميع يشعرون بان دور الطفولية هو عهد طهارة القلب وعهد السعادة وينظرون الى الحياة كأنها تظلم وتفقد رونقها

---

(٣) جنسون

مع مرور ايامها . وكاستيليون يقول « وفي الكبر تسقط ازهار المسرات من قلوبنا سقوط الاوراق في فصل الخريف » والشاعر هرِك يجاريهِ بقوله ايضاً

ألا ان احسن عهدٍ نعيش لعهـدُ حداثتنـا الاولُ
واذ نحن نخرج من دوره ففي شرّ ادوارنا ندخـلُ

وفي نظر شاكسبير :

ما للشبيبة والكبَرْ ابداً لقـاءٌ او مقرْ
فهي المسرّة والهنـا وهوالتحسّر والكدر
وهي الضحى بغزالةٍ تبدو يغازلها القمر
وهو المسا بغيومه والليل فيه اشتدَّ قرّ
وهي البسالة في الفتى وهو الجبانة والحذر
هو أعرج يمشي وهي ظبي بوادٍ قد طفر
هو داجن فقد الحيا وهي الغزال اذا نفر

وشاكسبير غالباً يغض من قدر الكبر . واني لأتردد في ايراد ما أنطق به مكبث[٢] القائل :

كبرتُ وغصني اصفرَّ اخضر لونه
وأوراقـهُ عما قريبٍ تودّعُ
فلا مجدَ لا اكرامَ لا شمل رفقةٍ
ولا خدَم فيهم أُطاع وأُسمع

---

(١) بطل احدى روايات شاكسبير

ولا عزَّ الا عزٌّ فيَّ وانها
لانفاس مصدور به تتقطع
اهمُّ الى اخمادها فتعيقني
حشاشة قلب من مماتي تجزع

أما مكبث فانهُ هو الذي جرَّ شقاءَه على نفسهِ عقاباً وجزاءً وربما كان شاكسبير مخالفاً له في رأيهِ في الهرَم والكبر

وقد لا نستغرب أن نسمع بيرون [1] يندب ايامه وهو في السادسة والثلاثين من سنيه بقوله :

ألا ان أوراقي تغير لونها
وقد اصبحت صفراء والغصن قد ذوى
ودوح الهوى أزهاره وثماره
لقد سقطت والسوس في عوده ثوى
تمضَّت ليالي الانس لا عودة لها
وحلّت ليالي البؤس ليس لها نوى

وهو نفسه القائل :

تحرث المرءَ السنينُ وبهمٍّ يُزرعُ
وكذا الموت اللعينُ حاصدٌ لا يشبعُ

ثم هاك أبيات كِراي من قصيدته « ذكرى كلية اتون »

آهٍ لها تلك التلا لُ ويا لها تيك الظلال

---

(١) شاعر انكليزي

آهٍ لها تلك الحقو ل وحبها الماضي خيال
حيث الفتوّة عشتها بمسرّةٍ وصفاءِ بال

ولكن يا للاسف ! كم من مسافر في بحر الزمان يسلّم دفته للمسرات ويترك شبابهُ في مقدمة السفينة فتتلاعب به أهواؤه ولا تلاعب الانواء بالشراع

أما جوبرت فكان يرى ان الطفولية والشيخوخة هما أحسن ادوار الحياة. فالاول دور البراءة والطهارة ، والثاني دور العقل والحكمة . وسعادة الاطفال ابداً منوطة بالاخرين ولا سيما بالوالدين . أما سعادة الكبر فمتوقفة علينا لا غير

والصبوّة يجب ان تكون ملأى بالسعادة وخالية من الهموم بل كالربيع بزهائهِ ومصداقاً لقوله :

يا ربيعي بل يا صبوّة عامي يا صبائي بل يا ربيع حياتي

وسعيد هو الولد اذا كان في بيت سائد عليه السلام ، سالماً آمناً تحت جناح ام حنون وفي ظل والد رؤوف ، خلواً من الهموم ملآناً صحةً وحياةً ونشيطاً في ربيع عمره ، كل يوم بنشاط جديد وافكار جديدة . وقليلة هي المسرات التي تفوق المسرة بفكر جديد. بل ان الولد يكون اوفر سعادةً بآماله السامية وغاياته الشريفة وبامتلائه من حب هذا العالم الجميل الذي يبدأ يتجلى له جماله فيشعر اذ ذاك بقيمة عطية الحياة وعجائب الوجود واسراره ويأمل أن يعدَّ نفسهُ ليجيءَ شيئاً يُذكر في حياته . واسعد من هذا الولد ذاك الشاب

الممتلئ قوة، الناظر الى المصاعب كانها فرصٌ يغتنمها، والحاسب ما يحل به من الآلام اخطاراتٍ وانذاراتٍ يستفيد منها . وهو اما متنعم بزواج سعيد او آمل البلوغ الى نعيمه — وهو نعيم يتمناه الجميع لمن يستحقه ويأهل له . أما اسعد اوقات الحياة فقد يكون الشيخوخة . وهو وقت اذا احسن استعماله كان إعطاؤه اكثر من أخذه . ففيهِ يسعد المرءُ باولاد محبين له يراهم ينمون ويكبرون حوله . وبعد ان انجز فروضه وفرغ من اشغاله لا قلق ولا اضطراب يضيق صدره . بل حتى بعد الكبرة والشيب و « اصفرار ورقة الحياة » قد لا نعدم اكرام الغير ولا نفقد عاطفة الحب او نخسر ثقة مَن كان يحبنا اذا كنا اهلا لجميع ذلك . والشيخ في شيخوخته ما اعظم سعادته بذكره انهُ خدم ابناء وطنه بشيءٍ وعمل ما يؤول الى تحسين حال اخوانه بني البشر كانارة ظلمات عقولهم وبعث اشعة السعادة الى قلوبهم

يتعجب الكثيرون من ايعاز الرسول بولس الى المسيحيين بأن يعزُّوا بعضهم بعضاً بفكرة الموت وما ذلك الا لانهم تطير نفوسهم شعاعاً من خوفه . مع اننا لا نفتأ نصلي من اجله كل يوم اذ نقول « ليأتِ ملكوتك » فاقتراب الموت اذاً ليس دليلاً على انتفاء السعادة من عهد الشيخوخة . وان لهذا العهد بركاته الخصوصية يتمتع بها الشيخ اللهمَّ ان لم يكن سبق فحوَّلها الى لعنات بمجرد سقطاته وغلطاته

اجل لا يسعنا ان نمنع الوقت من تسطير غضون الجبين الا انه في طاقتنا أن نمنع الهموم من تدوين سطورها في صفحة الفكر . وما

ضر المرءَ اذا وضحت تجعدات وجهه وصفحة عقله مستوية لا تعاريج فيها ؟

« يخيل لكل امرءٍ انهُ يحق له ان يكتئب اكتئاب هملت[١] ولو لم يظهر له خيال يوعز اليه بالإثآر لأبيهِ[٢] » . ألا ان ضحكة واحدة خير من مائة أنة وزفرة . وفي رواية (كما تريد) لشا كسبير، يدَّعي جاك الكئيب انهُ اكثر من الاسفار واوسع من الاختبار وان اختباره سبَّب اكداره وجعله كئيباً حزيناً . فيجيبه روزلند « واختبارك صيّرك حزيناً ! ! لعمرك اني لافضّل غبياً يسعدني على اختبارٍ يحزنني . وها انتَ من اجل الاحزان والاكدار قد ركبت الاسفار وتجشمت الاخطار ! »

انّى لنا ان نود لو كانت الحياة كلها « سمناً وسكراً » او « لبناً وعسلاً »

فبأعتاب زفس قارورتان ذي لخير وذي لشرّ الهوان
فيهما كل قسمة الانسان

فالذي منهما مزيجاً أنالا زفس يلقى خيراً ويلقى وبالا
والذي لا ينال الا من الشرّ فتنتابهُ الخطوب انتيابا[٣]

مصائبنا أسرع زوالاً من افراحنا . وكما يقول جوبرت « تفوت المرءَ أتراحه كما تفوته افراحه » . و « يا لجهل مَن يمزج الانات

---

(١) بطل رواية هملت وهو الذي قتل عمه اباه (٢) غونة . شاعر الالمان (٣) هومبرس . الالياذة — تعريب العلامة سليمان البستاني

والتأوّهات بنغمات الحيـاة المطربة ! » فكيف ترانا نقبل نصيبنا من الدنيا ؟ أبفرح وشكر ام بذلّ وكمد ؟ . و « باطلة هي الحياة — انما للباطل فقط [١] »

المسرات والآلام متداخلة متواصلة في نسيج الحياة . ولكلٍّ همومه واحزانهُ . الا ان أغلب الكتاب انكروا كثيراً من البركات التى ينبغي أن تُشكر لواهبها

واذا جئنا نقدر الحياة قدرها ونعرف قيمتها كهدية وُهبت لنا وجب علينا اولاً ان نسقط من مجموع الاحزان والعذابات والهموم ما نحن جررناه على انفسنا بأغلاطنا الشخصية كالسكر وسوء الخلق وغيرهما من النقائص . لان هذين وامثـالهما سببٌ لقسم كبير من انواع الشقاء . ثم ترتّب علينا أن نحسب حساباً للهفوات الممكن الحذر منها الا اننـا نقع في شرورها لقلة حكمة وعلم او لعدم تيقظ . ولزمنا اذ ذاك ايضاً ان ننزّل من نفس المجموع تلك المصائب التي لا تحل بنا مطلقاً وان نخفف أهمية ما يقع منها ونصغّرها بقدر ما كبرناها عن جرمها الحقيقي . وكذلك أن نطرح البلايا التي ليست الا بركات متسترة والمصائب الوهمية — وليست هذه بقليلة . واذا عملنا هذه العملية الحسابية وأحسنّا الاسقاط والطرح والتنزيل وجدنا الباقي قليلاً جدًّا بالنسبة لما يُخال . وحاشا لي أن أقول ان المصائب الوهمية لا تؤلمنا ولا تعذبنا فاننا عرضة لها وكم تنال منا ! ولكن اذا اعتقدنا مرة

---

(١) الشاعر يونك

انها وهمية لا غير نجونا من شر سطوتها واسترحنا من ثقل وطأتها

ظل الانسان اظلم ظل تحت شمس الحيـاة . وقد يتتابع الظل والنور (اي الخير والشر في الحياة) تتابعهما في ايام نيسان . وقد يوجد الاثنان في وقت واحد . و بعض امورنا في هذه الدنيا مستقيمة بينما البعض الآخر متأود ومعوجّ . فالفرح والكدر والسعـد والهم والسلام في البيت والخصام خارجه ، او الخصام في البيت والسـلام خارجه ، والصحة والفقر والغنى والعذاب ، تأتينـا بأدوارها وأحياناً جميعها سوية . أما النتيجة فسعادة او بؤس. ذلك حسبما نريد ونختار فان نُدر ظهورنا للبركات ولا نضع الا المصائب نصب عيوننا أشقينا أنفسنا لا محالة . و بالعكس اذا نظرنا الى الشمس وتركنا ظل المصائب خلف ظهورنا ألفينا البركات تربو على اللعنات وعلمنا ان كثيراً من مصائبنا ليس الا خيراً مستتراً او تجربة وامتحاناً او اخطاراً وانذاراً او معارك نفوز فيها فنلبس اكاليل النصر . « وما من احمق سعيد ولا حكيم غير سعيد (١) »

وقد قيل ان الايرلندي لا يعرف السلام الا محارباً والاسكتلندي لا يشعر انهُ في بيتهِ الا وهو غائب عنهُ والانكليزي لا يكون سعيداً الا اذا كان مدمدماً متذمراً . الا ان هذه الخلة لا يتصف بهِ الانكليزي وحده

كثير من الناس يصعب ارضاؤهم واعجابهم . فقد قال اپكتاتس

---

(١) شيشرون

« لا يعجبني الحلو فانهُ صحراء ولا الاحتشاد فانهُ ضوضاء » . الا انهُ دلّ على حكمة فائقة اذ قال « لا تتطلب صيرورة الاشياء كما ترضى بل ارضَ بكونها كما هي، تعش عيشة هادئة ومطمئنة » . واذا كانت جميع المسرات لا تخلو من خسارة تتلوها، فهكذا اغلب النكود قلما تخلو من خير يأتي جزاء احتمالها . والولولة من المصيبة لا تزيلها . أما احتمالها بعزة نفس وشجاعة ادبية فقد يحوّلها الى بركة . فخذ الحلو واترك المرَّ من كل شيءٍ

من الحكمة ان نسلك في الحياة مسلك الرزانة والحذر والحسبان بدون أن نحسبها مرسحاً للتقادير وطوارق الحدثان . وكثير بل القسم الاكبر من مصائبنا منا وعلينا . أما البركات فهي مُهداة الينا . « وأي شيءٍ لك لم تأخذه، وان كنت قد اخذته فلماذا تفتخر كانك لم تأخذه [1] »

نعم ! ان جدينا آدم وحواء قد طردا من الفردوس . ولكن لا مانع يمنعنا من العودة اليه و بناء بيوتنا على نعيمهِ

وقد قال تراهرن « ان النجوم اليوم لجميلة مثلما كانت في ايام جنة عدن وكذلك الشمس بلمعانها والبحر بصفائهِ . وما ملأ الدنيا شقاءً وخرَّب نظامها وقضى على جمالها وسلامها الا الخطايا والرذائل . فالزور والبهتان والحسد والترف والطمع وحب الفخر — هذه ملأت العالم شوكاً وقتاداً وأوجدت الضغائن والتشكيات والحروب والدمار »

---

(١) كرونثس ٤ — ٧

واني لا كرر واعيد ان النحس قد يكون سعداً متخفياً . فحرمان المرء حريتهُ مثلاً قد يعد مصيبة كبيرة . ولكن كم من الكتب العظيمة كتبت في اعماق السجون ! وقد قالت مدام دي ستال وهي في حبس الباستيل : « نعم ! طالما انا في الحبس لا اعمل بارادتي — ولكن — ولا بارادة غيري . فكاني استعدت نصف ما فقدت »

واكرر واعيد ايضاً ان كثيراً من مصائبنا وهمي لا حقيقة له . واغلبنا تتذكر عدة احوال اشقينا انفسنا فيها توقعاً لنتائج لم تحصل وخوفاً من اخطار لم تقع فيها . . ولنسمع الكولونل كودون اذ يقول : « لقد طعنت في السن وصرت كهلاً وقد اتفق لي مصائب كثيرة واغلبها لم يحدث مطلقاً » . وكثيرون يثلّثون مصائبهم فيتركون الواحدة ثلاثاً بتحديقهم فيها والتفاتهم الى ما وراءها وامامها

من جملة ما نكره ونخاف شبح الموت الهائل . ولكن اذا فقدنا عزيزاً او حبيباً أفلا نجد بعض التعزية في القول مع مسز سجورني : « انهُ الآن آمن لدى قويّ لا خطيئة بقربهِ ولا ألم ولا ممات » ؟ ومدار الكلام الآن ليس على خسارة الاهل والاصدقاء بل على فقد حياتنا وخسارتها . وهو بديهي انهُ اذا كانت الحياة شقاءً فالموت خير ارتياح من ذلك الشقاء . و بعبارة اخرى اذا كان الموت ضربة فالحياة بركة . والحياة ليست بركة دائماً ، الا انها غالباً كذلك . اللهمَّ ان لم نلعنها بافواهنا ونتلفها بايدينا

وغالباً ما نبخس البركة بعض قدرها او ننكر وجودها بالكلية حتى

اذا فقدناها بكيناها — كقوله :

قد تكون الكنوز عندي كثاراً وأنا جاهـل لها الاقـدارا
فاذا بُدّدت عرفت لهـا قد راً ولكن ما قد تقدَّر صارا
ان جهـل الفتى لما في يديهِ تاركـ هذه الديار قفارا [١]
ان الطبيعة لكريمة و . . .
للحكيم العـاقل المعتبرِ اينما حـلَّ فيمنا وسلام
فهو في عين السما ان ينظرِ يلفِ شمساً ونجوماً وتمام [٢]

وكما يقول الرسول بولس : « ليس اني اقول من جهة احتيـاج فاني قد تعلمت ان اكون مكتفياً بما انا فيهِ » وعدم الاشتهاء خير من الشبع . والدنيا مهما أعطت فانها لا تسعد انساناً . فماريا ترازا قرينة الملك لويس الرابع عشر قالت على فراش موتهـا « هذا هو يوم حياتي السعيد »

اذا ما عملت جهدك فصبراً ورجاءً . ولا تكن عجولاً ولا قلقاً . ان ذلك لا يجديك نفعاً . واذكر الآية الواردة في المزامير « ايضاً كـت فتى وقـد شخت ولم أرَ صدّيقاً تُخُلّيَ عنهُ ولا ذريةً له تلتمس خبزاً »

« ومن كان فقيراً وقنوعاً فحسبهُ غنىً [٣] » ويقول بولس الرسول « فان كان لنا قوت وكسوة فلنكتفِ بهما »

وبالحقيقة ما أقل ما نحتاج اليه حق الاحتياج . « والاسكندر

---

(١) كوبر (٢) شاكسبير (٣) شاكسبير

عاش بعظمتهِ وجلاله الى ان رأى اخيراً صعلوكاً في (برميل) لم يستطع ان يسلبهُ شيئاً ولا أن يزيده شيئاً [١] »

وقليلون هم الذين تعوزهم ضروريات الحياة كالخبز والماء واللحم والفاكهة او المبيت ليهتموا لها . ولكن الناس شديدو الاهتمام بكماليات الحياة بل قل – زوائدها – كاقتناء المركبات والخيول وخزن الذهب والحجارة الثمينة فيشقون من اجل البذخ والترف ويكدون ويكدحون ويبتئسون في طلبها مع انهم قد يكونون احسن حالاً بدونها

لا شك ان التوفير حكمة عظيمة . وحسنٌ بنا أن نجمع حسباناً لايام العجز ولاجل من يبقى بعدنا . ولكنهُ أهم واجدر بنا ان نملا الخزائن من سلام الفكر والتذكارات المسرة . والسرور والسلام قلما يفترقان . اعتبر ذلك بمآل هذه القصة

سألوه أين يا هـذا الولدْ ... رفقة تلعب معهم أأحد ؟
قال ياقومُ (سرور) صاحبي ... (وسلام) اخته فخر البلد
فهو يـأتيني وتأتي معـهُ ... ونمضّي الوقت في هزل وجد
و (سلام) بي شديد حبها ... و(سرور) حبه عندي أشد

. . . . . .

كبر الطفل وامسى هرِماً ... واعتلى جبهته لون الكمد
ثم عادوا سألوه عنهمـا ... فاجاب الشيخ لا يشكو تكد
إِي سروري مات اوراح الى ... حيث لا ادري ولما لم يعد

---

(١) سينكا

قلت قومي يا (سلام) هايدي وهبيني يا عروسي منكِ يد
وتزوجنا وهذا ولدٌ وسرورٌ اسمهُ هذا الولد

« لا تدع السويداء تعلق بشغاف قلبك [١] » حاربها بقوة . واذا عالجت اخراجها فبالكف عن التفكر والهجس . ولا خير في محاولة الهرب من المصاعب فانها تتأثرنا وتدركنا . فلنقف لها وقفة الباسل الجسور نُلفِها اضمحلت من تلقاءِ ذاتها

---

(١) سدني سمث

الفصل السادس

الدهر

صروف الحياة وتقلباتها — المصائب لا بد منها — انواع المصائب : انذارية تجارب . وهمية أو طفيفة . مصائب يخلقها المرء لنفسه . عقابات . بركات في غير زيها . الامل — الشجاعة الادبية

عجيبة هي الحياة في تركيبها ، ومتقلبة متغيرة في وجوهها وابداً قابلة لتأثير الطوارئ الخارجية، بحيث لا يتسنى لنا ان نسلم من صروفها وننجو من مصائبها . وكقول الشاعر الاميركي :

وهل من قطيع عاهدته ذئابها وعائلة ما حلَّ فيها مصابها
هنالك حِملانٌ مضرَّجةٌ دماً وهذي بيوتٌ ليس يفتح بابها

والمصائب نوعان ، حقيقية وظاهرية . والاخيرة منها يمكن تنويعها كما يأتي : (١) انذارية (٢) تجارب (٣) وهمية او طفيفة (٤) مصائب يجرها المرء على نفسهِ (٥) عقابات (٦) بركات في غير زيّها

— الانذارية —

الالم غالباً ما يكون اما عقاباً او انذاراً واخطاراً . ولولاه لكنا نموت صغاراً . ولكان يتمزق لحمنا او يحترق او يُتلف بسبب من

الاسباب . . . فهو الذي يدعونا الى الحذر ويجبرنا على معالجة اسبابه وازالتها . وكذلك في ضروب التجارة كثيراً ما يستفيد التاجر من الخسائر الزهيدة حكمةً وتدبيراً ينفعانه في مستقبل تجارته

— التجارب والفرص —

بعض المصائب ليس الا تجربة نبلى بها او فرصة تسنح لنا . والمصائب التي يحسبها الجاهل بلايا عليهِ قد يغتنمها العاقل فرصاً ثمينةً لهُ

مصائب دهرك تحلو وتنفع ... وهنَّ ببحر الزمان كضفدع
قبيح مسمٍّ على رأسهِ ... كمثل الجواهر ما راح يسطع
ونحن اذا ما عقلنا رأينا ال ... حقائق توجد في كل موضع
ففي الغصن نطق وفي النهر كُتبٌ ... وفي الصخر وعظ لمن يتسمَّع (١)

اما الغنى والقوة فتجر بتان مهلكتان . و بعض ملوك الرومان لو لم يُبلوا باموال لا تحصى وقوة لا تحد لربما كانوا من انفع الابناء لوطنهم وعاشوا غير تلك العيشة المكروهة وماتوا غير ميتاتهم الشنيعة .

« والمصائب تولّد الرجال والحظ يخلق الوحوش (٢) »

ومن جملة منافع المصائب انها تجيء « امتحاناً للصداقة » . والمثل الفرنساوي يقول « يكثّر السعد اصدقاءنا فيأتي النحس ويمتحنهم لنا » . والشدة تجمع الاصدقاء الحقيقيين وتحكهم حكاً فينجلي لنا جوهر كلٍّ منهم ونميز خالصهم من مشوبهم وغثهم من

---

(١) شاكسبير (٢) مثل افرنسي

سمينهم . بل اذا المَّت الشدة بشعب جمعت شتاته وألّفت بين متفرقاته كلما اشتد الظلام ازداد لمعان الشمس . والغيوم تنير الجلد وضباب المدائن ودخانها تظلم النهار وتسوّد الدنيا في عيون مَن يجهلون كيف يُجتلى السناء من السماء ، وتزيد غروب الشمس بهجةً وبهاءً لمن لهم عيون ويبصرون

لما ابتغى ابليس اهلاك ايوب بادر الى حرمانه اولاده وامواله . كان لايوب بنون و بنات وسبعة آلاف رأس غنم وثلاثة آلاف جمل والف ثور من البقر وخمسمائة حمارة وكان عنده حاشية واهل منزل . فسلبه جميع ما ملكت يمينه . ولكنه تصبر وتجلد وثبت لدى التجربة « فقام ايوب ومزق جبته وجزَّ شعر رأسه وخرَّ على الارض وسجد وقال : « عرياناً خرجت من بطن امي وعرياناً اعود الى هناك. الرب اعطى والرب اخذ . فليكن اسم الرب مباركاً . في كل هذا لم يخطئ ايوب ولم ينسب لله جهالةً » . ثم انهُ رُدَّ اليهِ ماله وغناه وعاد الى ما كان عليه ويظهر انه قاوم هذه التجربة ايضاً وان يكن ذلك غير مذكور في الكتاب . وتجربة الغنى يغلب ان تكون اشد خطراً من تجربة الفقر

وليس عالمنا عالماً يجدر باهله ان ييأسوا ويبادروا الى جعل الخيبة نصب عيونهم . والاستاذ هكسلي مثلاً يُعدّ بين خطبائنا الكبار ومن أشهرهم . الا انهُ في بدء امره كان مبتلى بكل عيوب الخطيب . فبعد اول خطبة القاها دُفع اليه كتاب بدون امضاء يُنصح فيه الاّ يعود

الى الخطابة ثانية فانه لا يصلح لها رغماً عن صلاحيته لغير مواقف . وبعد ذلك اتفق انه خطب في موضوع « علاقة الحيوان والنبات » فملّهُ سامعوه لدرجة ان ودُّوا الاَّ يُدعى للتكلم فيهم مرة اخرى . وهو من فمه قال لي انه استمرّ لمدة طويلة يرتجف حالما يأخذ بالالقاء وان الارتجاف كان يفارقه شيئاً فشيئاً مع توغّله في الموضوع . ودزرائيلي نفسه لم تكن خطبته الاولى في مجلس الامة الا محض خيبة وفشل

— الوهمية او الطفيفة —

بعض المصائب وهمية او طفيفة لا أهمية لها . على ان انكى المصائب هي التي نُبلى بهمها ولا تقع بنا مطلقاً . وكم من مرة نشقي أنفسنا ونتعسها من اجل امور عديمة الاهمية

ولماذا ترى اضطراب البال ودموع تسحُّ مثل اللآلي
حرت في الامر حيرة جئت منها اسأل الخلق ان يجيبوا سؤالي
لِمْ بكانا وما فقدنا حبيباً او خسرنا دنيا وطائل مال
أفهذا من كثرة الايغال في التقصّي والهذر في الاقوال ؟[1]

وهو من الغباوة ان يربو الحزن على السبب ويزيد عنه . وكأني بالناس يلحقون ما يخافون ويشقون خوفاً من ان يشقوا »[2]

أان يُحرم المرء السعادة يُتعسِ لعمرك بل ان حقها منهُ تبخسِ
سعادته تأتيه تُدعى « قناعة » لتأنس منهُ بابتسامة مؤنس

---

(١) مسز برونن (٢) ليوناردو دي فنيسي

فينكرها حتى تعود لاهلها وتتركه كأس الشقاوة يحتسي
فكم طمع في صدره قام حاجباً وان أقبلت في وجهها الحلو يعبس
فيُبلى من الارياح في كل زعزع وما بعد يُلفى ساعة غير متعس

الخوف من الخطر قد يولّده . وكم من رجل « جرب ان يهرب من الموت فوقع فيه[١] »

نصف الذي في القلب من حرَقاتِ مَن غيرنا اذكى له الجمراتِ[٢]

وكثيراً ما نجمع الشقاء بطرح السعادة. والامر مألوف قليل الكلفة كثير السهولة

لما ذهب نعمان الى اليشع ليشفيه من برصه وقيل لهُ ان يذهب ويغتسل في الاردن سبع مرات « غضب (نعمان) ومضى وقال : « هوذا قلت انهُ يخرج اليَّ ويقف ويدعو باسم الرب الاهه ويردد يده فوق الموضع فيشفى الابرص . أليس ابانة وفرفر احسن من جميع مياه اسرائيل ؟ أما كنت اغتسل بهما فأطهر . ورجع ومضى بغيظٍ »

— المصائب التي يخلقها المرء لنفسهِ —

كثير من مصائبنا ما نحن نخلقه لانفسنا . « وربَّ خوف من مكروه يلقينا في شرٍّ منهُ[٣] »

وروسّو كان يزعم هذا الزعم ايضاً . « وربما طلبنا بركة وهمية فحمّلنا النفس الف لعنة حقيقية[٤] » . واحزان الحياة وهمومها قد

---

(١) بتلر (٢) بروكتر (٣) بوالو (٤) كتاب الاقتداء بالمسيح

نبلى بها ولكن نادراً . اما عذابنا الدائم فهو نتيجة القلق والوسواس وقلة الصبر وكثرة الهوس

ولنذكر اننا لانوجد في هذا العالم لكي نتمتع ونلتذ فقط . وتوماس اكمبس ينبهنا الى الواجب الكبير بقوله :

ما وُجدنا فيهـا لعرشٍ مؤبّدْ بل لكي نخدم السوى نحن نوجد

وكثيراً ما نأبى احتمال صغيرات المصائب فتعظم علينـا بسبب ذلك الإباء . « أوَلم يكتب ديكاركوس قديماً مقالةً جمع فيها الاسباب المختلفة التي أفنت القبائل من أمثال الطوفانات والأوبئة والغزوات وهجمات بعض الحشرات المسمَّة القتالة . الا انهُ عاد فأحصى ووجد ان الناس بحروبهم ومظالمهم اذرع فتكاً بالناس من سائر الشدائد ؟[1] »

والطريقة الاخرى التى تزيد فيها الحياة مشاغب ومتاعب هي تحرّشنا وتداخلنا في ما ليس من شأننا ولا يعنينا . واحدهم كان يقول ان السواد الاعظم من الذين لم تربح تجارتهم هم جمهور الذين يتخلون عن شؤونهم الخصوصية ولا يستطيعون ان يلزموا جانب السكون الى واجباتهم الاصلية

وقد قال توماس اكمبس « اذا استطعت ان تترك الناس وشأنهم تركوك وشأنك وكنت حرًّا »

— العقابات —

المصائب الناتجة عن اغلاطنـا او الآتية عقاباً على خطايانا يمكن

---

(١) شيشرون

ادخالها في باب المصائب التي نولدها في احضاننا ولا يحق لنا لذلك التذمّر منها . ليس الفقر ولا المرض ولا العذاب ما يُعدم الحياة سعادتها بل الكبرياء والطمع وحب الذات والخطيئة ما يفعل ذلك

— البركات في غير زيّها —

واخيراً جملة من المصائب الموهومة ليست الا بركات في غير زيّها . والحزن مثلاً اذا احتملناه بشدة وثبات رفع همتنا وزادنا فخراً فهو كبرد الشتاء وثلجهُ اللذين يشدّان العزم ويقوّيان البنية

«رخاء العيش بركة «العهد القديم» والشدائد بركة «العهد الجديد» [١]»

« ولا يندحر من وجه الشدة الا مَن سبق فخانهُ رخاؤه [٢] . وقد يجلّد سطح نهر الحياة احياناً الاّ ان مجراه يستمر في سبيله تدفقاً وترقرقاً . والرخاء أهلك من الناس اكثر مما أهلكت الشدة والله سبحانهُ تعالى

يُمسك المطلوب عنا رحمةً حيث قد يودي بنا مطلوبنا [٣]

فاذا كنا لا نصلّي مكررين هذه الكلمات : اعطنا اللهمَّ ما يؤول الى خيرنا — فلتكن روحها فينا كلما طلبنا شيئاً

قال لوتسي الفيلسوف الصيني القديم « الريح العاصفة لا تدوم كل الصباح . وشؤبوب المطر لا يستمر طول النهار . ومَن يحرّك الرياح ويُسقط الامطار ؟ أغير السماء والارض ؟ واذا كانت السماء والارض تعجزان عن اطالة مدة هبوب الريح وهطل الامطار اكثر

---

(١) بايكون (٢) سينكا (٣) مور

مما هي، فما عسى الانسان ان يستطيع من ذلك ؟ » فاليأس لا يحسن بنا في حال من الاحوال

وليصرْ مهما يصرْ من مسيءٍ ومسرّ
اي حال لم يحل اي وقت لم يسرْ (١)

واذا كان وجه الامر عبوساً لا نور فيه ولا رجاء فللمرء ان يعزّي نفسهُ بتأمل قوله

(رماني الدهر بالارزاء حتى فؤادي في غشاءٍ من نبالِ)
(فصرت اذا اصابتني سهامٌ تكسّرت النصال على النصال (٢))

قال جرمي تايلر « الرجاء والصيام هما جناحا الصلاة اللذان يطيران بها الى عرشهِ السماوي . أما الصيام فجناح طائر . واما الرجاء فجناح ملاك . والصلاة محال بدون الرجاء و بهِ تصير معقولة ملؤها حرارة وتقوًى لان الامر منوط بوعد الله وعنايته . وصلاتنا تكون حارّة وصادقة بالنسبة للرجاء والامل اللذين يصحبانها »

لا ريب ان الثقة الزائدة والتطوّح بالآمال ليسا من الحكمة على شيءٍ

(قلّل الآمال في الدنيا تفز فدليل العقل تقليل الامل (٣))

وفي التجارة خصوصاً كم تجسم خسائر المضارب بقدر ما تشوط به آماله . وهكذا الميزان لا بد له من كفتين راجحة وناقصة . وكم مَن يفضل الفقر مع امل الاغتناء يوماً ما على الغنى مع خوف الافتقار في

---

(١) شاكسبير (٢) بتلر — والبيتان للمتنبي (٣) ابن الوردي

الغد . على انهُ اذا كانت شدة الامل تؤدي الى الخسارة غالباً فالخشية والخوف قد ينتهيان بها ايضاً . فالجسارة والاقدام مَوْقف وللخشية والحذر آخر . والحكمة كل الحكمة في معرفة اي الموقفين موقفنا . ومتى كنا على غير اليقين من امرنا كان الاحجام افضل لنا من الاقدام . لانهُ اذا أقدمنا وفعلنا شيئاً ربما استحال علينا بعد ذلك ان نعيده الى حيّز التردد بعد ما دخل في حيز الحدوث

كثيراً ما نحسب الحظ أعمى ، والحقيقة انما نحن العميان . ولأن أبصارنا مغشّاة فلا تجتلي أنوار نجمه لذلك نظنه أعمى ، ونلقي ستاراً على العناية العلوية أيضاً [١] » وعلى كل حال اذا قلنا ان الحظ أعمى فهل نفينا وجوده ؟ الاّ انه « يجب ان نحكم الحظ ونتدبره كما نحكم الصحة ونتدبر امورها . فاننا نتمتع بوجودها ونصبر على فقدها وندخر منها في ابّانها ما يقينا شر السقام مدة هجرانها [٢] » . على ان الحظ الحسن اصعب مراساً من السيئ . لان نكد الطالع اذا حل بنكباته فواحدة هي الفضيلة اللازمة — الا وهي الصبر . على ان السعد اذا أتى برخائه فقد يودي بمن يأتيه ، اللهمَّ ان لم يكن عنده من أمثال التعقل والحذر والاعتدال وعدم حب الذات والاحسان فضائل عديدة

والتقاء النكبات والبلايا يجب أن يكون بروح كالروح التي اظهرها ملتون بعد ما فقد بصره ومال الى اليأس اذ قال

---

(١) ريليجيو مدبسي (٢) روشفوكولد

لئن بت أعمى فلا أبصرُ فلست برب السما اكفر
ولست لأفقد كل الرجاء ولا القلب يفقد ما يقطر
انا كالسفينة من ذا الزمان الـــخضم ولست أني أمخر

« لان الذي يحبه الرب يؤدبه . وكأب بابن يسرّ به »

وحتى ولو لم يكن الأمر كذلك فمن الواجب علينا ان نعرف للشدائد قدراً . فان احتمال العذاب نصرٌ وكل نصر عزٌّ وفخر

اذا ما حسبت القتاد الخطر وقلت السلامة زهر عطرْ
وطلت الازاهر رغم القتاد سليماً فانعم بنيـل الوطرْ

واذا ذكرنا أيوب وصبره قلنا مع القائل :

اياك واليأس لا تذهب مذاهبه اما الرجاء فعش ما عشت طالبه
والليل مهما دجى واشتد حالكه فالبث فآخره صبح تعاقبه [١]

وربما احتوت البلايا نفعاً عاماً تظهرهُ الأيام وان كان لا يشعر به المرء في حينه . فالطوفان يزيد الأرض خصباً وفيضان البراكين كم أغنى الأرض تربة . وحريقة لندرا لم تكن عليها وبالاً محضاً . واعتبر ذلك ايضاً بخراب بومباي . وكمدينة انها حفظت تماماً . وغوتة [٢] قال فيها « نكبـات الزمان كثيرة ولكن ليس بينهن واحدة عادت على الخلق بما عادت به هذه النكبـة . ولا اخالني أعرف لذة تفوق لذة تأمل هذه الخرابات والبقايا » وهو القائل في موضع آخر « قد تنزل بالمرء شدائد عمومية او شخصية فتسحقه ولا سحق النورج للسنابل اما

---

(١) كوبر (٢) شاعر الالمان

طربيل [١] الاقدار فاذا سقط على حزم السنابل الملأى سحق قشها سحقاً وما مسَّ حبوبها بضرر فانتثرت هذه تطفر فوق الأرض كأنها ترقص جذلاً . فلا تبالي أإلى التلم مصيرها فتجدد حياتها ام الى الطاحونة فتقوم بحياة زارعيها

ان الشدائد كالنار تطهّر الانسان وتمحص معدنه وتفرّق بين تبرهِ وترابه

« فلا تهتموا قائلين ماذا نأكل او ماذا نشرب او ماذا نلبس. فان هذه كلها تطلبها الامم . لان اباكم السماوي يعلم انكم تحتاجون الى هذه كلها . لكن اطلبوا اولاً ملكوت الله وبرّه وهذه كلها تزاد لكم فلا تهتموا للغد. لان الغد يهتم بما لنفسه . يكفي اليوم شرُّهُ [٢]

---

(١) الطربيل آلة تدق بها السنابل (٢) متى

الفصل السابع

المعروف

التسامح مع الصغار والمرضى والموتى — لماذا لا نتسامح مع الجميع ؟ — نقائصنا تضر بنا اكثر من نقائص الغير — الاحسان : الجود بالدراهم والجود بالنصائح — العناية وتعاليمها — الصلاة — غريغوريوس وتراجان — الصفح والغفران — تعزيز الشكوى — البيت

اننا لا نستاء من الاطفال بل نتسامح معهم ومع المرضى اذا أساؤوا الينا ونسلم بصحة المثل اللاتيني القائل : « واذكروا الموتى بالخير » فلماذا لا نوسّع دائرة هذا المبدإ ليشمل المومى اليهم وسواهم ايضاً ؟ فاننا نرى الفعال وتخفانا التجارب التي قاومها المسيئون قبل وقوع الاساءة . وقد قالت مدام دي ستايل ما يقابلهُ : (لا تَلم الغائب الاَّ بعد حضوره . ومتى عرف السبب بطل العجب)

وسينكا يقول : « يجب علينا ان نتحل اعذاراً للجميع — فللأولاد لانهم صغار ، وللنساء لانهنَّ ضعيفات ، وللحكام لان مهامهم عظيمة فلا بد لهم من الخطاء ، وللصالحين لانهم لا يقصدون الاساءة وللاشرار لانهم يستحقون الشفقة اذ الشقاء مستقبلهم »

سئل ثايلس عن اصعب الاشياء واسهلها فعلاً فاجاب : ان

اصعبها معرفة الانسان نفسه واسهلها انتقاد الآخرين

والاجدر بكل انسان ان يهتم بواجباته بقطع النظر عما يجب على سواه ، وان يكون متساهلاً وحليماً مع الجميع الاَّ نفسه . واعلم ان التنويه بحسنات الاعداء خير من التنديد بسيئات الاصدقاء

اذا كنت تعجز عن ان تصيرَ كما قد اردتَّ بعزم وطيد
فكيف تؤمل انَّ سواكَ يجيئك طبقاً لما قد تريد
فجار تجارَ وساعدْ تُساعدْ صواب وحق ورأي سديد(١)

ولكم نتشكى ونتذمر من نقائص الناس . اما النقائص التي فينا فتجر العذاب علينا ولا نفتأ نحرص عليها . بل قد نحتمل التوبيخ والاحتقار ونتكبد العقاب من أجلها ، ونغرر بالنفس ، ونتحمّل الخسائر من جرَّائها ، كل ذلك ولا نمسها بتكميل

فمن أجل راحة الفكر وسلامه ، ان لم يكن لقصد اسمى ، الاولى بنا الاَّ نسيء ظناً وان ننظر الى معائب الغير وهفواتهم نظر الحلم والاحسان ونطوي كشحاً على اقوالهم وافعالهم حاسبين لاحوالهم الشخصية حساباً تصغر معه سيئاتهم وتكبر حسناتهم . واذ نحن غير كاملين فكيف يسوغ لنا ان نتطلب الكمال من سوانا ؟ والغضب لنقائص الغير ومستغرباتهم كالغضب على العواصف والزوابع . وما عسانا ان نستطيع اذا غضبنا على الجو وتقلباته ؟ بل اذا غضبنا على الناس فقد نترك احوالهم اسوأ وارداً . وأذكر ان ايذاء الغير آلم واضر

---

(١) توماس اكمبس

من احتمال الاذى . وكم نحاول ردّ أذية ودفع اهانة (وربما كانتا وهميتين فقط) فنبدأ خصاماً كنا في غنى عنه . وربما كان من حولنا مَن مهد لنا سبيل اعتماد الاذية على انه في الغالب نحن موضع التخطئة والملامة . والاَّ فتجربة وجبت مقاومتها ومعركة أدبية نحسن البلاء فيها على أمل العودة بالنصر فخراً وكسب الصديق غنيمة

ومن لا يشعر مع غيره كان غير مستحق لشعور غيره معه . واذا كان قلبك بارداً نحو الآخرين فربما كانت قلوبهم ايضاً باردة من نحوك . وان لم تكن ، فعلى كل حال ليست محبتهم لتنير حياتك وانت غير مستحق لذلك . وليست لتضرم حرارة فؤادك بل لربما جمعت جمراً وناراً على رأسك . ومن اقام حول نفسه سياجاً فقد منع عنها اكثر مما منع عن سواها . واذا كنا لا نحب الآخرين فلا سبيل لمحبتهم الينا . واذا كنا لا نستطيع المحبة فانى لنا ان نعرف لها قيمة وقدراً ؟ وان كنا لا نستحقها فلن نتمتع ببركاتها بل تبقى قلوبنا باردة كالجليد وكالجليد تذوب الاَّ انها لا تعرف الحرارة . واذا كان في « انا » « نون » واحدة فان في نحن « نونين » . ومن ثم اذا حسبنا النون من النور كانت «نحن» اكثر نوراً . والاهتمام بـ « انا » حب ذات وذل حياة اما الاهتمام بـ « نحن » فغيرية وعيش اوسع واشرف

وليس هذا واجباً من الواجبات فقط بل انهُ من أصدق مسرات الحياة واطهرها . ولكن قبلما يمكننا ان نساعد الناس يجب ان نعرف الناس وان نحب الناس . ودافع عمل الخير ربما أحدث ضرراً اذا

جرى في غير سبيل الحكمة . وقد يستحيل ان تأتي شيئاً من النفع بمجرَّد حسن النية أي بدون الحكمة المبنية على المعرفة والاختبار

اما الفقراء المتسوّلون المتكاون على حسنات الغير وصدقاتهم فالاولى ان يمنحوا استقلالاً لا مالاً يزين لهم الاعتماد على الغير في معيشتهم . ولا شك ان سد حاجة المُعوِز حسنة من الحسنات اما تحسين خُلُقه فحسنة هي كل الحسنات . والصدقات الواقعة في غير محلها قد تُعَدَّ ظلماً وقساوة . وان الطبيعة لقسطاس العدل واذا أدَّبت المرء بالفقر فلكي تعلّمهُ كيف يجب النظر في الأمور . والاحسان اعمى اكثر منهُ أصمّ . ولله درّ المحسن القائل :

جدت للسائل يوماً بقليل الذهبِ
من يسير المال مما حزتهُ في تعبي
فمضى ثم أتاني ودنا من رُكبي
عارياً يرجف برداً مائتاً من سغبِ

...

جدت للسائل يوماً بكلامٍ ذهبي
فاغتدا منهُ كبير النَّفس حرًّا وأبي
لم يعد لي بعد حين صادياً لم يشربِ
جائعاً ما ذاق شيئاً شاكياً من وَصَبِ

...

فليكُ الاحسان نصحاً لفقير بل غبي

فالاحسان اذاً من المسائل العظمى . ومجرَّد الجود والإعطاء . سهل جدًّا ، اما التكرم على السائل بذات الجيب بدون سلبه « ذات النفس » أي اعتبارها والاعتماد عليها فاصعب من صعب . فكما قال بايكون : « لتكن غايتنا مع المعوز لا سدَّ حاجته فقط بل مساعدته على الاستقلال فيسدّ حاجاته بنفسه » . واذا كنا نزيد حالة العجزَة الملتجئين الى مآوي الشفقة عسراً وضنكاً فكأننا نزيد طينتهم بلة وسبيلهم معاثرَ . الاَّ انهُ لا حدّ للاحسان . او كما يقول لون فلو : « العقل محدود اما العواطف فلا . وما اشبهها ببئر حية يُستقى منها ولا تنشف »

فضلاً عن ذلك ان لكل منا مقداراً معيناً من المال لينفق منهُ وما تصدَّقتَ بهِ على غير مستحق فقد خرج من يدك فكيف تجود به لسواه اذا عرفته مستحقاً ؟ وكذلك اذا فتحت باب العمل للطالح فقد أوصدتهُ في وجه الصالح . واذا جدت بنقودك للسكّير فكأنك تزيدشر السكر انتشاراً . ومن هذا القبيل يا للفرق الكائن بين الدراهم وعواطف الحنو ومشاطرة الغير احساسهم ! فان هذه لا تقف عند حد مطلقاً — وكأنها لعنة الارملة . . .

وليس من الحكمة ولا من العدل ان يحمل المحسن القيام على مالهِ حمل المسرف المبذّر . لان ذلك يفقر الاول ولا يجدي الثاني نفعاً . وقد صدق سبينوزا بقولهِ : « اذا كنا نحب التقدم والخطو الى الامام . فلنتجاهل العلاقة التي أوجدتها العناية بين السلوك ونتائجه »

وصحيح انهُ لا يجوز « الامتناع عن الاحسان خوفاً من الجحود والنكران . لأن الله جعل الثواب من خصائصه وحدهُ » ولكن الخوف الحقيقي ليس من الجحود وعدم الاقرار بالمعروف بل من الأذى الذي قد يلحق بمن نحسن اليه

لا ننسَ ضعف الطبيعة البشرية وسهولة التمادي في الكسل والخمول . ولا ايسر من جعل المعدمين أشدّ حاجة الى المساعدة . أما مساعدتهم لكي يساعدوا ذواتهم فليست من الهنات الهينات . ولكن اذا كانت الصدقات عرضة للشك في كونها رفقاً ورحمة فالاحسان بمعناه الحقيقي لا يستهدف لمثل هذه الشكوك. وقد يكون بذل الدراهم ضرراً وخطيئة اما مدّ يد المساعدة وتكريس الوقت للخدمة وتمحيض النصح والحلم والحنو فليست كذلك . واذا كنا نخطئ أحياناً ببذلنا ما يطلب منا فلا خطأ في تركنا ما يطلب لنا او نسيانه بالكلية

من جملة اقوال الملك « الفرد العظيم » : « عزّوا المساكين واحموا الضعفاء وذودوا عنهم و بكل قوى يمينكم أصلحوا الفاسد . حتى اذا فعلتم احبكم الله وكان لكم اكبر جزاء » . ومن جهة أخرى نرى ان حب الذات هو نبع الشقاء الاكبر ولولاه لكانت همومنا اقل من القليل . فاذا كنا نهتم بالغير و بمصائبهم فغالباً ما يؤول ذلك الى سلواننا مصائبنا ونسيانها ونعم النسيان

اذا كانت العواطف لا تتجلى للعيان بالاعمال التي تدل عليها فقد يستفيد منها صاحبها اما الحبيب فلا . فهي بالنظر اليه كأنها غير

موجودة أصلاً . أما اذا أظهرت وتجلّت فما أجملها وما اكبر قيمتها : فما أعظم ديننا لامهاتنا بالنسبة لاعتنائهنّ بنا وتأثيرهنّ علينا وحبهنّ لنا — واني أقول هذا وكلي محبة وعرفان — . وقيل سئل مرة سر بنجمن وست رئيس المجمع العلمي الأميري عما صيرهُ مصوّراً عظيماً فأجاب : « قبلة من أمي »

وقد قيل ان الرسّام رو بنس حوّل صورة « ضحك الولد » الى صورة « بكاء الولد » بحركة واحدة من ريشته . انما لايتحتم ان يكون المرء رسّاماً أو مصوّراً ماهراً لكيما يستطيع مثل هذا التحويل فاللسان قد يفعل فعل ريشة الرسام وأكثر . والناس لم يخلقوا من الحجر الصلد ولكنهم كم يتصرفون حتى كان قلوبهم قُدّت من الصوان . ويا لها من محمدة اذا كنا

نداوي سقم نفس جل أمرُه ونسي ذا كراً ما ساء ذكره
ونمحي للشقا في العقل سطراً اذا في صفحتيه خُط سطره
وقلباً دسّ فيه الهمّ سماً نذيق حلاوة فيقل مرُّه (١)

وكلنا نستطيع ان نساعد الغير ولو بالصلاة . ولا يستخفنّ بتأثيرها . فقد رُوي ان صلوات البابا غريغوروس العظيم نجّت الامبراطور تراجان من عذاب الجحيم ، الاّ ان ذلك البابا حُظرَ عليه ان يعود الى مثل ذلك ثانية . . . وعلى كل حال ينبغي للقوي ان يذود عن الضعيف . وكقول الشاعر

---

(١) شاكسبير

تبسَّم للضعيفة واعتبرها وكن عن عيبها ابداً عميًّا (١)

تكلم جُوبرت عن رقة الطبع فقال « هي التساهل » ولأن تحِبّ خير من ان تحَبّ . واللطف افعل من القسوة ولا سيما مع الاطفال

لا تنتظر من الناس فوق طاقتهم . واذكر اننا كثيراً ما نخيّب انفسنا فلا عجب ان خابت آمالنا في الآخرين

قال سقراط مخاطباً جورجياس وكلّيكلس : « فحصنا تعاليمكما فكانت ناقصة . ولم يجتز الامتحان ويسلم من الامتهان الا واحد منها فقط وهو — الأولى ان نكون اشد حذراً من الاساءة الى الناس منا من اساءتهم الينا . وان أهم اعمال الحياة ليس التظاهر بالصلاح بل الصلاح الحقيقي في السر والعلانية »

اذا كان لنا اعداء فنحن مَن اوجدهم . ويا لشر سوء الظن! وكما قالت مدام دي سڤيني « من تجنَّبته كمدوٍ وسئت فيه ظناً لا غرو ان صار لك عدواً حقيقياً بعد ذلك. فان في معاملتك هذه سبباً كافياً »

من اشرف الامتيازات الانسانية التي نسبها المسيح لنفسه مقدرته على الصفح والعفو في هذه الدنيا . أو ليست هذه المقدرة فيناجميعاً ؟ الا انه تعوزنا الارادة لا غير ! ومَن كان فظاً أو ظالماً في معاملتك فقد يؤذيك من جهة ويمنحك امتياز العفو والصفح من جهة أخرى . « وقد جعل الله في المحبة والبلية شيئاً من قوته الكاملة » (٢)

---

(١) پريور (٢) مسز كرافن

والاثآر طبيعة بشرية اما العفو فصفة إلاهية . واننا لنصلي كل يوم طالبين ان تغفر ذنوبنا « كما نغفر نحن ايضاً للمذنبين الينا » ونسى اننا لا نغفر لغيرنا فلا يغفرون لنا . ورب جواب لطيف « يردّ غضباً » ورب جواب حدة وسخرية يضرم الغيظ ويزيد السخط

قال كوسمو ديوك اف فلورنس اننا أُمرنا بمسامحة اعدائنا ولم نؤمر بالعفو عن أصدقائنا : على ان العفو واجب في الحالين . واذا أخذت بثأرك من عدوك فربما بتَّ وانتما ندّان او كفتا ميزان . ولكن اذا ترفعت عن مقابلته بالمثل حلماً وعفواً فقد ارتفعت عنه مقاماً ، ولربما حولته الى صديق تماماً . ناهيك عما في التفكير واعداد العدة للانتقام من اشتغال النفس بالضيم ، وحك حزازات الصدر ، ونكء جروح القلب ، بحيث يتعسر بعدئذ شفاؤها — وان في ذلك لعذاباً أليما . ومَن يحاول مسّ غيره باذى فقد يتعذر عليه ذلك ولكنه لا يسلم من جرح نفسه

وفضلاً عن ذلك « ان العفو عن العدو خير انتقام . وأخلق به ان يُعدّ نصراً كسروياً وغلبة مُبينة بدون سيف ولا حسام . بل انهُ تذليل للعدو واحناء لرأسه تحت الاقدام حزيناً خجلاً ندماناً . بل ربما آل الانتقام بالعفو الى تحويل العدو الى صديق ونعم المآل . فالفرُّ من وجه الاعداء كر عليهم بهذا المعنى . ومقابلة الشر بالخير هي السياسة السماوية لحفظ السلام على الارض . والعنف والقوة قد لا يُنهيان الشر أو أذا انهياه فقد ابتدأت البغضاء والشحناء على الاثر . والخصم

الذي يصالح رغم انفه فقليل ما يكون موضعاً للثقة . لانه لا بد من المحبة والاخلاص قبل تبادل الثقة. وقد يكون سلامه وقتياً واضطرارياً لا غير : فاذا كنت لا ترحم غيرك فبالاقل لا تظلم نفسك. وأي ظلم أشد على النفس من أن تبيت لا تهجس الا في اتخاذ الحذر وإعداد العدة وتعمّد الاذى حتى كأنك افترشت القتاد ، ونمت مع العقارب ، فلا تذوق للنوم طعماً ؟ »

ولماذا تُرانا نبحث عن مساوىء الغير ونُمعن النظر فيها ونكبرها عما هي ؟ وان لكلٍ حسناته ، فما بالنا نغض الطرف عنها ؟ « فتشوا تجدوا » واذا طلبت الحسن وجدته في كل مكان وزمان . ورب ضعفات في الصديق تحببنا بهِ ، او بالاقل تزينه لنا بوشاح التواضع والوداعة

ولقد نستغرب ان نرى انساناً خالياً من الرأفة والحلم . على اننا لا ننظر الى دواخلنا فنعرف اننا نظيره وانه هو ايضاً ينتظر منا نفس ما ننتظر منه

وقد اخطأ بستلوزي بقوله « ليس تحت السماء مَن يريد او يقدر ان يساعد غيره » . واني كأحد الناس اشعراني لا استطيع ايفاء جميل الاقرباء والاصدقاء حقه من العرفان . وزد على ذلك انهُ بقدر ما نعمل كذلك تزيد مقدرتنا على العمل. فكأن الصالحات أمهات يلدن

وربما صح قول شاكسبير

الشر يحيا بعدَنا والخير يدخل لحدنا

على ان الاغلب هو ان يعيش كلا الشر والخير بعد موت صاحبهما

لا غرو ان الذهب والفضة ينيلاننا ضروريات الحياة من مأكل ومشرب وملبس ومنزل ، ولكن اني لهما ان ينيلانا البشر والفرح اللذين تبعثهما فينا نظرة اللطف ؟ وانى للفقر ان يجرح القلب ويسمه كما تفعل كلمة فظة قاسية نخاطب بها ؟ واليك قول شاعرنا سكوت بهذ المعنى

وكم من سهام على غير قصدٍ تصيب وتصمي خلاف الهدَف
وربَّ كلام به فهتَ عفواً من القلب حلّ محلّ الشغف
فكان كسيراً وعاد سليما او ازداد كسراً ويا للأسف

ان في الامر لسراً خفياً . فالعطايا ولا سيما المالية منها مع انها مفيدة غالباً ، فكثيراً ما تضر اكثر مما تنفع وخصوصاً اذا أعطيت « تصدقاً » ، كما يقال ، وليس عن عاطفة محبة حقيقية . والهدايا لا شك انها تُوثق عرى المودَّة وتمكنها ، ولكن ذلك محصور بين الاصدقاء والاقارب : اما المثل الانكليزي القديم فيقول : اهلاً بما يسرّني ويطيب نفسي »

فمع الجميع وخصوصاً الاطفال

بلطفٍ تكلم فان الفؤادَ كبئرٍ لنيض العواطف حيّه
وان رمتَ تعلم قدر الكلام الا طيف وتسأل فالأبدية (١)

---

(١) لانكفورد

وبنتُ الشفة اذا خرجت من تحت سقف الحلق ، فقد مضت في سبيلها ، وربما عدت فوددت لو تعود ولـكن « عزّ ما كنت تريد »

وكم عبثاً نستعيد الكلاما وليس يعود فليس حَماما
حمامة نوح الى الفلك عادت واما الغراب فعلى وحاما

« عبَّر أحد الحكماء عن الفرق بين السمآء والجحيم بقوله ان في السمآء كلاّ يريد ان يهبَ جميع ما عنده لسواه ، بينما في جهنم كلٌّ يريد ان يسلب الاخر ما عنده »

وعاطفة المحبة وروح الأحسان وسلام العقل — ربما كنا اغنياء واقوياء بدونها، ولكننا لا نكون سعداء . بل ان السماء نفسها اذا خلت من هذه الثلاثة لا تظل سمآء وبها كل انسان ملاك ، وكل بيت نعيم وسمآء

سانت فرانسوا دي سال يشبه الافعال الكبيرة الآتية عن محبة، بالسكر ، والصغيرة منها ، بالملح : وهو معلوم ان السكّر الذُّ واشهى طعما ، ولكن قليلا ما نستعمله . اما الملح فلا يخلو منـه طعام . فمن الخطإ ان نقصر المدح والثناء على الاعمال العظيمة ، او ان نحتقر الاعمال الصغيرة . ولنعرف لكل شيء قدره

كثير من الناس يصرّون على حقدهم . ويحرصون على الاذية التي تنالهم حرص البخيل على درهمه . يجرحون فلا يرضون ان يذرَّ البلسم على جروحهم ، فكأنهم يعشقون دمها ويلتذون بألمها .

واليك هذه القصة مثلاً لهذه الفئة من الناس : اتفق للورد دربي يوماً انه وعد احدهم ان يعينه لمركز في الحكومة ، وعاد فعين فيه سواه سهواً ونسياناً . وما جاءه الموعود حتى قابله باظهار الاسف لِما وقع منه عفواً وسهواً ، وقدم له مركزاً اهم وأسمى من الذي كان قد وعده به ، الا انه آثر ان يكتم استياءه ويصرّ عليه على اشغال هذا المركز ، وخرج من لدنه يغلي حقداً ويتميز غيظاً

وما هو البيت ؟ وما العيشة العائلية الهنيئة ؟ ربما بنيت بمالك وجاهك قصراً فخيماً وحصناً حريزاً . اما المحبة ، فهي ما يجعل المنزل بيتاً بل سماء . اعتبر ذلك بفحوى قوله

ألا لو كنتِ لي لجعلت بيتي السـ ـعادة طائر يأوي اليه
وكنا حول « نار البيت » نهنا بتذكار الصبا والعيش فيه
وكنا نسمع الاجراس تشدو اذا الميلاد حلّ بنعمتيه
وقلبانا يطيران ابتهاجاً ولا شيء يفوت فنشتهيه[1]

وقل بربك لماذا نغلظ في الكلام طوراً ، ونملأ الصدر حسداً تارة ، ونخليه من عواطف الرأفة والحلم أخرى ؟ ألسنا بذلك نشقي الآخرين ونظلم انفسنا . والحسد في المرء شر من السم في الحية ، بل أشر . لان الافعى لا يضرها سمها والمرء قد يقتله حسده . وما كان اسعد الدنيا لو كنا نتساهل الواحد مع الآخر ونتلاطف ونتحاب جميعاً

---

(١) الفرد أوستن

«سمعتم انه قيل تحب قريبك وتبغض عدوك . واما أنا فأقول لكم احبوا اعداءكم . باركوا لاعنيكم . احسنوا الى مبغضيكم وصلّوا لاجل الذين يسيئون اليكم ويطردونكم » (١)

(١) متى ٥ - ٤٣

الفصل الثامن

التهذيب (١)

أقوال مأثورة في التهذيب — عهود العلم في تاريخ المدنية — التعليم الاجباري — من هو المهذَّب — ما هية التهذيب والغرض منه — ماذا يجب ان تتعلم — المعلمون — التهذيب وطرقه — التهذيب والانسان — المدرسة والعالم — ازالة وهم — رب علم يكون بالنسيان — كلمة الى طلبة العلم — كيف ندرس — الانسان والكمال

اساطير الأقدمين، وكتب المتأخرين، وكتابات المعاصرين واقوالهم جميعها مجمعة على الاقرار بفضل التهذيب، محرّضة على اعلاء مناره

واليك سلسلة افكار واقوال جاءت بهذا الصدد: «التهذيب» قال افلاطون «هو اجمل شيء في احسن انسان». «والتعليم» يقول فولر «اعظم صدقة يجود بها المحسنون اذا أرادوا مد اليد البيضاء

---

(١) أتيت على ترجمة آخر سطر من «فصل التهذيب» في كتاب «السعادة والسلام» وانا اتراوح بين اثباته وبين تلخيص ما ورد في «معنى الحياة» لنفس المؤلف تحت عنواني «التهذيب والامة» و«تهذيب المرء لنفسه». وبعد التردد الطويل آثرت اثبات التلخيص متوخياً الحرص على لذة المطالع العربي ولا سيما وان الفصل المشار اليه يبحث في التهذيب بحثاً يهم ابناء انكلترا خصوصاً وقد لا يوافق اخواني ابناء مصر وسورية موافقة مضمون هذين الفصلين. وحسبي حسن النية اذا فاتني الامنية

الى المعوزين والفقراء . ومونتاين الفرنساوي ، يصرّح بان الجهل ، هو ابو الشرور والجهالة أمها . « والقوة » قال فيلسوف أدبي « بدون معرفة خطر ووبال ومعها مصنع خيرات ومنافع » . وشاعرنا شاكسبير يقول :

أن الجهالة لعنة وجهنم
لأولي الجهالة بل همو اهل الجحيم
لكنَّ معرفة الفتى ترقى بهِ
أوج العلاء وداره دار النعيم

وسليمان الحكيم يوفّي كلاًّ من العلم ، والحكمة ، والمعرفة حقه من التنويه بفضله ، والذكر لحسناته ، والدعوة اليه . بل ان اقواله في هذه الثلاثة جارية أمثالاً ، فهي أشهر من ان نفسح لها مجالاً

في العصور الخالية ، كانت تقوم الفلاسفة ، وتنبغ النوابغ ، من آونة الى اخرى ، وتظهر العلم باجلّ جلال ، وأجلى رونق . انما ، لا يُفهمنَّ من هذا ان التهذيب رقي معارجه العمرانية رقياً مستمراً بدون عقبات ومشاكل . والحق يقال ان لهُ ثلاثة عهود متداخلة متلاحقة

فمن عهدٍ كان فيهِ العلم من ميزات الرجال ، محظوراً التوسع فيه على النساء ، حتى جرى المثل الالماني « ان خزانة المرأة هي مكتبتها » وشاع القول الافرنسي « المرأة يجب ان تلزم ما بين الاربعة اناجيل أو ما بين اربعة جدران غرفتها » . وبلغ ذلك التقيّد مبلغ ان حسبوا العلم من خصائص الرهبان والكهنة دون سائر طبقات الناس . وسببه

انهم جهلوا قدر العمل وما أدركوا شرف الشُغل اذ كانوا ينظرون الى القارئ الكاتب كمن يحسن به الترفع عن كل عمل يدوي. حتى ان الدكتور جونسن نفسه، مع تضلعه من العلوم ووثوقه من الحقائق قال: «لو تعلّم كل الناس وتهذّبوا فمن يقوم لنا بالأعمال اليدوية؟»

ومن عهد آخر، عُوّل فيهِ على اقتباس اللازم، واللازم فقط من أصول الخط والقراءة والحساب مما يستعمل في الأعمال البسيطة. فكانوا يعلمون تلك المبادئ آتين بالطالب الى الحد المعين منها، فيوقفونهُ عنده، حذر ان يؤهل نفسه للاندماج في أهل طبقة أسمى من الطبقة التي ولد فيها. تلك كانت ايام الظلمة والظلم، ايام لم تكن عرفت الحرية ولا المساواة بعد

اما اليوم والعلم في عهده الأخير، فاننا لا نقول انهُ يطلب من الحكومة أن تعمم التعليم الاجباري بين جميع رعاياها لا نقول هذا فقط، بل نزيد ونطلب منها (ولنا ان نطلب وعليها ان تجيب) أن تعمم «التهذيب» تهذيب الناشئة القائم بتهذيب عواطف الأحداث وأخلاقهم، بحيث يشبون على شريف الخصال، ومستقيم المبادئ، ويصيرون رجالاً عالمين عاملين

قال أحد ساسة السويسرا: «أغلب أولادنا يولدون فقراء، ولكننا لا نتركهم ينشأون ويترعرعون، ويعيشون جهلاء». والحمد لله نحن ايضاً، قد انزاحت تلك الغشاوة عن بصائرنا، وصرنا نرى أهمية تعليم كل ابن أمير، وكل ابن صعلوك، من أبناء الوطن. ولماذا؟

ألأن ذلك من الكماليات، ونحن كدولة راقية قد أحرزنا الضروريات، وهذا من جملة الكماليات التي تنقصنا بعد ؟ لا لعمري ! اذ ليست تربية أطفال اليوم أي رجال الغد، وتثقيف عقولهم، وتهذيب نفوسهم من الكماليات فقط، بل انها من ألزم الالزومات . فالعلم هو أساس العمران . بهِ تقوى أركان الأمة. وكل أمة جاهلة ينهدم بنيانها وتسقط أركانها لا محالة . بل لأن سن الشرائع يستدعي علماً — علماً بالتاريخ و بفلسفة الاجتماع وكل العلوم العمرانية، ولأن تنفيذ الشرائع يستدعي تهذيباً — تهذيباً يشرب النفوس حب العدل وكره الظلم، حب العفة والنزاهة، واحتقار الهوى والرشوة

ولان الشعب اذا تعلم، و بالاحرى اذا تهذب، احب الحكومة ورعى حرمة قوانينها

كيف لا، واذا قابلنا بين احصاآت الجرائم و بين احصاآت المدارس لسنين معينة وجدنا معدل عدد المجرمين يقل بنسبة زيادة عدد المتعلمين

وسببهُ أن جزءاً من الجرائم الفظيعة ينتج عن ميل الانسان الغريزي الى الشر، وعن ضعفه لدى التجارب . . اما المصدران الكبيران فهما السكر والجهل

وحسب المدارس منفعة انها تحفظ الاولاد الميالين الى التقليد والتشبهِ، من مشاهدة مفاسد ومساوىء اهل البطالة والكسل، المنتشرين في الازقة وحوشاً ضارية تغتال اطفال الانسانية . حسب

المدارس انها بمجرّد تنفيذ قوانينها تقلّل فُرَص معاشرة طلبتها للاوباش والاجلاف والسكيرين ، وبالنتيجة فرص اقتباس عوائدهم . هـذا فضلا عما فيها من الرياضة على الحسن الشريف من العادات والمعاقبة على الدنيء منها

اهذا صواب ام خطأ ؟ . اهذا خيرٌ ام شرٌّ . ؟ اهذا جميل أم قبيح ؟

ان هذه الاسئلة لتقوم في النفس مراراً كل يوم . اذ الانسان خلقٌ عاقل يتصرف بعد ان يفتكر . واعمال الحياة يغلب ان تكون من نوع الصواب والخطأ او الخير والشر ، او الجميل والقبيح . فالمهذّب هو من يسأل نفسه احد هـذه الاسئلة في وقته ، ويجاوب حسناً ، ويعمل حسناً اذا لزم العمل

والغرض من التهذيب تهيئة المرء لسعادة الحياة وللقيام بعمل يذكر فيها

ومجرد القراءة والكتابة ومعرفة أصول الحساب وصرف اللغة ونحوها ، ليس كل التهذيب ، كما ان السكين والشوكة والملعقة اذا وُضعت على المائدة لا تكون الغذاء المطلوب

وكثيرة جدًّا هي الأشياء الممكن تعلمها ولكن على الانسان المعين في أحواله المعينة ان يختار لنفسه بعضاً منها مما يوافقه من كل قبيل

لدينا كتب السلف المحتوية على أفكارهم وأساليب تعبيرهم ، وعديد مفرداتهم ، مما طمسه الزمان فصار في حكم المجهول . فدرس

تلك الكتب لا أقول انهُ مضرّ لكل انسان ، ولكنهُ لا مشاحة غير ضروري لكل انسان . ذلك لقلة ما يرجى من الفائدة من معرفة مترادفات لا تحصى لكلمات يكفي القليل المألوف منها لاجل التفاهم ، ولامتناع هذا مع استعمال الغريب القديم من التراكيب والعبارات . بل رحمة بالوقت ! فاننا نصرف في درس اليونانية واللاتينية القديمتين وقتاً يجب ان نصرفهُ في غير سبيل

والمعلمون عظيمة هي واجباتهم وثقيلة هي المسؤولية المنوطة باعناقهم . اذ التسلية وتمضية الوقت مع التلامذة امر بسيط هين ، اما تعليمهم ، وتربيتهم ، وتهذيبهم ، وتثقيف اذهانهم ، وترقية مداركهم فهذا هو الفرض المقدس المرسوم عليهم

وربما كان اسهل من سهل على المعلم ان يفهم التلميذ مسألةً نحوية او حسابيـة . « اجل سهل ويسير هذا ، اما ان تساعد النفس الحديثة ان توفر وتزيد قوتها ، ان تبعث في صاحبها روح الامل والرجاء والاجتهاد ، ان تنفخ في رماد الاهمال تلك الجمرات التي استودعته اياها الطبيعة ، فتظهر نوراً وناراً — ذلك ليس بالسهل بل هو عمل عظيم لا يأتيه الاَّ المعطون من الله » . (١)

وعلى طلبـة التهذيب — ولا اقول العلم (٢) ان يتعلموا أشياء وينسوا أخرى على حد قولهم ، تعلم السحر ولا تعمل به

وفي الاختيار بين ما يجب اتباعه و بين ما يجب الاقلاع عنـهُ

---

(١) امرسن (٢) لان العلم شيء والتهذيب آخر

مما يستفاد من الكتب ، تنحصر مقدرة المعلم على تهذيب الطالب ، ومقدرة الطالب على تهذيب نفسهِ

والتهذيب لا يقصد به اعداد محامين وقواد ، وأساتذة ، او أرباب صناعات وتجارات وعملة مجيدين لا غير بل ان صفته اللازمة انما هي انماء رجل الغد من طفل اليوم . والتهذيب التام بنظر مِلتن هو ذلك الذي يؤهلك الى اتمام كل الواجبات الشخصية الخصوصية والغيرية العمومية ، آن الحرب ، وآن السلم بكل اتقان وحذق وامانة. قال جونسن « من يتصور ان الافكار لا توجد الاَّ في الكتب وانَّ في الكتب كل الافكار ، فما هو الا متصور . فالافكار تجري مع الانهار والمجاري وتطفو على وجه البحر ، وتتكسر على شواطئهِ ، وتسكن التلول والوعور ، وتسطع مع نور الشمس ، وتنسدل طي اجنحة الظلام . فالافكار موجودة في كل اينٍ وآن . وما الطبيعة ، اذا اعتزلت الناس الا سفر ، لله من يقرأه ويفسر آياته

و « ثلاثة هي طرائق التهذيب تبتدىء الواحدة حيث تنتهي الاخرى

الأولى : قراءة الكتب وادراك معانيها

الثانية : التفكير والتأمل الشخصي في تلك الافكار والمعانى

الثالثة : محادثة الغير بها واختبار سقيمها من صحيحها ، وسليمها من فاسدها » (١)

---

(١) لوك

و بعبارات أخرى اذا قرأت فتمعَّن وتفهم . واذا خلوت بنفسك ففكّر واجترّ ما قرأت وانعم النظر فيهِ . واذا وُجدت مع احد فلاحظ بدقة ما قد تسمعهُ او تعاينهُ مما يتعلق بموضوع تلك الافكار . هذه هي الطرائق المثلى

والتهذيب هو التناسب بين القوى والمواهب الانسانيـة ، انماءً وترقية

وهو يبتدىء مع اول ادوار لحياة ، ويستمر عَلى تواليها . فالمربية او الام تكون اول مهذب للولد ، ثم الاب ، ثم المعلم ، فالاختبار والايام والتجارب . وكم من آدميّ خرج الى حيز هذا العالم ، ولم يعرف أماً ولا أباً ، ولا عرفه معلم — فاتخذ الوقت الثمين أباً ، والفرصة العزيزة أماً والايام والظروف اخواناً واعواناً ، وعاش ما عاش ، وترك هذا العالم شاكراً حامداً

فكل انسان له تهذيبان تهذيب يحدثهُ فيه الغير ، وتهذيب أهم وأجدى ، هو يحدِثهُ في نفسه

وكثيرون من رجال الدهر ، الذين يتمنى المجتهد ان يقاس ولو بقيراط من عظمتهم ، اجل عدد يذكر منهم عُرفوا ايام تلمذتهم بالبلادة وخمول الذهن ، وبالطيش وقلة الاكتراث بالدروس . ومن هؤلاء ، القائدان ولنكتن ونابوليون ، والفيلسوف الفلكي اسحق نيوتن والروائي الطائر الصيت سر وُلترسكوت ، والشاعر المعروف شريدان ، والكاتب المرّدين سوِفت وغيرهم من طبقتهم

هذه كلمة نقولها ، لا لنُطمع الكسول ونشجع الطائش ، من طلبة المدارس ونبررهما بل رجاء ان يتمسك بها ذلك المهتم بدروسه ، المستلب الساعات من مخالب الآفات ، حباً بتهذيب نفسه واستزادة علمهِ فيتشجع ويثابر على جده واجتهاده ، عالماً انهُ لا يُعدم جزاء في العالم اذا كانت تفوتهُ الجوائز في المدرسة

يتوهم البعض ان العلم مصدر الشرور ، ويعتبرون العيشة الطبيعية ام الفضيلة . وما توهمهم الا لعدم فرقهم بين حقيقة الجهل وبين البرارة وسلامة القلب فانهم يزعمون ان البارَّ سليم القلب صافي النية كالطفل في سريره ، الا ان الواقع خلاف ما يتوهمون ويزعمون . فان المرء بعد بلوغه اشده ورشده ، اذا سلبته معرفته وجدته في طور الهمجية ، لا في دور الطفولية ، وكان لك منه وحش ضارٍ بشكل انسان . هذا لان العلم هو دليل الانسان وقائده في هذا العالم ، يميل بهِ الى الخير تارة وعن الشر أخرى . ومن لا علم له ، فالشهوات والاميال الحيوانية متغلبة عليه

وخلاصة القول ان العلم للنفس كالبرارة والقداسة والطهارة — اللهمَّ ان لم يشَب ويفسد وقد يجرب السليم ويخبث الطيب

ورب علم يكون بالنسيان

نعم صعب علينا ان نتعلم ما نجهل ، ولكنهُ اصعب واصعب ان نجهل ما تعلمنا ، اذا كان مما عِلمهُ مضر وجهله انفع . فلنسهر على تهذيب ناشئتنا ، وتعليم اولادنا كل السهر لئلا ينشأ الطفل على اعوجاج

في المبادىء والاخلاق ، وهيهات ان يُقوَّم اعوجاجهُ بعد الكبر ، آخذين بقول القائل

(قد ينفع الأدب الاحداث في صغرٍ
وليس ينفع بعد الكبرة الأدبُ
ان الغصون اذا قومتها اعتدلت
ولا يلين اذا قومته الخشبُ)

ويا ايها المطالع المهذب نفسه ! اعمل عَلى استبقاء الاحسن الأفضل فقط من كل ما تقرأ في الكتب ، وتجد في الناس ، او تتلقاه من افواههم . ولا تخجل من نفسك ان ترى غيرك اعلم منك واخبر . انما اذا رأيت من نفسك القعود عن الاكتساب والاستفادة وكان لسان حالك غير

(اذا مرَّ بي يوم ولم اتخذ يداً ولم استفد علماً فماذاك من عمري)

فعند ذلك فاخجل . ولمْ نفسك ما تشاء

قال سرفتش : « ايام تلمذتي . كنت ادرس الكثير من مثائلي مكرهاً مرغماً ، لا كمن عرف ان كل ما يتعلمه لغة كان او تاريخاً او جبراً او هندسة ام غيرها سيعود عليه ببعض النفع يوماً ما . أما اليوم بعد ان قطعتُ مرحلة طويلةً من مراحل الحياة فانني انظر الى الوراء فأرى ان كل فقرة تاريخية وكل رأي فلسفي وكل قاعدة لغوية وكل عملية حسابية وبكلمة كل ما كنت محمولاً عَلى درسهِ ومطلوباً مني فهمهُ قد افادني بصفته الخاصة في ظرف من

الظروف ، اما في اثناء المطالعة او في المعاملات والتخاطب او في الكتابة او في غير هذه من المجاريات اليومية . » فليعتبرنَّ المتأففون من طلبة العلم المتذمرون من درس ما لا يوافق اذواقهم تمام الموافقة . فان تكلف الصعب وفعل المطلوب لمجرد كونه مطلوباً يكسب الفاعل قوة يفتقر اليها في اغلب الاحايين . وما تلك الا قوة الارادة

ارحم الوقت ترحم نفسك. فاذا اردت ان تدرس شيئاً فانصبَّ عليهِ انصباباً واجمع كل قواك قوى عقلك ووجدانك جميعاً حوله . فلا يكون الا القليل الاّ وقد درستهُ كما يجب . والا كنت قاتلاً للوقت خادعاً لنفسك . ولا تكن ممن لسان حالهم قول القائل او مماثله

(لا تكلفني القراءة اني مغرم في هوى الغزال النفور
فاذا ما فتحت يوماً كتاباً طاف طيف الحبيب السطور)

الفصل التاسع

الأَصدقاء والأَعداء

الجهالة في تكثير الاصدقاء — صديق جاهل اضر من عدو — يوناثان وداود — قداسة الصداقة — نقائص الاصدقاء — الصديق الكثير الصراحة — الحديث — المجادلة — سوء التفاهم — الاجتماع — حب المدن — الغرباء — الانفراد — قيمة الاصدقاء — الخلو في الضوضاء — الكلمة اللطيفة — الهدايا — حضور الاصدقاء — الحب — الحسد

يُعنى بعض الناس ويهتمون لتكثير أعدائهم ، ويا لهما من مهمة وعناء في غير محلهما . ويا لسرعة ما يتكاثر الاعداء من تلقاء ذواتهم ولا شك ان عدوًّا عاقلاً خير من صديق جاهل . ولكن العداوة قلما تعود بعائدة نفع ، وغالباً ما تكون مجلبة للمضرة . فضلاً عن ذلك ان الاعداء الذين يرجى نفعهم هم غير الذين نعاديهم نحن . ومهما يكن من الأمر فلا مراء انهم لا يخلون من منافع ، اهمها تحذيرهم لنا من سقطات وهفوات لا يحذرنا منها الأصدقاء . ومن ميزات العدو انه عدو قلباً وقالباً . وحبذا لو أخلص الصديق في صداقته اخلاص العدو في عداوته . ولا مشاحة ان الادعياء من الاصدقاء شرٌّ من الدّ الأعداء . والمشير ڤلرس لما أتى ليستأذن الملك لويس الرابع عشر بالذهاب لقيادة الجنود الفرنساوية استعطف جلالته بان « قني شرّ

أصدقائي ، فاني أستطيع ان اتقي شر اعدائي وأكفاه »

« والصديق القديم ما اشبهه بمعتّقة الدير التي يحتسيها شاربها ويقول حسبي القديم فلا تسقني جديداً » (١) ولكن كل صديق قديم كان جديداً يوماً . فاحرص على الجديد الجدير حتى تصيره قديماً

ان اجتماع النفوس المتقاربة من عظمى المسرّات . اما الوحدة والانفراد فمن التجارب الموبقة . والوحدة المكانية ليست شيئاً بجانب الوحدة الروحية النفسية . والتألم لفقد الأصدقاء دليل على بركة وجودهم. على ان من كان من محبي الطبيعة فهو مكفيٌّ مؤونة العزلة والوحشة

وليس في التاريخ ما يحرّك العواطف مثل أخبار محبة الاصدقاء . فمحبة پلايدس لأورستس التي ضربت بها الأمثال ، وعشق يوناثان لداود الذي فاق عشق النساء ، من ابهج ما سطر في صفحاته

واتخاذ الصديق الصدوق ليس بالسهل اليسير . ومن تسنى لهُ ذلك فليعلم انهُ فاز بكنز ثمين ينبغي لهُ حسن القيام عليه

والأصدقاء اذا جرّبت صدقهمُ فاشتدَّ حرصاً عليهم فالقليل همُ (٢)

بل أحلهم من صدرك محل الحياة التي لا تجازف بها ولا تبخسها قدراً . ومزدوجة هي بركة الصداقة — تضاعف الهناء وتناصف العناء. فعزّز أصدقاءك ، وساعدهم جهدك ، واتعب لهم ، ودافع عنهم ، وقف بجانبهم اذا هوجموا ، وافرح معهم اذا أفلحوا ونجحوا ، وشاطرهم الاحساس اذا ابتلوا ، وعزّهم اذا أصيبوا

---

(١) جرمي تايلر (٢) شاكسبير

والعرب يحسبون مهاجمة من ذاق ملح طعامهم مرة خيانة لا تغتفر . ومع ان الرومانيين كانوا يقولون في امثالهم ان الصداقة لا توثق عراها الاَّ بعد أكل الاردبات من الملح فمن لا تنوي معاملته كصديق فخير لك الاَّ تدعوهُ الى بيتك

ولأن نتوهم محاسن الصديق وفضائله توهماً افضل لنا من غض الطرف عن حسناته والتحديق في سيئاته . ولكن مهما حق لنا ان نأمل ونرجو من أصدقائنا فلا يجمل بنا ان ننتظر منهم ما كان ذنباً او عاراً ولا بهم ان يتطلبوا مجاراتنا لهم في مثل ذلك

ولربما صعب علينا ان نتصوَّر كم يتسنى للوضيع ان ينير حياة الآخرين . اما شاكسبير فيقول :

كمصباح ضئيل النور شق الدُّجى بضيائه وانار ليلا
كذاك قليل خير في دنانا الدنية ليس في عرفي قليلا

اما الصديق المتفرّش والكثير الصراحة عن جهل او سلامة طبع فقد يكون معرضاً الصداقة لما يؤول الى حل عُراها . اما الصديق فلا يُحجم عن الانذار والتحذير . وقد قال غلادستون « ليت شعري لو ان كل صديق يثبت بجانب صديقه ثبات العدو تجاه عدوه » . انما هذه المواقف قليلة نادرة لحسن الحظ . اما الصداقة على كل حال فيجب ان تكون عوناً للفضيلة لا مشجعاً للرذيلة

وقليلة هي المسرات التي تفوق السرور بفكر جديد . واذا تركت لذة معاشرة الاصدقاء جانباً فان مجرد تبادل الافكار معهم

فيه ما فيه من اللذة

اما المجادلة فغالباً ما تكون سيئة العواقب . وكثيراً ما تأتي نتائجها بعكس المقصود منها على خط مستقيم . وما ذلك لان العواطف تثير أثناء المحاورة وتهيج بل لان لهجة المناظر المناقض مهما رقّت ولانَت فلا تخلو من رنةٍ تقع من القلب موقع التأمّر والاهانة . زد على ذلك اننا بقدر ما نقترب من الاقتناع برأي مُناظرنا نزيد له تجهيلاً وتقبيحاً . ونفس التكلم بسلطة وعن ثقة يدل على ان المخالفة جهل وسخافة عقل . واظهار الحدة في مثل ذلك المقام ضربة قاضية . وعليه فالاقناع بالجدل نادر الامكانية . وهنا يحسن بنا ان نذكر زعم العلامة لوك ان قسماً كبيراً من الشقاقات الفلسفية تنتج عن احتمال الكلمة الواحدة معاني مختلفة

وهذا لا يصدق في المباحث العلمية فقط بل نصف الخصام في العالم ليس الاّ سوء تفاهم لا اكثر . ورب كلمة اساء السامع سمعها او فهمها او جملة تكررت على غير وجه الصحة او عبارة قيلت في معرض الهزل فحملت على محمل الجد او توبيخةٍ صدرت عن اخلاصٍ حقيقي واتخذت مأخذ الخبث والضغينة — آلت الى حل عُرى صداقات والى تمرير حياة وحياة

وكما قال غوتة الالمان بلسان احد اشخاص رواياته « وان اختي وزوجها كانا نِعم الزوجين . ولكن عوضاً عن ان يتداعبا في الكلام ويتلاعبا باساليبه كان يحاولان ان يقتع احدهما الآخر . وانما لفرط

رغبتهما في الاتفاق التام ماتا ولم يتفقا على شيء »

ولكي تأتي المعاشرة بخير ما يرجى منها . لا بدَّ معها من سلامة ذوق وتبصر وحسن رويّة . ورب متضلع من التاريخيات تعوزه كلمة يفوه بها في العلميات والفنيات . ورب آخر يلذ لك حديثهُ في المواضيع العلمية تجده عياً اذا استطرد الحديث الى موضوع تاريخي او فني

واذا تجمَّع في نفسك عدد من الاسئلة اللائقة فقليل مَن لا تسرّ بمقابلتهِ فتستجو بهُ اياها . ومن المعلوم ان كثيراً من الناس اقدر على فهم ما يسمعون وحفظه منهم على مطالعته وتفهمه لذواتهم . فقول هوراس التالي لا يصح في هـذه الحالة :

النفس اسرع ماتوءتى من النظر والعين احرص من أذن على الاثر
في العين خُبر وفي آذاننا خَبر والخبر اصدق عند النفس من خبرِ

طبع الناس على حب الاجتماع والتآلف . ولا قبل لهم بمقاومة دواعي المدينة بما فيها ومَن فيها . والنساء والرجال اخلب لالبابهم من الحيوانات والنباتات . فهم بحكم الطبع أميل الى الاجتماع منهم الى الانفراد . اما الطريقة المثلى للتمتع ببركات القرى والبراري فهي الخروج اليها بسرب من الاصحاب المتفقين اميالاً واذواقاً . ولكن اكثر الناس يحبون الاحتشاد والجمهرة . فاذا قصدوا البرية لزموا قارعة الطريق ، واجفلوا لكثرتهم اسراب الطير وجماعات الحيوانات . واذا استلفتت الازهار نظرة منهم ، مدوا اليها الايدي ، واقتطفوها جميعاً ، وما لبثوا ان رموها بازدراء . وجمال الطبيعة باحراجها وحقولها

وانهارها ، قلما يروق منهم عيناً او يسر خاطرا

والفلاسفة بل الاكثرية من الناس يُؤثرون المكاتب والمتاحف والمجالس على جميع ما سواها . ولسنا ننكر ان هذه من اعذب موارد السعادة واصفاها . وقد صدق شيشرون بقوله : « ولنضف الى هذه الامور فوائد لطف معشره الذي يرى فيهِ العلماء شعائره واذواقه . ويجدون من حديثهِ لذة وطلاوة تأخذ بمجامع القلوب . وما الذي ينقص حياةً كحياتهِ ليزيدها سعادة ؟ ان السعد نفسهُ ليعنو لدى حياة هذه مسراتها . فاذا كان السرور بمثل هذه من خيرات العقل يعد سعادة وكان هذا السرور نصيب العلماء والحكماء ، فلماذا لا نقول ان جميع هؤلاء اذاً سُعداء في نفوسهم ؟ »

وربما طالت اقامتنا مع بعض الناس وظلوا لنا بمثابة الغرباء . « والقلب يعرف مرارة نفسهِ و بفرحهِ لا يشاركه غريب » (١)

وهذا القول لا يصح في الغرباء فقط . وكم من مرة يفاجئنا بعجيب مستغرب مَن كنا نحسب اننا عرفناه تمام المعرفة وقد قال لورد هوتن

لم يزالوا كأنهم غرباء ... بعد ما طال واستطال اللقاء
كم قضينا سوية من سنين ... واتانا فيها الهنا والعناء
كم رحلنا سوية وحللنا ... وعلينا من الشهود الفضاء
فلماذا كان اللقا والتآخي ... ان يظلوا كأنهم غرباء

---

(١) امثال ١٤ — ١٠

والحياة تزيد وحشة ان نحن لم ننتبه للامر ونهتم له . وهل يجوز ان نكون

كل فرد ضاحكاً او باكياً مستقل ليس من خل مَعه
فكأن النفس في هيكلها ناسك مستعصم في صومعه

وبَلوَرْ لِيتون يضمن نفس الفكر قوله

أفكّرتَ في أنَّا على القرب ها هنا
بعيدان والافكار تفصل بيننا ؟
فجنباً الى جنبٍ جلسنا وانما
كانا ابتعدنا واغتدى الوصل بيننا (١)
وأنى لثغرينا اقتراب لقبلةٍ
وقلبك عن قلبي بعيد وما دنا

والشاعر برونن يلمع بقوله الآتي الى أولئك الذين يسكنون السنين الطويلة في منزل واحد ولا يستطيعون ان يوجدوا معاً في ناحية من نواحيهِ

ابداً ادور على جميع جهاتهِ عرصاتهِ غرفاتهِ وجناحهِ
واذا التقيت بها استحالت طائراً شق الفضاء مصفقاً بجناحهِ

ووحشة المكان وان ثقلت وطأتها على القلب ليست بشيء ازاء وحشة النفس . ومَن يحب الطبيعة حباً حقيقياً يعتزل وينفرد ولا يشعر بوحشة مطلقاً . ولا غرو فالطبيعة ام السلام والسكينة . واذا خلا الفكر وارتاح من مشاغله استفاد القلب من ذلك الخلو وتلك الراحة

---

(١) البين هنا البعد

ولا شك اننا نطلب الوحدة احياناً . والملكة ڤكتوريا لما كانت ولية العهد بعد وبُلغت وفاة الملك وليم و بشرت بارتقاء العرش البريطاني طلبت ان تخلو بنفسها ساعتين من الزمن . والوحدة تختلف باختلاف الأشخاص . وربما كانت معبداً وميناء سلام لهذا وسجناً ومحل عقاب لذاك او سماءً الواحد وجحيماً للاخر . وليس لكل انسان ان يقول مع القائل :

يا ليتني في بقعة مقفره وظل أشجار به ارتع
عن كل افعال الورى المنكره عن مكرهم والظلم لا اسمع

وتوماس أ كمبس يخبرنا :

قائل قال من بني ذا الزمان وهو قول من الحقيقة دان
غالباً ما صحبت ناسي حتى خلت نفسي أقلَّ من انسان

والشاعر شلَّر يستشهد بمثل قوله :

(وانما رجل الدنيا وواحدها)[1] يعيش لا ينتمي يوماً الى رجل

على ان قول بارناردن دي سانبيار يلوح لي أقرب الجميع الى الحقيقة — وهو : « وما حال نفس وحيدة ولو في السماء نفسها ! » ولكن أي سرور في الحياة يفوق لذة الاجتماع بمن نحب . وقد قال لابرويار : « العيش مع من نحب حسبنا وكفى » . وقد يصح مايقال من ان البعيدين عنا قد يكونون أقرب لقلوبنا من الحاضرين لدينا . وربَّ زمرة ترى نفسك في عدادها وتحسبك في عزلة

---

(١) ..... من لا يعول في الدنيا على رجل

وربَّ امرىءٍ ما بين مُبلى ومُكربِ
يعيش ولكن قلبه قلب مطربه
يجد الى الآمال سعياً ينالها
ويطلب ما يهوى ويمنى بمطلبه

« والرجل العظيم هو ذلك الذي تحدق به الألوف ولا تعكر عليه صفاءَ ، بل يظل منها كما لو كان معتزلاً منفرداً »

والحديث يجب ان يكون طبيعياً لا صنعة فيهِ ولا تكلف، وما يزينهُ الاَّ الاخلاص والحرية الفكرية . الاَّ انهُ لا يكون طليًّا الاَّ اذا عُنينا لهُ . وحسن بنا اذا أردنا الكلام ان نعرف ذوق السامع ومبلغ مداركه. وقد أتاح لي الحظ معرفة أحد علمائنا الكبار الذي رغماً عن سعة علمهِ كان عياً لا يستطيع مجاذبة اطراف الحديث مع مجالسيهِ . وكثيراً ما كان يتفق لهُ ان تنتهي المأدبة ويفرط عقد المدعوين وهو لم يفه ببنت شفة قط . ولكن يا لسعادة من ارتاب واحتار في أمر مسألة علمية واستفهمهُ اياها ، فوجدفيهِ اذ ذاك جليساً انيساً ومتكلماً فصيحاً. كان متفرداً بمقدرتهِ على الايضاح والتفسير ومن اتاهُ مرتاباً في حقيقة خرج من لدنهُ وهو على اليقين من امرها . الاَّ انهُ لم يكن ليستطيع ان يفاتح غيرهُ حديثاً أو يبدأ معهُ كلاماً . والمحادثة كالمخاصمة لا بد من اثنين يقومان بها . ولا ريب ان من الناس من يهذرون ويكثرون من الكلام ولو أقلوا ودلوا لزادوا في عيون سامعيهم اعتباراً واكراماً . وحتى المجيدون والفصحاء قد يحسن بهم السكوت أحياناً . وربَّ

صمت افصح من كلام . وربَّ فترات تزيد الحديث طلاوة وتأثيرًا

واذا كنا في هيئة مجتمعة فلنذكر ان حسن الاصغاء مضارع لحسن الالقاء في الأهمية . ومن يحسن الاستماع يستفيد من جهة ويسرّ محدثه من جهة أخرى . ولما كان الناس عموماً يحبون التكلم حباً ، كان الاصغاء لأقوالهم لطفاً وأدباً

وعجيب هو تأثير الكلام —

بينا هم يترشفون من الطرَبْ
كاسات انس في قصور من ذهب
للعود اوتار وألحان عليـ
ـها الغيد ترقص لا هموم لا كرَب
والورد والريحان فاح شذاهما
يتنعمون وما عليهم من عطب
واذا بقول ساءهم فتغيَّرت
ألوانهم والحال في الحال انقلب (١)

أجل ان ما يصفه الشاعر أشبه بما ورد في الخرافات وقصص الجن، على اننا في غنى عن الرجوع الى عصور السحر والعرافة تأييداً لما نقول . فمن منا لم يلاحظ مرة كيف ترتعد الفرائص وترتجف الاعصاب ويتزعزع العقل من مركزه وتفسد ساعة السرور فساداً لمجرَّد سماع كلمة فظة أو كلمة غيظ وغضب؟ واعتبر ذلك ايضاً بالكلمة

---

(١) هاين

الصادرة عن شعور حي وعواطف رقيقة فهي الكلمة التي تفرح قلب الكئيب وتنتشله من بحر الأحزان والالام والهواجس وتنير ما أظلم من دنياه في عينيه

كل من قرأ « سياحة المسيحي » يذكر تلك الفتاة المسماة « بلادة» واصحابها «ساذجاً » و « كسولاً » و « مدعياً » و « سخيف العقل » و « بطيئاً » و « جباناً » و « عبد أهوائهِ وشهواتهِ» و«قتيل النوم ».ولا غرو ان كثيراً من شرور العالم مصدرهُ البلادة والخمول. والسكر كثيراً ما يُقدم عليهِ حباً بالتهيج وتخلصاً من القنوط والخمول ولكن لماذا يخمل المرء ويقنط ويتبلَّد والحياة كلها حركة وأمل ؟ واذا كنت لم تعط ان تكون مجونياً تحسن الهزل وتسلية النفس فاغتنم فرصة الاجتماع بمن كان كذلك . ورب ضحكة خارجة من اعماق الصدر تخفف عنك وطأة يومك على شدتها . والضحك وقل القهقهة فائدة للجسم والعقل جميعاً

والصداقة لا بد معها من التكاتم والتسارر . واسرارك لك الخيار بين ان تذيعها او ان تكتمها . واما اسرار صديقك فشأنك معها غير هذا الشأن

والمرء يجب ان يكون طلق المحيا مفتوح القلب ما امكن. و بعض الناس مولعون في الكتم والاصرار على اسرار تافهة ظناً منهم انها اسرار عجيبة . وهذا خطأ مبين على انهُ لا يُنكر ان هنالك اموراً يجب كتمانها عن الآخرين خشية ان ينشروها بين الملاء جميعاً ولو

خلت نياتهم من السوء وتعمد الخيانة فان كثيراً من الناس يشق عليهم ان يكتموا سرًّا رغماً عن رقة شعورهم وسلامة طواياهم

والمثل الفرنساوي يقول : « لا أثقل من سر والله حامله » . ولله درّ شاكسبير القائل :

القول سهل كالهواء وجوده وكملتقى العنقا لقا الخل الوفي

واذا كنت تعجز عن كتمان سرّك في صدرك فمن الجهل ان تنتظر كتمانه من سواك

وكثيراً ما يأتي الشقاق وسوء التفاهم عن طريق النميمة ونقل الكلام . وربما انكر المتهم انهُ استغاب ووشى ولكن قلما يقبل انكاره واعتذاره . وكم من رسالة يبلغها الرسول على غير وجه الصحة وتقع التبعة على صاحبها ويسلم الرسول من عواقبها . ولنذكر تلك اللعبة التي فيها يهمس احد الجلوس جملة في اذن جاره . . . . فيعيدها الاخير على مسمع الجميع واذا بها مختلفة عما همس به الاول اختلافاً يستدعي الدهشة والضحك . ورب شهود عيون لحادثة من الحوادث يختلفون كل الاختلاف في وصفها رغماً عن اتفاقهم على توخي الصدق والحقيقة .

فما بالنا اذاً لا ننظر الى ما يقال في ظهورنا نظرة تأنٍ وتؤدة ولماذا تُرانا لا نقبل للمتهم بالقدح فينا وباغتيابنا عذراً ولا برهاناً ؟ وقد قيل

(واقبل معاذير من يأتيك معتذراً
ان برَّ عندك في ما قال او كذبا)

والخصام حمق وجهالة ولا سيما اذا قام على غير سبب موجب لهُ. فلماذا نخاصم من يظهر لنا براءتهُ من اغتيابنا ؟ الا نكون بذلك ظالميهِ؟ بل واذا ثبت لديك انهُ اغتابك فقد يكون انكارهُ من باب النسيان لا غير ومن ثم فعفوك عنهُ كرماً وحلماً وصفحك عن ذنبه اليك يعد لك فضلاً وهو الافضل

قرأنا في الكتاب ان فلس الارملة النحاسي يعتبر اكبر قيمة من « وزنات » الأغنياء الذهبية ، لان قيمة العطية الحقيقية ، انما هي الروح التي تُعطى بها . ولسنا لننظر الى مقدار المال ، حتى ولا الى منافعه ، بل الى العاطفة التي تبعث على الجود بهِ

نِعم الحبيبُ وقد اتتـ ـهُ هدية من حِبّهِ
من ليس يعبأ بالهدّيـ ـة عُبئَهُ في حبّهِ

ورُبَّ خصلة من الشعر يحرص عليها الحرص على مُلك عظيم ...

وأصدقاؤنا ابداً معنا اذا كنا كالقائل :

وأذكرها اذا ما الشمس أرخت حبال النور من أفق البحار
وأذكرها اذا ما النهر القت عليهِ نورها درر الدراري
وأسمعها وصوت الموج سار الى قمم الجبال مع السواري
وأصمت سامعاً إما وحيداً أتيت الغاب..ياحلو اذكاري (١)

ولما كانت أعمال الانسان سريعة الزوال والاضمحلال ، فلا بدّ لنا من أناس نحبهم ويحبوننا . لانهُ متى نُفيت المحبة والعواطف

(١) غوتة

من صدورنا لا تلبث السعادة ان تهجرنا وتقصد منفاها » [١]

وللصداقة أوقات مقدسة تُسبّح فيها . وأمسية الشتاء رائقة صافية لكثير منا كأمسية الصيف او اكثر

أضرموا النار واقفلوا الابوابا
واجلسوا بعضنا لبعض قريبا
غابت الشمس . أسدلوا ذا الحجابا [٢]
ان للبرد في الجسوم دبيبا
إي ! وأعلوا عمود نارٍ سحابا
آن للعيش ساعة ان يطيبا
وبصافي الكؤوس ذوقوا شرابا
مفرحاً للعقول ليس سلوبا
فالمسا يا صحاب عاد وآبا
ولنرحّب بعوده ترحيبا

وانهُ ليسعنا ان نكثر الاصدقاء ما شئنا وما أحبت قلوبنا . وقد قال افلاطون «ما اعظم المحبة . فملكتها تشمل كل شيءٍ إلاهيًّا كان أم بشرياً. والمحبة هي أم الفضيلة في الحياة ، وأم السعادة بعد الموت » ذلك لان العقل محدود ، اما عاطفة المحبة فلا تعرف حدًّا ولا نهاية

ومع ان الصداقة هي محوَر كلامنا الآن ، فاني لا أتمالك من ذكر « الحب » لأنهُ اعظم لذة يفوز بها الانسان . وسماوية هي

---

(١) شيشرون (٢) المراد « الستارة » تقي من البرد

الملاذ الموسيقيـة اما سير . ت . برون فيقول « ان في جمال « رب العشق » [١] ونغماته الخفية لشجىً ورقة لا يوقّعـان على آلة » . ولا ننكر ان سهام « رب العشق » اللطيفة قد تكون أذرع فتكاً من حراب «الاه الحرب» [٢] . اما بايكون فلم يعدل في قوله «ان الحب « بنت الماء » [٣] تارة و « الاه الغيظ » [٤] اخرى »

واليك أمنية عمر الخيام احد شعراء الفرس :

أديوان أشعارٍ وقربة خمرةٍ وكسرة خبز تحت غصنٍ مظلل ✕
وانت بقربي تنشدين فتطربى وما القفرُ فردوس به الهم ينجلي

الاّ أنهُ لا يجوز ان يُجازف بالحب و يوهب على غير رويّة و بصيرة

وقد قال مكدونلد

أن همتَ في حب ومتّ قتيله خير من العمر الطويل بدونهِ
ولأن تحب وتنتهي وتصدني خير لو انك ما وجدت بكونهِ

وقد جمع شا كسبير جلّ علائق الانسان باخيه في نصيحتهِ هذه المأثورة

حُب الجميع وثق ببعض منهمُ واحذر فلا تدني المضرّة من أحد
وعلى حياتك والصديق كليهما فاسهر وعش أقوى من الضد الألد

وهو يحذرنا و يعيذنا من الحسد ، ذلك الوحش الضاري ، ذي العينين الخضراوين الذي افترس كثيرين من امثال او تلّو . والحسد اكثر ما يكون بدون داعٍ ولا سبب . وكقوله :

---

(١) Cupid (٢) Mars (٣) Siren (٤) Fury

تخذ الحسود من الغبار تلولا ورأى كثيراً ما نراه قليلا
والواهيات من الدلائل عنده أُوحي بها أو أنزلت تنزيلا

ومَن لا ثقة لك فيــه فلا تتخذه لك صديقاً . اما اذا اتخذتهُ صديقاً فثق بهِ وثوقاً

ولكن مهما كان من أمر الصديق وخيره والعدو وضيره ، فان اعدى اعدائك وأصدق اصدقائك انما هو « نفسك »

الفصل العاشر

المال

قدر المال فوق قدره — التمتع بما لا نملك — الحذر الاولى ليس من « المال » بل من « حب المال » — الجود غير مقصور على الاغنياء — فلس الارملة — الوقت أثمن من الذهب — الأثمن لا يشرى ولا يباع ولا يسرق وهو الافضل — ثروة الامة — الاقتصاد — المضاربة والطمع — المقامرة — انرجال تخلق المال . والمال لا يخلق الرجال

كلٌّ يعد ملاذ الفنون والعلوم والأدب والموسيقى بين ملاذ الحياة العظمى ، وكل يعلم ان المال لا ينقص فيها ولا يزيد . والتماثيل والرسوم يتمتع بجمالها الفنيّ الذي يتأملها كالغنيّ الذي يملكها ، بل اكثر . « وليس للمالك الاّ ما نظرت عيناه »

وأرباب الملايين قلما يخلو فكرهم الخلو المطلوب لاجل قَدْر ملذّة العلم قدرها . ومَن هام في غرام الأدب ففراغ الوقت يعوزه اكثر من الدراهم . ذلك لان أنفس الكتب ارخصها . وأجرة يوم واحد تشتري لك ما قد تستغرق سنتك بمطالعتهِ . والمكتبة الكبيرة مُلكٌ هو خير الاملاك . اما خيراتها فتدرّ على المطالع المنعكف على قراءة مجلداتها ، لا على صاحبها الذي ربما كان نصيبهُ منها الاعجاب بزخرفة الكتب وتأمل حسن تجليدها . واذا اتفق ان كان صاحب

المكتبة من أهل السياسة ، او من اصحاب المناصب العالية ، أو من ارباب الثروة الشديدي الاهتمام باموالهم ، فقليل ما يتيسر له من الوقت للمطالعة

وبالجملة اننا نقدِر الغنى فوق ما يستحق . ودليلنا على ذلك اقوالنا المتداولة في مَن رُزىء بماله « تلفت حاله وساء مآله » وما أشبه . والصفات ابداً أفضل من البحبوحة والترف في المعيشة . وهوراس عبر عن رأي اهل رومية عامّةً اذ قال « المال سلطان يمنح القوة » . وعند الفرنساويين سار المثل « ذلك حسن وجميل ، اما الذهب فافضل »

فمن جرّاء فرط المبالغة والمغالاة في تقدير فوائد المال ، اصبح مجرد الشوق الى وجه الاصفر الرنان مضراً كوصاله • ورب وصال يَحسن بدءًا ويسوء عقبىً . بل ربما فاز صاحب هذا الشوق بوصال محبوبهِ ، وحَظر على نفسهِ التمتع بهِ خيفة ان يجنوه او يصده فيفقده . والكتاب لا ينذرنا من « المال » كما ينذرنا من « حب المال وعبادتهِ » وخطر المال يتأتى من ناحيتين . فأولاً انهُ ينمي ذلك الحب ويزيده وثانياً انهُ يغرُّ صاحبهِ فيسرف بهِ ويسيء استعماله بان ينفقهُ في المضرّ ويحبسهُ عن النافع : وهاك وداع هارپاكون [1] لدراهمهِ المسروقة : « اين أنت يا مالي العزيز ؟ أواه قد ذهبوا بصديقي الصدوق — حرموني اياه حرماناً ، ولم يهجرني هجراناً — ذهب ذهبي ولن

(١) بطل رواية البخيل لموليير

يعود . سلبوني دراهمي بل اعواني وتعزيتي وافراحي – قضيَ الامر . فليقض عليّ كما قضيَ عليها . اذ ليس لي بمد فقد دراهمي من مرام في هذه الدنيا »

يقولون « الوقت ذهبٌ » . والحق ان الوقت اثمن من الذهب . والناس جميعهم واحد باعتبار الوقت . فليس لاحد منا اكثر من اربع وعشرين ساعة في يومه . واحرِ بمن ينام ثماني ساعات كل يوم ان يحسب نفسهُ عظيماً كاعظم السلاطين وغنياً كأرباب الملايين . بل انهُ احسن من هؤلاء حالا ، لانهُ اكثر اتعاباً واقل شواغل فهو ينام نوماً الذّ من نومهم بكثير . ثم احسب ساعتين او ثلاثاً للأكل والشرب ومهامهما . والجوع أحسن مقبّلٍ كما نعلم بالاختبار . والعامل الشغّيل يلذّ له طعامهُ كائناً نوعهُ ما كان . ثم ان الانسان يحب امرأتهُ وأولاده . والوقت الذي يُصرف معها ومعهم ، فيهِ لذوي العواطف من العمال ، نفس ما فيهِ لذوي العظمة من الملوك . بقي ان نحسب ساعتين أيضاً للرياضة البدنية ولبس الثياب ونزعها الخ ، والغني والفقير في هذه الاحوال على حدٍّ سواء . ولم يبق الاّ ساعات الشغل الثماني أو العشر . والشغل العقلي اتعب من الجسدي كما لا يخفى وهل هو اوفر لذةً يا ترى ؟ ومَن يقرأ منشور المحكمة او يتصفَّح الجرائد الاميركية اشك في كونهُ يرضى بمنصب « رئيس جمهورية » بدلاً من مهنة نجار او بناء . وربما كانت الاعمال العقلية اوفر لذةً من الجسدية في احوال شتى ، انما لا يصح القول انها دائماً كذلك . اما المسؤولية

والعناء فلا شك انهما في الاولى اشدّ منهما في الثانية

ومهما يكن مما مرّ . فليس للغني والقويّ في ثلثي زمنهما وان شئت فقل في ثلثي حياتهما ادنى صفة يمتازان بها على الفقير . واما الثلث الباقي فالحكم فيه عرضة للنقض والابرام

يُقال احياناً ان لذة الإعطاء والتكرم من اعظم ملاذ الغنى واطهرها، وهذا صحيح . ولكن الفقير ايضاً يتسنى له ان يجود ويسخو وفلس الارملة يُساوي دينار الغنيّ من هذا القبيل . فالفرق بين الغني والفقير من هذه الوجهة اقل من قليل . « لا يستطيع المرء ان يملك الا قسماً صغيراً من العالم . ولكنهُ يستطيع ان يتركه بأسره ويتخلى عنهُ جميعاً » (١) وكما قال امفيون مرة وهو يتمشى في الاسواق « ما اكثر الاشياء التي اريدها مع اني لا حاجة بي اليها » . اما من حيث الشعور مع الغير والرفق بهم ، وهذان اسمى العواطف واثمن من المال، فالفقير كالغني واكثر . فالدراهم ليست غنىً حقيقياً

وكم ممن نحسبهم فقراء وضعفاء مَن هم في الحقيقة اغنياء ، اذ عندهم من العزة والشرف والمبادئ القويمة ما يحمل على اكرامهم اكرام ذوي الملايين تماماً . والشيء الاثمن هو بالحقيقة مالا يُباع ولا يُشرى . الغنى « اباطيل مزخرفة مطلية ومفاخر فارغة كفقاقيع الهواء » . (٢) والمثل العربي يقول « غنى المرء انما هو العمل الذي يأتيه في هذه الدنيا . وبعد موتهِ يسأل الناس اي ميراث خلف ، اما

---

(١) نيكول (٢) تراهرن

الملائكة فتسأل عن الصالحات التي ارسل بها الى آخرته من أُولاه »

وما بال الناس يفدون الثروة بالحياة فيسعون في سبيلها مضحين صحة ابدانهم وراحة فكرهم والقسم الاكبر من وقتهم ؟ ومتى كان قنطار المال يساوي نقطة حياة ؟ اما السعادة فلا تباع ولا تشرى . وأهم موجودات الدنيا هواء نقي وماء صاف وطعام صالح وعافية جيدة وضمير مرتاح . والمليونيّ ليس لهُ ان يتمتع بهذه البركات اكثر من العامل المسكين

وشر ما في الدنيا الألم والاضطراب والهمّ والخطيئة ، وهذه لا ينتفي وجودها بمجرَّد وجود المال . بل ربما كان المال مجلبة لها جميعاً . « يُنزل الله الامطار ، ويطلع الانوار ، على الأبرار وغير الأبرار . الاَّ انهُ لا يمطر مالاً ولا يطلع فضيلة على جميع الناس بالتساوي . فالمنافع العمومية يشترك بها الجميع ، اما الخصوصية فلا ينال منها الاَّ الأخيار » (١) . « والقصر الفخيم مظهر من مظاهر العزَّة والمجد اللهمَّ ان كان ساكنهُ عزيزاً شريفاً » (٢)

وما يصدق على الافراد يصدق على الامم ايضاً . فغنى الأمة الحقيقي ليس بالفضة والذهب في خزائنها ، بل بعدد الصالحين والاصحاء والسعداء من ابنائها . والامة كالفرد اذا عرضت ذاتها للهلاك والدمار هلكت وانقرضت . وكأني بالكثيرين يتصوَّرون ان غنى الأمة لا يُمس بنقصان . وهو عظيم حقيقة ، الاّ انهُ كغنى الفرد

---

(١) بايكون (٢) شيشرون

المعين المحدود . ولسوء الحظ قليل من ينتبه لهذه الحقيقة . وكل بلاد تقتصد اذا حلَّت بها الأزمة وضرب فيها الفقر اطنابه. اما الأمة الحكيمة فهي المقتصدة حتى في ايام سعدها وأوج علائها. فهل امتنا امة حكيمة؟ اني لأشك في الأمر وارتاب. وقد سبق دانيال دِفُو فقال «الاقتصاد ليس فضيلة انكليزية». والغنى بدون حكمة معدن لا قيمة لهُ مطلقاً. واليك قطعة من أمثال الملك ألفرد تشير الى ما نحن بصدده. «هكذا يقول ألفرد . لا قيمة للمال بدون الحكمة . لانه ولو كان لانسان سبعون فداناً من الارض ، وزرعها ذهباً احمر ، فما ذلك الذهب كما ينمو العشب ، ظل الغنى عنهُ بعيداً وغريباً لا يعرف له وجهاً . وما الذهب الاّ الحجر الاَّ اذا كان في يد الحكيم العاقل»

ولقد عبد الاسرائيليون من الاوثان اشكالاً وانواعاً، اما العجل الذهبي فكان ادعاها جميعاً للسخط السماوي على قوم موسى

وفائدة المال الذاتية انما هي كفوءٌ مؤونة الاهتمام والعناء للحصول عليه ولكن اذا كانت النتيجة اننا كلما فزنا بشيءٍ منهُ زدنا اهتماماً واضطراباً فتباً لها من نتيجة . والمال تجربة عظيمة. يغر المرء ، ويزين لهُ التمرُّغ في اوحال الملاذ الباطلة . وكثيراً ما يبلغ الغرور بالأغنياء مبلغ ان يعتبروا الفقراء كالرصيف يدوسونهُ . اما الفقر فكل ما يلزم معهُ فضيلتان — هما الاجتهاد والصبر . والرجل الموسر اذا خلا من سجايا الاحسان والاعتدال وحسن التدبير كان ابداً رهن الخطر والهلاك . والتاريخ يفيدنا جلياً كم من الأخطار تحدق بالقوي والغني .

والملك سليمان ختم حياته زنيماً كئيباً . والبعض من ملوك الرومان احسنوا ابتداء حياتهم وشبوا على الاستقامة ، الاَّ انهم ما ارتقوا عروشهم حتى تبدَّلت احوالهم ووخم ما لهم . ونبوليون ايضاً مات ميتة المتناهي في حب الذات

يشبّه فنلون من يضحي نفسه في سبيل الثروة والمجد بمن يركب مركبة زاهية فاخرة رغماً عن علمهِ انها سترمي بهِ من اعلى هوة عميقة الى أسفلها . وفنلون لم يكن ليحتقر الاقتصاد المعقول على ما أرجح . ورب ذي بصيرة يُبصر ، وذي بصر لا يتبصر

اذا كنت في ايام شبابك تشتري ما لا حاجة بك اليه ، فستضطر بعد المشيب الى بيع ما لا غنى لك عنهُ . فالحكمة تقضي بان نعيش في شبابنا بحيث نكون في مشيبنا احراراً من ربقة الدَّين وكل قيد مالي . واذا حسن بك ان تنفق من نتيجة الامس ، فما هو بالحسن ان تصرف مدخول اليوم الذي انت فيهِ . فكيف بمن يُنفق نتيجة غدهِ قبل الحصول عليها ! فلا حرَج اذاً ان قلنا ان مُسرِف اليوم شحاذ الغد

يقال ان ربلايس أوصى بما يأتي ساعة موتهِ « ديوني كثيرة . لست املك شيئاً . والباقي أتركهُ للفقراء »

واذا تعاطيت التجارة فلا تتعجلنَّ الاثراء ولا تضارب مغتراً بعظيم الارباح والمقامرة اياً كان نوعها فالخراب والدمار نهاية امرها . اما الأرباح الخفيفة فهي التي تصير الكيس ثقيلاً . ولا تنسَ في ايام النعمة والتوفيق ان ايام البؤس قادمة اليك . واذا احل النحس بايامه فذكرى

ايام السعد خير عزاء ، وانتظار عودتها خير رجاء

واعتبر ايضاً باصحاب الاراضي والاملاك الواسعة . وكثيرون من ابناء وطننا يقضون الاشهر بطولها وهم ينتظرون بذاهب الصبر ان يمضوا شهراً او شهرين في بلاد سويسرا على شاطىء البحر او سطحه ، ولا يخطر ببالهم مرة ان تلك الجبال والسواحل والأمواج ليست لهم ملكاً شرعياً . فامتلاك الاحراج والحقول والانهار ، ربما عاد علينا بدخل يذكر ، ولكن هذا لا يزيد شيئاً في لذة مرآها والعيش فيها وعاشق الطبيعة يبتهج بمنظر الجلد نهاراً ، والقمر والنجوم ليلاً ، و بشروق الشمس صباحاً وغروبها مساءً . وُملك من هذه يا ترى ؟

واذا كان المضيف يمتاز عن ضيوفهِ بشيءٍ فما هو الاَّ انهُ المضيف وهم الضيوف ، ولا فرق بينهُ و بينهم في الوان الطعام واشكاله . والفقير يلذ لهُ زادهُ البسيط اكثر مما يلذ للتاجر طعامه المتقن . ولما كان آدم وحواء في فردوس النعيم ، نعم كانت تنقصهم وسائل البذخ والشرف الاَّ ان عذابهما لم يكن الاّ من شوقهما الى جني ثمر المعرفة قبل اوانه

والأموال تزيد الناس عناءً واهتماماً بخلاف الفقر . او كما يقول المثل الافرنسي « مال قليل اهتمام قليل » . والاموال بركات اللهمَّ على المحسن القيام عليها . فهي عبيد الحكماء ، وظلَمة الجهلاء . والسلاسل سلاسل ولو صيغت من ذهب . اما الطماع فلا يعرف الشبع . وكنوز العالم باسرهِ لا تسعد بخيلاً طماعاً

قال بايكون « عندي ان المال للفضيلة ليس الاَّ بمنزل « الارزاق »

للجيش . فلا بد لهُ من المؤونة اذا زحف ولو انها تؤخرهُ وتعيقهُ زحفاً وتبدد قوتهُ كرًّا وفرًّا . والمال ان جمع فنفعه في تفريقه . وما حُجر عليه وحبس في الخزينة فسرقة مخفية لا اكثر »

لما قيل لآجس ان بعض المساكين يحسدونهُ على ثروته وماله، اجاب « اذاً امتعاضهم امتعاضان — الواحد من فقرهم والثاني من نعيمي » وما أغناهم عن الثاني . . .

سئل مرة ثيوستكليس عن رأيه في أي أفضل — تزويج الأب ابنته برجلٍ رجلٍ الاَّ انهُ فقير ، أم بغني أقل منهُ شيمة ورجولية . فاجاب « لعمري اني بلا ريب افضل تزوّج الفتاة برجل لا مال لهُ على تزوجها بمال لا رجولية معهُ »

الفصل الحادي عشر

الخوف من الطبيعة

الخوف من الطبيعة — المذنبات والخسوفات — آلهة الوثنيين — السحر — المتوحشون — الرومان — فالنسية — النجوم والسيارات — الارواح — عدم الاكتراث بالطبيعة — مدام دي ستايل — كولد سمث — جونسن — تنسون وقساوة الطبيعة — الموت — العلم والطبيعة

كثيرون منا يعجبون بالطبيعة ويحبونها ويعترفون بفضلها، وكثيرون لسوء حظهم لا غير، لا يعبأون بها ولا يكترثون لها. بيد انهُ يشق علينا نحن ابناء القرن العشرين ان نتصوَّر معظم الرهب من الطبيعة الذي كان مستولياً على بني العصور الخالية، ولا يزال سائداً على المتأخرين من الشعوب المعاصرة. ففي تلك الازمان لم تكن المذنبات والخسوفات والكسوفات وحدها مما كانوا يحسبونهُ إنذاراً بالشر ودلالة على الغضب الالاهي السماوي، بل مظاهر طبيعةٌ أقل من هذه شأناً كانت توحي اليهم مثل ذلك وتلقي الرعب في قلوبهم. فاذا دوى الرعد قالوا صوت المشتري او هبَّت الانواء وهاجت الامواج فسخط نبتون. على ان الشك الذي كان يخالج نفوسهم في مزاعمهم كان أدعى لخوفهم من تلك المزاعم نفسها

والمتوحش يفسر الحركة بالحياة . فيعبد الحجارة والجبال والنار والماء لزعمه ان هذه الجوامد تكتم ضغينة ضد بعض الناس لما فرط منهم. وفي جزيرة نكوفر جبل يتحاشى السكان ذكر اسمه خيفة من انهُ يغرقهم في قرار البحر اذا فعلوا

والهمج لا يزال يعتقد في السحر والعرافة ، وكذلك غير المهذَّب من بني الحضارة ايضاً . ففي عموم نواحي اوستراليا وعند بعض القبائل البرازيلية ، وفي بعض جهات افريقية ، يُعتبر الموت الطبيعي امراً مستحيلاً . وفي جزائر هبريد الجديدة اذا مرض انسان عرف ان ساحراً ما يحرق متلفاته ، فاجتمع ذووهُ ينفخون في ابواق صدفية تسمع لأميال ، اشارة للسحرة ان يتوقفوا عن عملهم ريثما يؤتون بالتقدمات والهدايا

والقبائل المتوحشة تخاف الصوَر والرسوم خوفاً شديداً . فلا يرضى الواحد منهم ان يُرسم مطلقاً لزعمه ان راسمه يتسلط عليهِ و يصير ولي امره . « وكاين » تخلص مرة من زمرة من الهنود تعلقت باذياله بقوله « ارسمكم الاَّ ما ذهبتم » . وقد ذكرتُ في كتابي « أصل المدنية » الخطر الشديد الذي أحدق بكاتلين على أثر رسمه جهة واحدة من وجه أمير قبيلة لظن قومه انهُ سرق نصف وجه الأمير . والناس يتوهمون ايضاً ان هنالك علاقة عجيبة بين خصلة الشعر و بين صاحبها والسحرة في انحاء المعمور المختلفة اذا تحصلوا على شعرات من رؤُوس اعدائهم ، او على قلامات من اظافرهم ، او على بقايا من طعامهم ،

ظنوا ان كل ضرر يحدثونه بها يمس اصحابها لا محالة . بل حتى القطعة من ثوب وآثار القدم من طريق تستخدم لهذا القصد احياناً . وعند بعض القبائل مجرد معرفة الاسم يخوّل المرء سلطة على صاحبهِ

وهنود كولمبيا البريطانية يحذرون شديد الحذر من ذكر اسمائهم والتصريح بها للجميع . فهم يُعرفون بالقابهم الا عند الاهل والاقرباء والاعزاء من الاصدقاء . فاسم الفتاة التي اشتهرت بجمالها ولقبت La Belle Sauvage لم يكن Pocahontas بل Matokes الآان عشيرتها اخفت اسمها الحقيقي عن الانكليز . وحسبما قال وارْد ، تصريح الامرأة باسم زوجها يُعدّ جريمة لا تغتفر في بعض جهات الهند . وذكر اسماء الموتى محظور لا يُتصدّى له في كثير من اقطار المعمور كشمالي أميركا وجنوبيها وسيبيريا وأوستراليا وشتلاندا . وفي شتلاندا تحذر الارامل شديداً من ذكر ازواجهنّ بشيء . فالمتوحشون يرون ذواتهم أبداً عرضة للممات بسبب من الاسباب التي تخفاهم . ولا غرو ان قلنا ان خوف المجهول أشبه بسحابة سوداء مكدّرة لكل صفاء . وعليهِ فالعذابات الفكرية التي يتحملونها والآلام الشديدة التي يقاسونها والذنوب التي يرتكبونها ليست الا سويداء بالغة اقصاها

والخوف من القوى الطبيعية لم ينحصر في المتوحشين وحدهم « فالرومان مثلا كانوا يشعرون بهزة خوف لدى كل مجهول يعرض لهم فكانوا من اجل ذلك يدّعون وجود أشياء غير معقولة الوجود يعتبرونها بمقام الآلهة . اما اليونان فانهم بعكس الرومان اجتلوا الغامض وفسروا

المجهول ، فابتدعوا تلك الخرافات والحكايا وضمنوها علائق الاحياء بالطبيعة » (١)

ويقال ان اسم رومية الحقيقي كان «ڤالنسية» الاَّ انهُ لم يصرّح بهِ خوفاً من سحرة الاعداء وعرَّافيهم . وڤالريوس سورانوس الذي باح بالسر حُكم عليهِ وأعدم اعدام الخائن

وحتى الآونة الأخيرة ظلت النجوم والسيارات تُعتبر ذوات تأثير عجيب وسيئ على البشر لا قِبَل لهم بردّهِ عن نفوسهم

وفي الأجيال المتوسطة كانوا يعتبرون الايذاء والإِثار وتعمُّد الشر من صفات الارواح حتى الجميلات منهنَّ كزهرة تنهوصر التي كانت مجلبة للخطر بجمالها . اما الجبال والغابات والبحيرات والبحار فكانت لهم مسكن الوحوش والجبابرة والغيلان والسحرة والشياطين . وهذه المخاوف مع انها وهمية لا اكثر كانت تؤثر على افكار القوم كما لو كانت حقيقية تماماً . ومن جملة الاوهام التي سادت على عقول الناس في العصور المظلمة اعتقادهم انهُ اذا ذُوّب خاتم شمعي منقوش عليهِ اسم صاحبهِ اصبح هو ايضاً عرضة للهلاك . ولكن نور العلم الساطع اليوم قد بدَّد ظلمات الجهل وقضى على هذه الأوهام قضاءً مبرماً

ومع ان مناظر الجبال اليوم تستنفد اعجابنا وابتهاجنا ، فقد كانت مصدر الرعب والخوف لأجدادنا السالفين . وليوناردو بروني يقول

---

(١) هايكل

في سياق الكلام عن سياحتهِ في ارلبرج « رهبة بل خشية كانت تعتريني كلما نظرت الى تلك الجبال الشامخة والصخور الشاهقة. وحتى الآن لا أزال اذكرها والخوف ملءُ نفسي » . واليك طلبة راهب من كنتربري قالها عند ما عبر سانت برنارد ذاهباً الى رومية (سنة ١١٨٨) « ردَّني اللهمَّ الى ما بين اخواني فاوصيهم الاَّ يمرُّوا بهذا المكان فيذقوا عذابي »

والقدماء قلَّ ما كانوا يعرفون قيمة المناظر الطبيعية اذا هم سلموا من خوفها . فالازهار والاشجار والجبال لم تكن في عيونهم الا اشياء مألوفة الوجود لا اكثر

قيل أُخذت مدام دي ستايل الى محل اسمه شاموني وما كادت تصل حتى قفلت راجعة وهي تتساءل . « أي ذنب جنيتهُ في حياتي فجوزيتُ بزيارة هذه البلاد المخيفة! ». ويروى انها قالت مرة لمحدّث « انني لا أسوم نفسي مشقة فتح النافذة لأشرف على خليج نابولي مع اني بكل سرور أسافر مسافة ١٥٠٠ ميل لأسرَّ بمحادثة رجل كبير ولو لم تسبق لي معرفتهُ »

ذكر نيكول الكاتب الفرنساوي في احدى « مقالاته الادبية » انهُ ليس من ينشئ جنينة بقصد التمتع بمنظرها . فالناس ينشئون الجنائن والحدائق لأجل المظهر والابَّهة لاغير

وكولد سمث فضل مناظر هولاندا على مناظر اسكوتلاندا متذمراً من كثرة الصخور والجبال في الأخيرة ، لانها تصد نظر المسافر

وتقف في سبيل طرفهِ فلا يسرح

والدكتور جونسن عدّ الطريق الى انكلترا اجمل منظر في سكوتلاندا

قال كلبن في مصنَّفه عن جبال كمبرلند وبحيراتها (١٧٨٨) : « بالحق قيل عن بحيرة وندر مير انها ذات الجمال في حضن الرهبة . اما الجبال التي توءلم الطرف بقممها ورؤوسها المخالفة لجمال البساطة والعظمة، فاذا شوهدت من بعيد فقدت تلك الضخامة والعيوب جميعاً وا كتست من الجمال ثوباً قشيباً لا يُعهد لها »

اما إذا أردنا ان نشعر بجمال الجبال الحقيقي فلا يكفي ان نعجب بها اعجاب شاعر، بل يلزمنا ان نعرفها معرفة عالم ايضاً . وقد قال ثيوبالد « لا نزال نجهل ماهية الجبال حتى يتجلّى لنا تركيبها الداخلي تجلّيَ البلور للعيان »

وكم من الناس مَن يغضون الطرف او يغمضونهُ عوضاً عن ان يميلوا بهِ ذات اليمين وذات اليسار فيعيشون ولهم عيون وكأنهم لا يبصرون . فمثلهم مثل « بيتر بَلّ » :

كم تمشى ما بين سهل وتل ومجارٍ وكم تفيأ ظلاّ
أي وادٍ ما زارهُ أي كهف ما اتاهُ عن أي غاب تخلّى
سكن الحقل والطبيعة لكن حبها ما درى لجنبيهِ سُبلا

ولا إخال تنسون قد أصاب كعادته اذ قال : « دامية هي براثن الطبيعة ومخالبها » . وهل في الطبيعة كل هذا العذاب ! ! اني لا ارى

ذلك . والموت الفجائي الذي يدهم الحيوانات خصوصاً ليس فيهِ من العذاب ما في الداءِ العياء العضال . وحب الحياة وخوف الموت يظهران كدليل قاطع على تساوي الكفتين من ميزان السعادة في الحياة . وانا لنرتاع لوصف ميتة شنيعة من مثل القتل والشنق . الا ان كل ميتة شنيعة بالحقيقة. ولكن الموت الفجائي وهو نصيب أغلب الحيوانات أخف آلاماً وأقل عذاباً . واليك وصف لڤنستون لمعركة وقعت بينهُ وبين الأسد : « كنت على رأس تل صغير واذا بالأسد قد اعتلى كتفيَّ فانقلبنا معاً الى أسفل ، وأصبحت من حيرتي ودهشتي اشبه بالفار وقد وقع بين مخالب الهرّ . فاستغرقت في حالة سبات وحلم وبت لا اشعر بألم ولا رعب مطلقاً مع اني كنت واعياً مشاهداً لكل ما يجري بي . وبكلمة لم يجد الخوف الى قلبي سبيلاً ، فكنت اتفرس مفترسي بدون ادنى خوف او ريبة. ولعل هذه هي حالة كل الفرائس التي تُنشب فيها الأظفار وتمزَّق إرباً »

وقد وصف همبر سقوطه من محل مرتفع وقال : « كنت أعد تلك القفزات والطفرات الهوائية واحسبها غير مزعجة ولا موئلة . على انهُ لو طال بي المجال لكنت فقدت الشعور وودعت الحياة . فها أنذا الآن اعتقد ان الموت بسقطة من محل هائل الارتفاع من الميتات الأقل آلاماً من غيرها »

والموت غرقاً ايضاً من الميتات السهلة بالنسبة لغيرها . وهذا

اقولهُ عن اختبار شخصي . فاني غرقت مرة وخبرت الغرق [١]

والحيوانات لا تهتم ولا تضطرب بالاً على ما ارى فقليلة هي عذاباتها في كلا الحيـاة والموت . والعلم ما انبأنا بذلك . و بفضله قد بتنا نعرف قيمة الطبيعـة وتمتع بها . والعلم لم يقشع عن افكارنا غيوم السحر والعرافة فقط بل انار قلوبنا بحب الطبيعة حباً نحسبهُ نعمـة عظيمة

---

(١) والمعرب ايضاً غرق مرتين . فهو يؤيد المؤلف عن اختبار شخصي

الفصل الثاني عشر

حب الطبيعة

كل مهم وضروري عادي الوجود — الولوع بجمع الحشرات والازهار — المجموعة كمكتبة — مسائل الطبيعة — درس طبائع الحيوان — وصف رسكن للسنجاب · للحية · للأزهار — الجلد — الليل — كلمة في العلم — الطبيعة والجمال — الطبيعة والالوان — البحر — الاوراق في الخريف — ارضنا — يد الطبيعة والجمال — الطبيعة كصديق — الطبيعة والسلام

حبذا لو كان الربيع لا يجيء الاّ مرة في الزمان [١] والشمس لا تشرق وتغيب الاّ مرة في العام ، وقوس قزح لا يظهر الا يوماً كل مئة عام ، او لو ندرت الازهار ندور الياقوت وقطرات الندى ندور الماس — اذاً لراعنا جمالها واخذ منا الابتهاج كل مأخذ

نراها كثيراً ونأبه لها قليلاً . وهل يشينها انها اعتيادية مألوفة او اننا نُمنحها بلا مقابل ؟ على اننا اذا رضنا انفسنا على حب الجمال نزيد بها اعجاباً ولها حباً . وقد لاحظ غوتة ان الناس يحولون انظارهم عن قوس قزح اذا دام اكثر من ربع ساعة كأنهم يملون جماله . ولا خفاء ان المألوف من الاشياء افضلها واكثرها ضرورة

---

(١) الحياة

ويروقه من كل وادٍ زهره نظراً ويشجيهِ غناءُ نسيمهِ
وكانه من شمسهِ وسمائهـا يختال في فردوسهِ ونعيمـه

« ليس الجدير بالاهتمام في هذه الدنيا من الامور غير الاعتيادية »(١)

وعجيبة هي الازهار بالوانها واشكالها ، ولا بدع فالطبيعة هي اليد اليد المتفننة التي صاغتها في قالب الجمال الفاتن للبصائر والابصار

وحتى اسماء الازهار والنباتات تطرب السماع كما يروق منظرها النظر ورائحتها الشم . والوانها الجميلة من بيضاء زاهية وحمراء وردية وبنفسجية وبرتقالية تلذ للعين والاذن جميعاً . وعاشق الاغصان والاشجار اذا ضاق بهِ الزمان ذكر تنسون وقوله :

أفعمت الغابات بالألحان وقعها الطائر في الافنان
وكل ما سمعتهُ اشجـاني وما رأيت راق للعيـان
دخلتها والهم في وجداني فلم يعد للهم من مكان

زعم شيشرون ان الانسان لا يستطيع ان يشعر بجمال الجبال الا اذا كانت في وطنه فاحبها من اجله ، او اذا ألفها نظرهُ بعـد ما جاورها مدة من الزمن . واما نظر تنسون فاقرب الى الحقيقة لانهُ عشق جبالاً خارج بلاده وقال في احدها وهو « مونتا روزا »

لله واديهِ ووارف ظله ولجين ثلج قد كسا اطرافه
وأشعة ذهبيـة تُلقى على فضّيهِ . . . أعرقتمُ اوصافه ؟

---

(١) سر ولتر سكوت

والكاتب الشهير روسكن كثيراً ما يتغزَّل بجمال الطبيعة بمثل قوله : « هنالك كهف لا تضيرهُ السيول ولا الامطار وهنا جبل لم يحنِ رأسه لصاعقة ولا لعاصفة » . وحكيم هو القائل : « لنرفع بصرنا الى الجبال من حيث يأتينا العون » . والحق يقال اننا مدينون للشعراء بمثل ديننا للعلماء ، لأنهم يعلموننا حب الطبيعة وعشق جمالها. « والجبال تجود على الجداول بمائها وعلى الجو بنقي هوائها ، ولها دون هاتين منافع اعظم واسمى . فانها تروي غلة المشتاق لرؤيا صنعة يد الله وتفعم القلب والنفس ابتهاجاً واعجاباً ووقاراً . وهي المباني الفخيمة الشاهقة، تأوي اليها من الزوبعة فترحب بك وتلتجئُ الى ظلال اشجارها فتؤهل وتهلل وتسمعك حفيفاً لطيفاً وتحتفي بك ضيفاً . واذا جلت بنظرك يمنة ويسرة الفيتها مزدانة بالنقوش والرسوم وما هي الاَّ الازهار كست اطرافها بساطاً سندسياً وتركت منظرها فاتناً سحرياً (١)

وما قولنا في انسماء ؟ وحسبنا اسمها جمالاً . ومليكة النهار اذا ارتفعت بموكبها الوهاج بهرت ابصارنا واخجلت نواظرنا . وحسبنا ما نشاهد من جمالها قبلما تطفر من احشاء الظلام غزالة ، و بعد ما تنقلب من سمتها الى افقها جونةً ، وقد سقتنا من لعابها الذهبي راحاً تُسكر النفوس . اما اذا غابت وغرقت في البحر او ضلّت في غابة علمنا اذ ذاك انها هي التي تخفي عنا ملكات اخوات لها في السناء يتحجبن في النهار و يسفرنَ في المساء

---

(١) روسكن

واذا ما الظلام أرخى سدوله ... برز البدر والكواكب حوله
وانبرى كالخطيب يخبر هذي الـ ... أرض تاريخها ويحصي حؤوله
والدراري والزهر تصغي حيارى ... وبعرض الافلاك تنشر قوله (١)

وكأن الليل معهد السلام والراحة :

ألا فاجلسنْ قربي على ضفة النهر
وقد اصبحت مهداً لانوار ذا البدرِ
وهذا خرير الماء تلحين مُرضعٍ
حنونٍ تغني من شعور ومن شعر
وهذا سكون الليل حباً ببدرهِ
سكون بهِ نام الحبيب بلا ذعر (٢)

قال سانت بسيل « واذا كنت تقف بالسماء مرة وتجيل طرفك في تلك القبة الزرقاء وفي ما يزينها من درر النجوم وازهار الدراري ومواكب الكواكب وسناء السيارات وبهاء الثوابت ، ثم تفكر برافع تلك القبة ومبتدع حليّها وناظم نظامها — قلت اذا كان هذا جمال العالم المادّي الزائل فكيف بجمال عالم الخلود ! ! » وقد قيل ان السماء تظهر مجد الله وعظمته لا حنانه ورأفته . ولكنني لا اوافق على ذلك ، فانها تظهر كليهما جميعاً . « يأمر (الخالق) نسيم الصباح فيمد البساط الزمرّدي ، والسحاب فتسقي اطفال النبات في مهدها . ويلبس الاشجار من الاوراق ثوباً قشيباً ، ويكلل الاغصان في فصل الربيع بتيجان

---

(١) ادسون (٢) شاكسبير

الاثمار . وبحكمته وقدرته تحوّل النحلة عصير الازهار الى قطر الشهد ، وتبزغ النخلة من النواة وتنمو شجرة باسقة (١)

قضت عجبي تلك المناظر انما
تساءلت هل هذي هي الكون وحدها
فادركت اني لا أرى غير ما بدا
وكم خافيات لا ترى لنعدّها

اما وردسورث فلم يُجِد كعادته اذ قال : —

دعِ العلمَ خل الكتب عنك فما عسى
تضم من الاكوان في صفحاتها
وقف بي بقلب لا يضيق اذا حُبي
بأنعام دنيانا وجلِّ هباتها

ولكان أجمل بهِ لو أتى ارباب الفنون ورجال العلوم من غير هذا الباب ورماهم عن غير هذا القوس . فاننا لا نزال في شديد الحاجة الى مواصلة البحث والتنقيب توصلاً لمعرفة المحيط الذي نعيش فيه . « واما الارض بالنسبة الى الكون الاَّ بمقام المحراب من الهيكل » (٢) وما نحن الا على الاعتاب من ابواب الاكتشافات وكم علينا من مشقات بعد في سبيل معرفة الطبيعة قبلما نستطلع اسرارها . وأي حيوان أم أي نبات نحسب درس طبائعهِ لساعة من الزمن مما لا طائل تحته ؟ وانهُ ليحزنني جداً أن أرى أبناء وطني تائهين عن مورد عذب

---

(١) سعدي (٢) لامارتين

للسعادة لا يقصده الا الراغب في البحث والعلم — ولكنهم لا يعلمون

نقول ان الانسان خلق للاحزان والآلام ولكنهُ لم يُخلق للخمول والقنوط . ومَن احب العلم فقد نجا من شرّ هاتين الآفتين . ومن لم ينجُ فلومه على نفسهِ . فكل حقل وكل غابة وكل حديقة وكل جدول بل وكل حوض يسرّ ذا البصرِ ويسرّي عن نفسه . ولو عرف الناس لذة الجلوس في البرية واطراق الرأس بالتأمل والتفكير لما كانوا يُولعون بالتردد الى الحانات حيث تضيع اوقاتهم وعقولهم معاً ولو دروا ما هي الرغبة في العلم وما غرامه لما كانوا يعمدون الى المقامرة والمراهنة تهييجاً لعواطفهم ونجاةً من خمودها . والعلم لم يخرب احداً ولا اهلك احداً . وما ارفقه بمحبه واكرمه عليه . وترى في أخبار الجن ان بعض الارواح تعشق أنسياً وتغمره بهداياها وعطاياها . والطبيعة مستعدة وبكرمٍ فائق تعامل عشاقها. وفضلاً عن كونها معدن الجمال ونبعه انها مهبط الوحي والالهام . وقد قيل ان بوذا طلب الحق فاعتزل البشر وخلا بالطبيعة وتوسل اليها ان تساعده في شأنه

ولا حرج ان قلنا ان رُوسكن أحب الجمال حتى كاد يعبده . ولا ريب ان كتاباتهِ لم تُعدم تأثيراً على افكار قارئيها ، فعلمتهم كيف يُعرَف الجمال وكيف يُحبّ . وهو يشدّد النكير على شِلّر لزعمه ان الجمال لا يؤثر على النفس تأثيراً يحملها على القيام بالواجب ويقول «لا يسع المؤمن وقد خلا فكره من كل اضطراب ان يمرّ بزهرة أو غصن او حجر او يسمع صوتاً ما الاّ أن يستمد من الطبيعة قوة ورجاءً . »

والطبيعة تُفعم القلب فرحاً وابتهاجاً والنفس عجباً وعرفاناً . وقد نختلف آراء ومذاهب في العلميات والدينيات ولكننا ابداً مجمعون متفقون على بهجة الربيع وبهاء الصيف . والربيع اذا عاد جاءنا بنسمات حياة جديدة

واذا الربيع اتى ونوّر زهره رقصت قلوب العالمين حبورا

ولكن وا أسفاه كم من الناس مَن يعيشون فوق ظهر الارض ويقبرون في جوفها وكأنهم لم يروا شيئاً منها ولا عاشوا فيها

وكأني بتشارلس لامب لم يقصد بقوله التالي أن يؤخذ مأخذ الجدّ . «ولا يظنّ ابن لندن ان الصحة والراحة والعمل الذي لا غبار عليهِ ، ومجاذبة اطراف الحديث ، والانعكاف على المطالعة المسلية — تزيد العيش في القرية طيباً وحلاوة . فما هي الا لتسلبه طيبه وحلاوته والجنة بقيت سجناً وحبساً حتى أخطأ سا كنها وخرج منها »

اما كيتس فقد ألهم حكمة اذ قال :

ومَن طال في قلب المدائن مكثهُ وقوّس منهُ الهم صدراً وأضلعا
فأخلق به أن يرفع العين للسما ويجثو لتعظيم الفضاء ويضرعا
فللقبة الزرقاء وجه اذا بدا تبسمه راق النواظر مطلعا

ولكن ويح الانسان ! فكم حوائل تفصل بينه وبين الطبيعة والحقيقة . اعتبر ذلك بطبقات العين والاعصاب والدماغ والهواء والغبار والمطر ، وبحالة المرء الصحية من انتظام هضم ودورة وموية . وبكلمة ، كم تحول حالات عقلنا وجسمنا ما بين النفس والطبيعة

وبقدر ما ندرس الطبيعة يزيد تلذذنا بها وتكثر معرفتنا عن كمال عالمنا هذا وعجيب نظامه . وانا لنعجب من الفيلسوف روسو أن يقول : « لا جميل الا غير الموجود » — لان الحقيقة عكس ما يزعم . وصحيح ان بعض الاشياء اجمل من بعض ولكن الطبيعة كلها جميلة وهو الانسان من يترك جميلها قبيحاً بمحاولته تقليدها وانى له أن يضاهيها

وغالباً ما تكون الافكار والتأملات التي تقوم بنا لدى مشاهدة بعض الاشياء اجمل من تلك الاشياء نفسها . والكون باسره يزيد لنا جمالاً بقدر ما نعمل الفكرة ونطيل التأمل في احواله . وقد قال مارتينو « لا عالم أقدس من عالمنا أو اقرب منه ليد الباري تعالى . وانّى لعالَمٍ آخر أن يحتوي على ما في عالمنا هذا من اسرارٍ عميقة تهيبها ونوقرها ، وعَواطف وشعائر تحملنا على معرفة الحقوق والواجبات » . وقال الامبراطور آكبر : ما أعظم البساط الذي مدّتهُ يد المكوّن العظيم وما أجمل الالوان التي وشّي وطرّز بهـا » وقال جو برت : « كأني بالسنة وفصولها الاربعة اكليل يُضفر من الازهار والاشواك والاثمار والاعشاب اليابسة »

وكثيراً ما يؤاخذ المصورون والرسامون على محاولتهم مضاهاة الطبيعة بتكثير الالوان الزاهية البرّاقة . والطبيعة هي ام الجمال . وهي أحذق ما يكون في انتقاء الالوان وتنسيقها بحيث تجيء متناسبة وآية في الجمال

كتبت مرة مدام دي سڤيني الى ابنتها تفيدها انها قد قصدت

القرية لتودع الاوراق التي يأزف فراقها اذا ولّى الصيف وحل الخريف — ومن جملة قولها . « لا تزال الاوراق كاسية لاغصانها ، انما قد تغيرت ألوانها فقد مالت الى الاصفرار بعد ذلك الاخضرار وصارت أشبه بالنضار ، أو بالشمس المختلفة الانوار بين شروق وغروب » الى أن تقول : « ويا عزيزتي كم يغلب أن نمر بمثل هذه المناظر وكأننا عميٌ أو بلا نواظر ، فلا ننتبه لها ، أو اذا انتبهنا ما تأملناها لنفقه مغزاها . ان الطبيعة تكلمنا وتريد ان تعلمنا ولا نفتأ من جهلنا نحسب الجميل قبيحاً والقبيح جميلا والخير شراً والشر خيراً »

وان لكل من الفصول الاربعة ولكل ساعة من الاربع وعشرين جمالاً مستقلاً . ولكن هذا لا يمنع من حدوث ما يميز ظرف زمانٍ عن آخر ويبنيهُ ابداً على الرفع في نفوسنا . ورب ساعة يحسبها عائشها هدية من السماء يُتحف بها . .

ساعةٌ خِلتها اتتني كوحي ... هابط مُنزلٍ بهذا الفضاء
اقشعت شمسُ أنسها غيم همي ... فكأني بها سناءُ السماء (١)

والاولاد غالباً ما يفطرون على حب الطبيعة وتاريخها فتراهم لذلك يُولعون باصطياد الحشرات وضم الازهار . وحاشا لي أن أنكر عليهم هذا الولوع ، فان المجموعة اشبه بالمكتبة ، يتردد اليها صاحبها ويتعهدها بالدرس والملاحظة . زد على ذلك ان زيارة المتاحف العمومية مباحة للجميع فيمكننا ان نغتنم الفرص ونزورها بقصد درس الطبيعة وخلائقها

---

(١) شلي — السماء هنا الفردوس

يسر الصغار بل والكبار ايضاً بشراء تلك الالغاز والاحاجيّ من الحوانيت ويلتذون بحلها ويتسلون بتداولها . فليت شعري ! كم تعرض الطبيعة علينا من ألغاز وأحاجيّ ولا تطلب منا بارةً قط

وما قولك في أمثال الاواتي : (١)

لماذا الجبال في القطر الشامي اكثر منها في المصري ؟

لماذا لا يتحول النيل عن مجراه ؟ ولماذا يفيض في أوان ؟

لماذا تكسو الثلوج قمة صنّين ؟ !

كم عمر النيل ؟ ترعة السويس ؟

لماذا يكون شكل ورقة العنب غير شكل ورقة الموز ؟

لماذا ينام بعض الزهر ليلاً و بعضه نهاراً ؟

لماذا يغلب ان تكون الازهار الضارب بياضها الى الصفرة طيبة النشر زكية الرائحة ؟

لماذا تختلف الحيوانات لوناً ؟ فالنمر مقلمٌ والفهد أرقط ، والاسد اسمر ، والنعجة غبراء والدودة خضراء ! الخ لخ

الوف كهذه الاسئلة تقوم في نفس ذي البصر والبصيرة، فيجيب على بعضها والبعض يبقى سوءالاً مجهول الجواب

وكثيرون من الناس يقتنون المدللات من كلب او هرّ يربونهُ ويعتنون بهِ ، غير انهم لا يدرسونهُ ... اي لا يلاحظونهُ ملاحظة

---

(١) تصرفت في تعريب الاسئلة الجغرافية توخياً لفائدة المطالع السوري والمصري

المعرب

العالم الباحث . والعالم الفرنساوي ديكارت ذهب الى ان العجماوات آلات تشتغل لذاتها ، وهكسلي لم يظهر الاّ الشك في الامر . اما انا فاختباراتي وملاحظاتي أدّت بي الى الاعتقاد ان للحيوان مسكةً من الفهم والعقل وكم قيل لي ان الكلاب تدرك وتعقل كبعض الناس ولكن اذا سألت القائل (هل يعرف الكلب ان ٢ و٢ = اربعة) كان جوابه مشكوكاً في صحته . وهل يسرُّ الكلب او الفيل برؤيا الجميل والظريف ام لا ؟ الامر مبهم والبحث لازم

واذا عدنا للازهار والنباتات ، فكم من مسألة تطرحها الحقول علينا ؟ خذ البذور التي تزرع فتبزغ نباتاً وشجراً . ثم خذ الاثمار التي تزين الغصون . وقابل بين حجم البذرة والبذرة وشكلهما وبين شكل الزهرة والثمرة ولونهما وجرّب ان تعرف لكل اختلاف سببه ، اذ لا سبب بدون مسبب . وهاك كلمة روسكن في الاوراق : « غريبة هي اشكال الاوراق التي تتزيا بها الاغصان . فمن ورقة اشبه بنجمة ، واخرى بقلب ، واخرى بحربة ، واخرى بسهم ، واخرى بسيف . ننظر اليها فتعجبنا وتروقنا وتقوم فينا التخيلات المختلفة . فمن ورق ورد نحسبه رمزاً للمحبة وزنبق نشير به الى الطهارة والعفاف الى غير ذلك . فهلمَّ الى الطبيعة ندرسها ! »

كل نهر وكل حقل وكل واد وكل تل يلقي علينا مسائله . فاحرِ بعقولنا ان تشتغل بحلها وبنفوسنا وقلوبنا ان تبتهج معجبة بتلك المناظر التي تلقيها بل توحيها

وكم من حيوان نظل لا نعرف لهُ شأناً حتى يقوم كاتب كرسكن يصفهُ لنا بمثل ما وصف بهِ السنجاب[١] — قال : لا اجمل منهُ منظراً ، او اسعد عيشة او اعجب امراً . عفيف نزيه في امور معيشته وطعامه . لعوب كالهر الاَّ انهُ لا يؤذي . خفيف الحركة كالسعدان الاّ انهُ رشيقها كالعصفور . وكأنهُ بعينهِ السوداء البرَّاقة سهمٌ من سهام الشمس يخرق الخميلة تنقلاً بين افنانها . يقفز ويطفر كيف يشاء واين منهُ الإِيّل والظباء . لطيف الملمس جنيُّ الجمال يسحرك بحركاتهِ . يسمعك ويصغي لك ، ثم يختفي ويختبئ عنك ، ويعود يفتش ليجدك . ويحبك ويحب اولادك حتى كأنما الملاك الرفيق الحارس لأولادك اهداهُ اليهم لعبة سماوية »

وهاك وصفهُ للحية : « ذلك الجدول الفضي الاملس — أفكرت في جريهِ وسعيهِ ؟ الحية لا تمشي بل تسعى وتجري . وكأنها الزورق في البحر ، الاّ ان التراب ماؤها وقشرها مجذافها ورأسها دفتها . بل هي النهر ينساب في السهل انسياباً . تتموج ولا ريح تتلاعب بامواجها . تجري ولا شلال يقطع مجراها . كل جسمها يتحرَّك معاً — الاَّ ان بعضهُ ذات اليمين وذات اليسار وقسم منهُ للامام والآخر الى الوراء تمرّ بك ولا تُسمعك صوتاً ، وتفوتك وتترك لك اثراً فحواهُ :

(ان آثارنا تدلُّ علينا فانظروا بعدنا الى الآثار)

فاجئها بصرخة واذا بالجدول المنساب قد استحال سهماً مسدَّداً

---

(١) القرقذان في عرف العامة

وموجة السم استقامت رمحاً مقوّماً يخترق الاعشاب وينفذ منها ولا طعنة الفارس من صدر العدوّ . لها رئة ولا تكاد تتنشق الهواء او تتنفس الصعداء. سوائ عندها الشمس والظل فهي باردة حارة ، جامدة الاَّ انها تتسلق ولا القرد ، وتسبح ولا السمكة وتثب ولا الغزال ، وتصارع واين منها ابن حواء وتسحق واين منها النمر. هي قوة شيطانية مجسمة على الارض . وكما ان العصفور هو قوة الهواء مكسية ريشاً فكذلك الحية انها قوة التراب لابسة مسوحاً وجلداً. وكما ان العصفور هو رمز للروح والحياة ، فالحية رمز لقضي الموت على الحياة وقبضته على الروح »

الطبيعة الاهية للحكيم الصالح . ولكن لا نفهمها الاَّ اذا أحببناها واشعرنا انا واياها واحد . وكم يلهج الناس بذكر غير الطبيعي . وعندي أن الطبيعي حسبنا ، وان أغلب ما يسمونهُ غير طبيعي ليس الاّ طبيعيا محضاً او مما لا وجود لهُ . اذ كل موجود جزئ من هذه الطبيعة . وهي غير محدودة ولا تدرك غاياتها . وكل اكتشاف جديد يفتح لنا باباً للعجب جديداً . ولا نحل مشكلة حتى نعالج أخرى . فالمجهر والمقرب يخلقان لنا عوالمَ لم نكن نعرفها من ذي قبل . وقد توصلنا بواسطة السبكتروسكوب (محلل الطّيف) الى حل مسائل كان يحسبها العالم كونت فوق مدارك البشر

والعلماء والمكتشفون حتماً يشعرون بالسعادة التامة اللهمَّ ان لم يكن لهم من احوالهم الشخصية علةٌ للشقاء

ظنّ القدماء ان أرضنا هي درة الكون الفريدة وحسبوها مركز العالم بأسره . أما نحن فنعلم انها ليست الا سياراً صغيراً يدور حول كوكب صغير هو واحد من ملايين الاجرام السماوية لا اكثر . ولكن مع حقارة شأنها بالنسبة لسواها فكم فيها من اسرار لم نستطلعها ومشاكل لم نحلها . ولله الجمال الذي يزينها . وقد يصدق قول روسو « ان للعالم الحقيقي حدوداً ، أما الوهمي الخيالي فلا حدود له » . ولكن حدود الكون — اذا كان ثمت من حدود — بعيدة عنا بعداً يصح منه اعتبارها كغير موجودة . والحق ليست أرضنا وحدها غير محدودة على صغرها ، فحتى اجزاؤها الدقيقة ودقائق تلك الاجزاء وجواهرها لا تعرف حداً ولا نهاية . وعجيبة هي حواسنا غير اننا على حدّة ابصارنا أشبه بالزّحافات العائشة في ظلمات المغائر والكهوف ، لاننا لا نرى جميع ما حولنا من كل عجيب وجميل

ولعلنا نتوهم ان كل انسان يشعر بجمال الجميل اذا رآه ، فما هو الا توهم نود لو كان حقيقةً . فما اكثر العمي والصمّ بين الواقفين في هيكل الطبيعة . وكم من مبكرٍ لا يحفل لشروق الشمس وجمال الشفق ومن عائد الى منزله مساء لا يودع الشمس الغائبة بنظرة اعجاب وحب لجمالها . وكودون سمث أنكر ان الزنبقة في الحقل آنق من لبس الملك سليمان في قصره

عاش احد الكتاب[1] مئة سنة ونيفاً وعزي تعميره الى الاعتدال

---

(١) لوس كورنارو

في المعيشة • ومن جملة اقواله : « ان لي حياتين ارضيةً املكها وسماويةً احلم بها » . ولكنهُ يعترف لنا قائلا « لم اعلم حتى شخت ان دنيانا بالحق جميلة » . وحتى اليونان مع سلامة ذوقهم قلما كانوا يحفلون بجمال « الطبيعة » . على انهُ اذا استحال على أيٍّ منا أن يتحقق معظم الجمال والعجب في دنيانا، واذا تسنى لفئة قليلة من مجموعنا ان يشعروا شعوراً خفيفاً ببعض ذلك . . . فكثيرون منا يرفعون بصرهم نحو السماء ويسرحونهُ في صفاء الفضاء ونجومه وكواكبه ، أو يصوّبونهُ في البحار ويصعدونهُ في الجبال ، فلا تلبث همومهم ان تزول زوالاً وتضمحل اضمحلالاً . وحالكة هي الظلمة التي لا تُنار ، وشديد الالم الذي لا يخفُّ حتى في يوم راق جوّه ورق هواؤه !

وعجب ان يكون لانسان عينان في رأسهِ ويستسلم لليأس والقنوط فيخمل ويتبلد

والطبيعة فائقة الجمال حيث تركت وشأنها ولم تمسها يد الانسان بترتيب ولا تخريب . ومن ارق الرسائل التي كتبها صديقي و . ر . كرك ما جاء بعنوان « جمال الخرابات والبقايا » • وليس المتخرب المندثر جميلا في ذاتهِ بل هي الطبيعة ويدها اللطيفة التي تزيّن وتحلّي حتى المزيَّن الحالي مما صنعتهُ يد الانسان

وجمال الطبيعة لا يفنى ولا يزول . « انزع عن الطبيعة جمالاً واسلبها آخر واخلع عنها زينة بعد زينة وحلية بعد حلية . . . تظلّ كانك لم تنقصها شيئاً . فقد تجرحها اذا فعلت ذلك وتخدّش جسمها لكنهُ

يظل جميل الكيان ، ولا تلبث الجراح ان تبرأ بما تذرّ عليها روح الجمال من البلسم الشافي » (١)

وما قولنا في مَن يملأ بيتهُ رسوماً وصوراً من صنع أشهر المصورين والرّسامين الا انهُ يعيش بينها ولا يرفع بصره اليها ! او في مَن جمع في مكتبته اهم الكتب لاعظم المؤلفين ولكنهُ لا ينعكف على مطالعتها ؟ ! وها الطبيعة فاتحةٌ ابوابها ترحب وتؤهل بنا بل تدعونا اليها . . واين صنعة الانسان من خلقها . فلماذا لا نعيرها حظها من الاهتمام ؟

قال هكسلي : « يمرّ الأميّ بالحقول والهضاب والسهول ومَثلهُ مَثل المارّ في متحف تسعة اعشار صوره وتماثيله مقلوبة لجهة الحائط . واذا علمت ذلك الأميّ فكأنك قد جعلت بين يديه برنامجاً يتصفحه ويقلبه مسروراً ملتذاً . ومسراتنا الشريفة اقلّ من ان نحتقر معها هذا الامر نبعاً للمسرة مَعيناً »

حكي ان ستايسكورس أعدم البصر وحرمهُ لانه لم يحفل بجمال الطبيعة . وكثير من الناس لهم عيونهم ولكنهم لا ينتفعون بها . لهم عيون ولا يبصرون

والعلماء يقدرون درس الطبيعة قدره الحقيقي ويعلمون مقدار ما زاد ويزيد في سعادة الحياة . وكلنا يحب بلاده ، لانها وطنه ، انما يجب ان نحبها لمجرد كونها بلاداً . لانها موضوع عقولنا كما هي موضوع شعائرنا . ومن ابهج اسرار الطبيعة ذلك السر العظيم ، سر الوجود .

---

(١) ورد سورث

والمادة ليست شيئاً بل حركة بالاحرى . « المادة مظهر لا غير »[١] وكل حجر مسئلة بل مسائل وكل زهرة عجب ، وكل حيوان عجيبة ، والانسان مسئلة المسائل وعجيبة العجائب . فقليل ما نعرف عن الجسم ، واقل ما نعلم عن العقل ويا لقلة ما نعرف عن علاقة الاثنين وما نحن الا اتحادهما

ودرس الطبيعة مجلبة لسلام القلب الذي تقلقه عواصف الايام وضيقاتها، وتزعجه حروب القوم وتحزّباتهم . وقد ذكر توماس اكمبس انهُ بحث عن السلام في كل مكان فلم يجده الاَّ في زاوية يختلي بها وكتيّب يقرأ فيه . ولكنهُ لم يجرب درس الطبيعة وقراءة اسفارها

قال غوتة : «الطبيعة ادخلتني هذه الدنيا ، والطبيعة تخرجني منها . اني مسلّم لها بجميع اموري . ولها علي مطلق التصرّف . على انها لا تبغض صنيعتها . ولم اقل عنها شيئاً . وكل صدق وكل باطل هي تقوله لنفسها وهي في غنىً عني . وكل ذنب ذنبها وكل فضل فضلها »

الكتب والموسيقى والاداب ، شعريها ونثريها ، تسرنا وتلذ لنا ولا سبيل الى انكار ذلك . اما عشاق الطبيعة فهذا لسان حالهم

من الطبيعة اين النَّايُ والعود واين كتبٌ وما في الكتب موجود

ولا ننسَ ان التعمق في العلم يُسلينا الهموم والاحزان ويحول افكارنا عن المصائب والمزعجات . فمن يتأمل الاجيال والعصور المشار اليها في علم طبقات الارض، ويحدق في دقائق المرئيات التي يظهرها لنا المجهر ،

---

(١) جوبرت

ويرسل الطرف في الابعاد التي يدنيها المقرب فكأنهُ يتجرد من همومه وشواغله ويرى نفسه في دنيا غير دنياه

اننا لا نرى الا القليل ولا نعرف الاّ الزهيد، فلا يمكننا ان نتصور العالم تماماً ، ولكن قليل ما نعرف ونرى يقنعنا بان الكون عظيم عجيب ! ! !

قال سينكا : « لا يستطيع الانسان ان يرفع بصره نحو السماء ويشاهد ملايين الانوار المتألقة فيها ويراقب دورانها وتسيارها ، ولا يأخذ منه العجب والرهبة والوقار كل مأخذ ». ودرس النجوم لا يفيدنا من حيث الهداية في عرض البحار فقط بل انهُ يُنير ظلمة تلك الساعات التي يُبلى بها كل انسان . ودرس الطبيعة لا يفيدنا من وجهة عملية مادية فقط بل انهُ يساعدنا على الترفع عن طفيفات الامور وصغائرها ، وعلى احتمال عظائم المصائب التي تحل بنا

عالم شغل وحركة وجمال وسرور ولذة ووعود ، هو العالم الذى نعيش فيه . وهنالك في اللانهاية عالم متسع النطاق ، هادئ لا نسمع له حركة، مملكة خيالية [1] مخيفة مملوءة اسراراً ، ولا نعرف لها حدوداً انما بقدر ما نعمل الفكر ونحرك سواكنه ، ونحرص على طهارة القلب ان تُدنس ، وعلى سعادة البيت ان تفقد صفتيها اللازمتين وهما الثقة المتبادلة والمحبة المتبادلة بين افراده — بقدر ذلك نأمن تخوُّف سرّ الوجود الهائل ، ونعيش في ظلّ الطمأنينة والسلام

---

(١) الخيال هنا الظل

الفصل الثالث عشر

الوقت

اهمية الحاضر — المستقبل مجهول — الحياة قصيرة — الجميع سواء باعتبار الوقت — الاقتصاد في الوقت — اقوال : لموسى وداود وبايكون — حكم قيلت في الوقت وقصر الحياة — الوقت سهل الاضاعة وصعب الوجود — الشباب والمشيب — ليس لنا الا يومنا — الوقت لا يثمن ولا يعاكس

« لا تفتخر بالغد لانك لا تعلم ماذا يلده يوم » (١)

انما الأيام بحر فوقه مركب الانسان ميناه قَصدْ
ان تسالمه تناوئه غدًا وكذاك البحر في جزر ومد
فاذا ما سالمت فاغنم بها فرصة المدِّ التي لما تعد
ولكم من غافل عن امره فاتهُ المدّ وللقعر ركد (٢)

ماضيك قد مضى وآتيك قد لا يأتي فما لك الا حاضرك

ولله در توماس اكمبس القائل :

اليوم يومك قم للفعل مدّ اليدا
اليوم يوم الوغى فلم تهابُ الرَّدى
قم أحسننَّ البلا وارغم انوف العدى
امستعدٌّ تُرى ام تستعدُّ الغدا

---

(١) امثال سليمان (٢) شاكسبير

والغد قد لا يأتي وانت حيٌّ نرزق فعبثاً تنتظر قدومه

ولا تعش عيشة المعتقد انهُ معمّرٌ ألفاً من السنين اذ لا اضر من الاهمال . واعلم ان ما ابتدأتهُ في يومك فقد انجزت نصفه ، وان ما اجّلته لغدك ستزيد صعوبته عن ذي قبل . واذكر :

يا ايها المغترُّ في عهد الصبا فتظنهُ عهداً يطول مدى الدهورْ
احسب حسابك لا تقل اني من الـ أيام عندي ذلك الارث الكبيرْ
واحرص على الساعات واصرفها كما لو كنت ذاك المعدم العاني الفقيرْ
واعرف ليومك قدره او ان تكن للآن تجهله تخبرك القبورْ
فهي التي في جوفها الشيخ الكبير م وقربه ذاك الفتى الحدث الصغير
وحتى ايام متوشالح لم تسلم من الانصرام على طولها

« إنْ نحن الا ظل وتراب . وانّى لك ان تعرف ما اذا كانت الارباب من عرشها تضيف غدك الى امسك ام لا » (١)

«اغتنم الفرصة اذا سنحت» هذا كان شعار پيتاكس ونصيحته بل السبب الذي من اجله عُدَّ بين حكماء اليونان السبعة

ان الشرارة قد تداس بأخمصٍ في البدء لا تخشى برجل توطأُ
لكن اذا تركت تفاقم شرها وأدر عليها النهر ليست تطفأ (٢)

او كمثلنا السائر « قطبة واحدة في حينها تغني عن تسع بعد حين »

الاقتصاد في الوقت مهم كالاقتصاد في ذات اليد بل أهم جداً . والكتاب يحرّض عليه مرة واخرى : « إحصاء ايامنا هكذا علمنا

---

(١) هوراس (٢) شاكسبير

فنوءتى قلب حكمة » . « علمني يا رب نهايتي ومقدار ايامي كم هي فاعلم كيف أنا زائل »

وكم لنا من الامثال المحرضة على اغتنام الوقت والمحذّرة من التأجيل والاهمال . ومنها

(واضرب حديداً حامياً لا نفع منه ان برَد)

وكم لنا من الحكم القائلة بوجوب تعبئة الوقت اجتهاداً وعملا وفعل غاية ما يستطاع في ساعاته ودقائقه . على ان بعضها لا يخلو من رنة حزن يشق وقعها على النفس كقوله (١)

مثل زاهي الازهار وسط الحقول نجتنيها فتلتوي بذبول
هكذا يا فتى اويقات انس ان تأتت تزول عما قليل
او كثلجٍ غشّى صحيفة نهرٍ بسناه فصار بعض المسيل

وكقول احدهم (٢)

هل حياتي الا نهارٌ وليل وكثير الايام عندي قليل
بعض حب و بعض بغض اذا ما جئت هذين «عم صباحاً» أقول
ثم في الليل بعد رؤيا الاماني «عم مساءً» في القبر آن الدخول

* * *

لا شك ان الحياة قصيرة جداً . وأسفار التوراة اولها «التكوين» وتاليه « الخروج » . وهل هذا الا سبب وعلة لوجوب قدر الايام حق قدرها وسلب الاوقات من مخالب الآفات ؟

---

(١) بارنس (٢) مقطوعة افرنسية

وحقيقةً :

ما ترى يجدي سرور قد مضى او سرور في يـد المستقبـل
ليس لي هـذا ولا ذاك ولـ ـكنما الحاضر ملكي وهو لي
ان تكن تعقـل فاسهر ساعة انت فيها لا تنم لا تغفـل (١)

ورجال الدين من الانكليكان يبالغون في هذه الحقيقة كل المبالغة . وهاك ما قاله جرمي تايلر : « تنعم ببركات يومك اذا حظيت بها واحمل همومك بالصبر الجميل . لان نهـارك وحده لك ، وغيره لغيرك . وهل أنت الا ميت لامسك وجنين لغدك . فمن يتمتع بحاضره اللهمَّ ان كان فيهِ ما يتمتع بهِ فقد نال كل ما يمكن ان يُنال واذا ابتلي بيوم كثرت همومه واتعابه فان هو الا يوم واحد ينقضي »

وقال الاسقف فولّلر « ولئن توفي شاب وهو في شرخ الشباب وريعانه ، فهل كانت الحياة بعدد الايام الطوال ام بحسن الاعمـال ؟ ومَن صرف حيـاته في غير ما ينبغي فكأنهُ خسرها وأضاعها » . هذا واذكر انك ان أضعت يوماً فقد لا تجده ثانية . ولكن رغماً عن تعلق الجميع بالحياة وتشبثهم بها فكم نرى من كسول يحتار في كيف ينفق وقته . ولا تسرع في تقرير ما تعمل . ولكن اذا صممت النية على عمل فلا تلبث ان تمدّ اليهِ يدك لكيما تنجزه على غير السرعة والانهماك

هذي الحقيقة فاسمعوا ان تسمعوا هيهات أمسكم يعود فيرجع

---

(١) بندار

ذا اليوم طالعة عليكم شمسه ولعلها لكم غـداً لا تطلع

وهل نعتبر بخبر اركياس (امير ثيبة منذ ٢٤٠٠ سنة) الذي تلقى ذات يوم كتاب تهديد وانذار ، فالقاه في زاوية النسيان والاهمال قائلاً « غداً نرى » ورأى — انمـا موته .... ؟ وقد روى لورد شستر فيلد عن ديوك اوف نيوكسّل انه أضاع ساعة من ذات صباح فقضى نهاره بطوله وهو يبحث عنها وينشدها . وهو من اللزوم باعظم مكان ان نرتب اعمال كل يوم ترتيباً يتسنى لنا معه القيام بكل واجبةٍ بخير ما في الامكان . والا ضاع منـا قسم كبير من الوقت وشكونا شكوى بنيامين كونستانت ، والذنب ذنبنا — « عجباً كم أخسر واضيّع من الوقت ؟ ما أقل حياتي نظاماً وترتيباً ! » ومن يرتاب في هذه الحقيقة وقد أتى بها أعظم الثقات — «هوذا الآن وقت مقبول ، هوذا الآن يوم خلاص » (١)

ولو كانت الحياة قصيرة فقط لهان الامر ، ولكنهـا ابداً تحت الشك ، فواحدنا لا يعلم أيرى بعد أعواماً وأجيالاً ام يبيت ليلته ولا يعرف غدها ...

اذا تعددت الواجبات المطلوبة منا ، ربما وقفنا محتارين في ايها نقدم وايها نؤجله ونؤخره . والافضل في مثل هذا الموقف ان نختار الاصعب ونشرع في اتمامه ، لان ما نخاله مزعجاً ومملاً في البدء ، نبيت ننظر اليهِ بعين الابتهاج والسرور بعد ما أنجزناه . وقد شبهوا الشباب

---

(١) ٢ كورنتوس ٦ — ٢

بطاقة من الزهر ، والمشيب با كليل من الشوك • ولربما جاءت ابيات شا كسبير التالية تعبيراً عن الشعور العام في كافة الآدميين —

عهد الصبا عهد الصفا ان المشيب ابو الحذَر
كاس الشباب اذا صفا فالشيب يوليه الكدر
يا ما احيلاه الصبا اما المشيب فما أمرّ

وربما كان التسرع والوجد والقلق من صفات الفتوَّة والشباب ، لان الفتى حديث العهد باختبار العالم ، واذا عُدم مرشداً مخلصا فقد يهوي ويعثر مراراً في طريق حياته ، او اذا طاش وبطر واغترّ بنفسه فقد يجلب عليها في لحظة من الزمان ما يعيش يتعذب من أجله السنين الطوال • وبالعكس اذا عقل ورزُن في حداثته فانهُ لا يدرك الكبر الا محاطاً بالاصدقاء الاوفياء وقد استتبّت له الراحة وخلا جوّ الحياة • وربما استمرَّ في شيخوخته على الاهتمام بامور غيره وشؤون بلاده ووطنه ، الا انهُ غنيٌّ عن الاهتمام بذاته بعد ما صرف همة الشباب الى تحسين احواله الشخصية

ولا أرحمَ من الزمان بمن يحسن استعمال ايامه • وكما قال جوبرت « الوقت يُعدم كل شيءٍ ولكن على مهلٍ • فبمروره تتمهد الجبال سهولاً ، ويذوب الصخر انحلالاً ، وتموت فروع الشجرة واصولها ، الا انهُ لا يقتلعها اقتلاعاً • على ان كثيرين يسيئون تنظيم حياتهم فلا تكون الا كنهار صباحه نقاء وصفاء ، ومساؤه عواصف وزوابع

« مهما وجدتهُ يدك لتفعله فافعله بكل قوتك » ودفعاً لاستغراب

هذه الوصية هاك ما قاله الحكيم في سفر الجامعة « لانهُ ليس من عمل ولا اختراع ولا معرفة ولا حكمة في الهاوية التي أنت ذاهب اليها » . وقد قال كبل «انما « الآن» الوقت والزمن ، اذ من لنا بمحقق قدوم الغد » . زد على ذلك ان ما نفعله نحن اليوم لا يقتصر تأثيره علينا فقط بل يتناول الآخرين في الاجيال المقبلة — وهل هذا الا باعث لنا على الاعتصام بالحكمة والفضيلة . ولا اولى من اغتنام الوقت الذي نكون فيهِ . وقد قال احدهم : « يومك يأتيك مرة واحدة ، واذا مضى فلن يعود » . والفيلسوف سينكا سبق فقال ايضاً : « الماضي بما نذكره ، والحاضر بما نستعمله ، والمستقبل بما تقدّره العناية وبما نستدرك عواقبه بالنظر الى الامام » . والحق يقال ان الصعوبة كل الصعوبة انما هي في التأليف بين العزم (توطيد النية) والتعقل . لاننا كثيراً ما نتسرع في تحقيق الآمال فلا نعتم ان نفشل ونندم . وما هذا شأننا في أمر الزواج فقط ، بل في كثير سواه من امورنا . ومن جهة اخرى ، حسب قول الجامعة « من يرصد الريح لا يزرع . ومن يراقب السحب لا يحصد »

وكاننا مطبوعون على الميل الى تحقير الوقت الذي نعيش فيه ، حتى اذا مرَّ عرفنا له شأناً وقدراً

(رب يوم بكيت منه ولما صرت في غيره بكيت عليهِ)

وروسكن مع انهُ غير الجحود الناكر الفضل على ذويهِ ، قال مشيراً الى القرن التاسع عشر قرن التقدم والترقي : « ما أعظم شوقي

الى ذلك اليوم الذي يُخرِج فيهِ هذا القرن آخر انفاسهِ » ثم يستأنف قائلاً : قلت « انفاسه » وكان بودي ان أقول « بخاره »

وقد يغلب ان يكون الشعراء أصحاب آلام وعذابات ، فلا نسمعهم الا متذمرين من حاضرهم باكين على ماضيهم متمنين لو يعود . وكم من قائل مثل هذا القول

استغفر الله ! حتى الله مَن قدرا لا يستعيد لنا الماضي اذا عبرا

فلنعتبر اذاً ونذكر ان الوقت الثمين اذا جازفنا بهِ جوزينا بخسرانه

الفصل الرابع عشر

الحكمة

العين فدى لشربة من عين الحكمة — تعريف الحكمة — الصمت والكلام — التسرع والامة — النوم والحكمة — صعوبة استدراك الفعلة اذا وقعت — المعرفة — اقوال سليمان في الحكمة — العقل — التعب الفكري — جهلنا العميم — الدنيا سر عظيم — الواجب — الخطاء — قبح الرذيلة — حكمة سليمان — سلوكه — صوت الضمير

« فمن اين تأتي الحكمة ؟ وأين هو مكان الفهم ؟ هوذا مخافة الرب هي الحكمة . والحيدان عن الشر هو الفهم » (١)

حكي ان « وُتان » سمح للجبار « يمير » بفقءِ احدى عينيهِ لقاء شربةٍ واحدة من نبع الحكمة . أما نحن فلسنا بمضطرين الى مثل هذه التضحية . ولئن نعذر علينا ان نضارع صولو وسليمان حكمة واختباراً ، فانهُ متيسر لنا ان نمرن قوة الادراك وتقويها ، وان نستفيد من اختبارات الغير ، بان نعتبر بها ونتخذها مشكاةً ودليلاً في سفر الحياة ، وما الحياة الا سفر . وقد قال شيشرون : عرَّف الاقدمون الحكمة بقولهم انها الالمام بالبشريات والإلاهيات ومعرفة نظامها . وهو علم من احتقره فالله أعلم بما عسى ان يكون جديراً لديه بالاعتبار »

---

(١) ايوب

قال بوركاس «الفهم والنطق هما امتيازانا الكبيران على الحيوان» والحق يقال ان امتيازنا الاكبر انما هو الفهم، لان النطق قد يخون الناطق ويعرضه لسقطات وزلّات كثيرة. ولما كنت سابقاً اخطب في قوم، كنت أشعر ان لهم حق الاطلاع على افكاري، كما انهُ لي الحق وعليّ الواجب ان اقف على افكارهم واعرف اسبابها. وزد على ذلك ان كل انسان يمكنه ان يصغي لخطيب، اما الخطيب المصقع والسياسي المحنك فهو ذلك الذى يقرأ افكار سامعيه ويسمعها وهم صامتون»

اظن ان كل واحد منا اتفق له ان لام نفسه من اجل التكلم اكثر مما تستدعي الحكمة — ولكن مَن تُرى ندم يوماً على إقلاله من الكلام؟ وانهُ ليحسن بكل فرد ان يختم على فمه ويفتح عينيه وأذنيه لكل ما يرى ويسمع. وكقول المثل «انظر حولك وفوقك وامامك». وما أصدق المثل الفرنساوي السائر «من اقل من التفكير اكثر من التقويل». وكم نطرح امثال هذه الحكم جانباً أو نضرب بها عرض الحائط! فصحيح ان الحكيم يتعلم من الجاهل اكثر مما يتعلم الجاهل من الحكيم

يغلب ان نتذمر ونشكو من البطء والتواني في الشؤون الاجتماعية الخطيرة، على ان الشر كل الشر في التسرّع وعدم التؤدة في سنّ الشرائع ووضع الاحكام. والتسرع قلة حكمة لا محالة. فالطبيعة نفسها مثال التأني، فانها تفعل كل شيء في اوانه، والاّ كان غير طبيعي. وكما قالت مدام دي سڤيني: «من قدر ان يصبر قليل الصبر، كفيَ

كثير الشقاء » . وهذه النصيحة كلها حكمة ، أما الاخذ بها فغير السهل اليسير . « الحزن صعب الاحتمال والشك بطيء الزوال » .(١) وهنالك حالات لا بدّ فيها من اتيان فعل ما ، انما لنعرف ماذا نأتي ، والاّ زدنا الحالة سوءًا والامر اشكالاً . وحبذا لو ان كل مُقدم على فعل من الافعال يقف ويسأل نفسه « الا يمكن التخلي عنهُ ؟ » وان قسماً كبيراً من منافع التشريع يُعزى الى الغاء شرائع وقوانين سبق سنّها بتسرّع وقلة تروّ ، فكانت وبالاً مُبيناً على الهيئة الاجتماعية . والساعة ساعة اذا كانت تجاري الوقت لا اذا كانت تسبقهُ

يندر ان يكون التسرع من باب الحكمة . واذا عرض لك امرٌ وكان فيهِ بعض الاشكال والغموض فأجّل الحكم فيهِ والبتّ بشأنهِ الى الغد ، وبِتْ مفكراً متأمّلاً في دخائله . لانهُ اذا خيم الظلام وأغمض الجفن فقد يظل الفكر ساهراً على امرك ولا تصحو الاّ وقد حُلّت العقد وانجلت الغوامض . ولأن تنتظر الفكر ريثما صدر قراره الصباحي ، خير لك من ان تقضي الليالي في السهر والأرق والتندم على فعلة الأمس وزلتهِ . « لان الذاكرة لا تخوننا بنسيان ما نود ذكره فقط بل بذكرها ما نود نسيانهِ » . ولنذكر اننا اذا فعلنا شيئاً فقد يستحيل علينا ان نعيده من حيّز الحدوث الى حيّز الفكر

« كل الناس يشكون من ضعف ذاكرتهم ، وليس مَن يشكو من

---

(١) برونن

ضعف عقله » . على ان المعرفة هي اساس الحكمة « وهي التي ليس للملوك أن يقتنوها ولو بذلوا اموالهم على وفرتها ولا باوامرهم السنية على شدّتها . » وغوتة يقول : « مَن ينصبّ على درس الشريعة لا يجد وقتاً لكسرها وتعدّيها » . وبقدر ما نزداد معرفة كذلك تزداد رغبتنا في الاستزادة منها أيضاً . وقد قرأنا عن بطرس الاكبر انهُ « عزم على ان يرى كل ما يُرى ، ويسمع كل ما يُسمع ، ويعرف كل ما يُعرف ، ويتعلم كل ما يُتعلم »

ولا يسعني ان اوافق مارتنو على قوله « لو عرفنا كل شيءٍ لما اعتبرنا شيئاً » فكأنهُ قال لا شيء جدير بالاعتبار . ومَن جهل امرًا فرضهُ فرضاً وخمنهُ تخميناً : أما طالب الحقيقة فبقدر ما يعرف كذلك تزيد دهشته ويشتد عجبه واعجابه بهذا العالم العظيم العجيب . بل ان مارتنو نفسه يلوم « مَن يغضون ابصارهم عن مملكة نحن عبيدها ولا ينظرون لسوى هذه العاجلة الفانية التى نحن أسيادها »

وسليمان قرَن بين المعرفة والحكمة وجعلهما صنوين لا يفترقان . وهاك ما يقول :

مخافة الرب رأس الحكمة . اما الجاهلون فيحتقرون الحكمة والادب »

« لان الرب يعطي حكمة . من فمه المعرفة والفهم »

« الرب بالحكمة أسس الارض . أثبت السموات بالفهم . بعلمهِ انشقّت اللجج وتقطر السحاب ندىً »

فالمعرفة تقدّم الموادّ اللازمة ، التي تبنى منها الحكمة ، بل هي الاساس الراسخ الذي يقوم عليه البناء : « الحكمة هي الرأس . فاقتنِ الحكمة . وبكل مُقتناك اقتنِ الفهم »

«طوبى للانسان الذي يجد الحكمة ، وللرجل الذي ينال الفهم . لان تجارتها خير من تجارة الفضة ، وربحها خير من الذهب الخالص . هي اثمن من اللآلىء ، وكل جواهرك لا تساويها . في يمينها طول ايام ، وفي يسارها الغنى والمجد . طرقها طرق نِعم ، وكل مسالكها سلام . هي شجرة حياة لممسكيها . والمتمسك بها مغبوط »

والعاقل الحكيم يستفيد ويتعلم من اختبارات سواه ، أما غير العاقل والحكيم فمن اختباراتهِ فقط . والافضل هو ان يأخذ المرء بنصيحة سواه ، ولكنهُ خيرٌ لنا ان نتعلم من اختباراتنا من ان لا نتعلم ابداً . وقد أجاد القائلون ان مدرسة الاختبار مدرسة شاقة المسلك ، اما الحمق والاغبياء فيأبون الاّ ان يتعلموا فيها ، والاغرب انهم حتى فيها لا يتعلمون ولا يستفيدون . والاختبار غالباً ما يسوقنا الى ما بعد الغاية منهُ على حد قول المثل الفرنساوي « الهرّ المسلوق يحذر الماء البارد »

كثيراً ما نسمع الناس يتكلمون عن « الذوق السليم » ولكن يا لقلة ما تجده فيهم .. مع ان سلامة الذوق من أعظم المواهب وأجلّها .. وكم منهم من يحسب نفسهُ جامعاً لشتات حكمة اليونان وضابطاً لشواردها اذا ما عَرَف ، كثايلس ، ان كل الاشياء مركبة

من الماء ، وكهرا كليتس ، ان كل الاشياء في حالة تغير وتبدّل ، أو كانكسا كوراس ، ان كل الاشياء ضباب وسديم ... ثم انهُ يضيف الى هذه الآراء رأي سليمان الحكيم : « كل شيء باطل » . فأي فكرٍ سليم يرضى بمثل هذا ؟ ؟

فعلى مَ نؤسس اعتقاداتنا ونبني مزاعمنا ؟ نفتخر بكوننا مخلوقات عاقلة ، ولكن قلما يكون للعقل من دخل في آرائنا . فقد قال ماكس مُوللر مرةً « لو كانت العطلة السنوية الكبرى تطول السنة بكاملها لكانت جامعة اكسفورد « الفردوس الموجود » ولكنه كان اذ ذاك ناظراً الى الامر من وجهته الشخصية لا غير . ولا شك ان الخلو والراحة لازمان للفكر ضروريّان ، وكم يعوزان الاستاذ اثناء الفصل المدرسي ، حينما تتراكم عليهِ الواجبات فيكاد ينوء بحملها

وشاقّ هو العمل العقلي لا مشاحّة . وما الاعمال اليدوية الا تسلية ولعبة وَلَديّة ، بازاء الاعمال الرأسية (الدماغية العقلية) واسترجاع القوة العضلية ايسر بكثير من استعادة القوة العصبية . زد على ذلك ان الفكر قد لا يخلو من تأثير على القلب ، وقد يسبب القلق والاضطراب . ولماذا نرانا في عالمٍ هذه صعوبة فهمه ! !

وربما كانت المعرفة المحجبة عنا لا تسفر لنا لكوننا غير مستعدّين لها بعد . فقد نُسيء فهمها أو استعمالها ، او قد تكون فوق مداركنا وعقولنا فتحيرنا . وقد أحسن غوتة قولاً بهذا المعنى « وفي ما خصّ المعرفة لقد اتفق لي ما يتفق لمن يسهر الهزيع الاخير ثم ينهض

باكراً ، انتظاراً للفجر أن يلوح وللشمس أن تسطع ، فلا تكاد حتى يُضحي وقد بُهر نظراً وعمي بصراً » . وباسكال يقول « كثير من الحقائق يدهشنا ويقضي عجبنا » والبومة (طائر ليلي) هي مثال اثينا الاهة الحكمة ولكنها تبصر ما تُبصر في ضياء القمر الضئيل ، اما نور الشمس الساطع فيعميها ويخطف بصرها

فقصارى الآمال وغاية الجهد ، والحالة هذه ، أن نتقدم خطوةً خطوة ونزيح النقاب عن وجه المعرفة شيئاً فشيئاً . وقد اتينا بعض الشيء من هذا القبيل مدة القرن الماضي ، واين نحن من الكل ، وذلك البعض ليس بشيءٍ يذكر امامه ؟ فكأن الاهة ساليس يحق لها ان تقول حتى في يومنا هذا « انا هو الكائن وما كان وما سيكون . لم يُمط حجابي بشرٌ بعد »

« كأني بالسواد الاعظم من الناس يستصعبون حذر الخطإ وتوقّيه ، فيسلمون قيادهم لسواهم ، ويقيمونهم أوصياء على عقولهم ، ليكفوا نفوسهم مؤونة التبصر والتفكير » . ولا يخفى ما في الاكتفاء مشقة التفكير والارتباك والارتياب من الراحة اللهمَّ اذا كان الانسان يكتفي بالانعكاف على واجباته والقيام بها . لانهُ اذا انقطع عنا نور العقل وكان الضمير حيا فنوره سنيٌّ كالشمس في رائعة النهار

قال شيشرون : « كان ديمقراط كفيف البصر لا يميز بين الابيض والاسود ، ولكنه كان يفرق بين الخير والشر ، والحق

والباطل ، والشريف والدنيء ، والنافع والمضرّ ، والعظيم والحقير »
ورب سقيم بصرٍ سليم بصيرة

اجل انهُ كثيراً ما يصعب علينا تحقيق ما اذا كان الامر من الصحة والحكمة بمكان ، ولكنهُ قلما يتعذر علينا ان نميز ما اذا كان واجباً من الواجبات او حقاً من الحقوق . واذا ذكرنا ذلك فسعادتنا في أيدينا . ونادراً ما نشك في كيف يجب اتباع قوله : « كونوا كاملين كما ان أباكم الذي في السموات هو كامل » انما الصعوبة ليست في معرفة ما يجب فعله ، بل في حمل النفس على فعل ما يجب . ولا ننتظرنّ أن نفوز بالكمال ، انما لنجاهد في سبيله ، لاننا نفوز بالحسن بقدر ما نسعى في طلب الاحسن . ولا يُنكرنَّ ما في الامر من المشقة فان دونهُ نكران النفس والتسلط على اهوائها ، ولكن كما قال احدهم « لا يحسن بالمرء ان يفضل حياتهُ على نفسه »

ورب شرٍ ليس الاّ خيراً بعد حدوده ، ورذيلةٍ هي الفضيلة بعد غايتها . فالزم حدَّ الاعتدال في جميع أمورك . « ان للامور طريقاً ذات حدودٍ معروفة ، والحكمة لا تتعدّاها » (١)

وهنالك أمور طاهرة او طفيفة في حد ذاتها ، بل نافعة أحيانا .. الا انها تتحول الى مساوىء وآثام اذا تجاوزت حدودها . فالكرم قد يصير تبذيراً واسرافاً ، والشجاعة قد تلتبس بقلة المبالاة وعدم الاكتراث . وفي كل حال ، ليس للحاصدين الاَّ ما زرعوا . فالرذيلة

---

(١) هوراس

عقابها فيها ، والفضيلة جزاء نفسها . والحقيقة ان العقاب والثواب ليسا الاّ نتائج الافعال وعواقبها الطبيعية . فالسعادة تتعقب الصلاح تعقّب الليل للنهار . بل ان الليل لا يخلق النهار ويوجده ، اما الصلاح فالسعادة مؤدّاه ونتيجته كل حين . والمثل الفرنساوي يقول « افعل ما يجب ، وليصر ما يصرْ » . ومن عمل الصالحات نحو سواه ، فسواءٌ نابتهم ام لم تنبهم ، فانهُ قد أحسن نحو نفسه لا محالة . و « ربّ ارحم الطالحين ، فقد رحمت الصالحين بجعلهم كذلك » صلاة عربية قديمة

قال تنسون :

كل سامٍ تراه عيتك فاعشق والدنايا بالبغض اولى وأخلق

وربما صدق ذلك في أيام الشباب النقية الطاهرة ، ولكن ياللاسف كم يسهل على الانسان أن ينظر الى الدنايا ويتعشقها فيدني نفسهُ ، ويجني عليها بحرمانها ذلك الامتياز العظيم ، امتياز حب السامي اي الشريف من الافعال والغايات . والذي ينفع الشابّ الداخل في معارك الحياة انما هو كره الرذيلة وبغضها ، لا مجرد معرفتها والتمييز بينها وبين الفضيلة

ان الرذيلة لا جمال بوجهها كالوحش ترهبها لأول وهلةِ
لكن اذا كرّرت فيهِ تفرّساً أحببتَ لو منهُ تفوز بقبلةِ (١)

---

(١) بوب

قال شيشرون : « اذا ثبت انهُ لا سعيد الا الصالح ، وان كل صالحٍ سعيد ، فأي أمر احق باهتمامنا من اتقان الفلسفة (أي العلم) واي شيء أسمى ألوهية من الفضيلة ؟ » وقال ليوناردو دي ڤنيسي : « اذا كنت تحفظ جسمك بحسب مقتضيات الفضيلة ، فلا تظل شهواتك عالميّة دنيويّة »

ان عدل الارباب امرٌ مؤكدْ انهم ينصفوننا حين ننكدْ
والمعاصي التي نحبّ ونهوى قُدِّمنها السوط الذي فيهِ نجلدْ(١)

ونوح الذي أتيح له ان ينجو من وبال الطوفان ، دنى نفسهُ ووضّعها ووقع في حبائل العريشة التي زرعها ، وكم غرق بنوه من بعده من الخمرة والمشروبات في طوفان بعد طوفان ! !

ان المصائب التي يسببها الحمق والغباوة تكاد تضاهي تلك التي تجرّها الآثام والخطايا . والعاطفة الحسنة التي قد تدفعنا الى العمل ينحصر تأثيرها في النفس . أما الفعل الحسن ولو صدر عن حكمة مع محبة ذات ، فقد يمس الآخرين بخيرٍ ومنفعة ، ولكنهُ لا يكون « الا فضيلة الرذيلة » كما يقول جوبرت . وقد اعطينا قوة الاختيار والتميز العظيمة ، ولنا الخيار بين ان نبني « مدينة الصلاح » ونعمرها ، او ان ندمّرها ونقيم « معاقل الشر والصلاح » على اطلالها . فهذا الامتياز ينطوي على مسؤولية عظيمة كما ترى

والناس اثنان — واحد يُتعب سواه ، وآخر يُتعب نفسه . اما

---

(١) شاكسبير

المتعبون فيشقون و يشقون غـيرهم معهم ، وأما المتعبون المحتملون المخففون عن الغير ، فيسعدون و يسعدون سواهم معهم . فحتى الزهيد من الحسنات ، والطفيف من المساعدة وقت الضيق ، بل الكلمة اللطيفة الحالّة محلها ، قد تأتي بالنتيجة العظيمة على حدّ قول شا كسبير

أرأيت قنديلاً تضاءل نوره والليل فحمي الظلام شديدهُ
فكذاك في دنيا الشقاء ينيرها فعل الجميـل طفيفهُ وزهيدهُ

وعند ما مات النبي داود وارتقى سليمان منصة الملك ظهر له الله وسأله ما ذا يريد فيوهب له أجاب : فأعطني الآن حكمة ومعرفة . . فقال الله لسليمان — من اجل ان هذا كان في قلبك ولم تسأل غنىً ولا اموالاً ولا كرامةولا أنفس مبغضيك ، ولا سألت اياماً كثيرة بل انما سألت لنفسك حكمة ومعرفة تحكم بهما على شعبي الذي ملكتك عليـه ، قد أعطيتك حكمة ومعرفة وأعطيتك غنىً واموالاً وكرامة لم يكن مثلها للملوك الذين قبلك ولا يكون مثلها لمن بعدك» . ولكن ويلاه من ضعف الطبيعة البشرية . عاد حبه للمال والقوة والمجد فحلّ محل حب الحكمة في قلبه ، فبات يعظ ولا يتعظ وينهى ولا ينتهي . بل كم سلك سليمان ضد اقواله على خط مستقيم ولقي سوء المغبة ووخيم العاقبة . وهل احزن من الحالة التي انتهى اليها امره ، تلك الحالة التي أنطقتهُ بهذه العبارة : الكل باطل ؟ ولقد كان ملكاً صالحاً وعظيماً ، وقوله هذا يشفّ عن خيبة وتقصير لا عن يأس وقنوط ولئن لم يكن وطيد الامل قوي الرجاء ، فانهُ لم يكن يعذبهُ ضميره بتو بيخ او تبكيت

وليس الضمير دليلنا الامين فقط ، بل انهُ شاهدنا العدل الذي يُميّل ولا يُعزل . فقد نحكم على اللسان فنربطهُ او نحل لكنته وقد نغير الملامح ونشكلها كما نشاء ، بل قد نذلل الشهوات والاهوآء ، انما يستحيل علينا ان نسكت صوت الضمير الداخلي او نميته بالكلية

الفصل الخامس عشر

الدّين

السلام والرجاء في الدين — الافكار واهميتها — امكانية مقاومة التجارب — الشرائع الدينية — الحياة من ثلاثة اوجه — تذمرات في غير محلها — الوعود الالاهية — سير الدين — الامة والدين — الصلاة

كان لكل من آلهة اليونان احباؤه واخصاؤه ، يحميهم و يرعاهم بعنايتهِ دون سواهم من عباده . فعولس عاش في نعمة اثينا الاهة الحكمة ، وآنياس في ظل الزُّهرَة الاهة الحب والجمال . والعهد القديم من الكتاب المقدس يسمي الاسرائيليين بشعب الله الخاص . . . اما فكرة أبوّية الخالق و بنوّية البشر فمسيحية النشأة. فجميعنا ابناؤه تعالى، ولنا الحق ان نضرع اليه وندعوه أبانا

وكم يحسن بنا ان نقف كل مساء بالنفس نناقشها الحساب متسائلين : هل عملنا اليوم على حفظ الجسم في صحته ؟ هل ملكنا زمام اهوائنا وشهواتنا وكبحنا جماحها ؟ هل قاومنا التجارب التي عرضت لنا وتغلبنا عليها ؟ هل ارتكبنا إثماً ؟ هل أسأنا الى أحد ؟ هل مسسنا أحداً بأذًى ؟ هل أحسنا الى أحدٍ ؟ هل عشنا على خير ما نستطيع ؟

وسلام الله الذي يفوق كل فهم ، ممنوح لنا ، ولا شك انهُ من

اعظم البركات التي ننوق الى الحصول عليها — « ما لم ترَ عين ولم تسمع أذن ما أعدّه الله للذين يحبونهُ »

قال جوبرت : « يفرض الدين على المسكين ان يكون حرًّا وشريفاً وكريماً . والدين هو كل شيءٍ لكل انسان — ادب وعلم لهذا ، وواجب وملذّة لذاك » . وفي ايام البؤس والاضطراب ، الدين خير معزٍّ وانجع دواءٍ للمصاب . والقصد الاوليّ من الدين انما هو ادخال السماء في قلب الانسان ، وليس ادخل الانسان في باب السماء . وهذا مستحيل اذا كنا لا نطرد الافكار الشريرة من دائرتي العقل والنفس . ذلك لان اغلب الخطايا تقترف بالفكر أولاً ثم تبرز الى حيز الفعل بالتالي . وليس بخافٍ ان أولئك الذين لا يحوّلون افكارهم عن الشر والرذيلة أبداً معرضون للوقوع في تبعة اعمال تتبع تلك الافكار . اما الذين الطهارة والصلاح محور افكارهم ، فأقل احتمالاً ان يأتوا فريًّا او يسلكوا الاَّ سويًّا . « كل ما هو حق ، كل ما هو جليل ، كل ماهو عادل ، كل ما هو طاهر ، كل ماهو مسرّ ، كل ما صيته حسن ، ان كانت فضيلة وان كان مدح ففي هذه افتكروا »

ضميرنا وسعادتنا منوطان بنا . وقد قال سينكا « لا واجب نتمه ولا يُسعدنا . لا تجربة نُبلى بها وليس لعلتها من دواء » . « ولكن الله امين الذي لا يدعكم تجرّبون فوق ما تستطيعون بل سيجعل مع التجربة ايضاً المنفذ لتستطيعوا أن تحتملوا »

انما أوحي بالاوامر والوصايا لخير الانسان لا غير . « تلك الشرائع

التي ارادها السرمديّ الأبديّ لم تكتب على حجارة سيناء فقط ، بل على القلب البشريّ ايضاً »[1] . وتلك الشرائع سواء تحققنا مصدرها ام لم نتحققهُ ، فتوّخي السعادة يقتضي اعتبارها والسلوك بموجبها . وجون ستبورت مِلّ يقول : « حتى اليوم انهُ ليتعذَّر على غير المؤمن ان يسنّ نظاماً للفضيلة يجيء اكثر إحكاماً مما لو جرّبنا أن نعيش ونتصرف بحيث يصادق المسيح على جميع اعمالنا »

والخاطىء اذا تاب فقد يعود فيخطىء ثانية ، ولكنهُ لا يفقد دينه بالكلية . نعم قد يخطىء كما اخطأ النبيُّ داود ، ولكنهُ لا يهزأ بالدين كفولتير او كجبون وغيرهما من الكتاب المتطرفين في مبادئهم المادّية . اما فولتير وجبون فلم يشكوا من « الدين » ولا وصماه ولا عاباه بشيء ، ولكنهما ضربا على بعض مذاهب وآراء لاهوتية لا اكثر . وهذه حالة كثيرين سواهم من العلماء المتهمين بالكفر والجحود

وكم يكثر الناس من الكلام عن المادّية وهم لا يكادون يعرفون عنها شيئاً . وغاية ما نعرف عن المادّة انها قوة ما . وهذه حليفتنا الجديدة القوة الكهربائية ، نذكرها كثيراً وهي تخدمنا وتنفعنا كثيراً ولكنها لا تكشف لنا سرّها ، فلا نزال نجهل ماهيتها وحقيقة امرها

ينظر الناس الى الحياة من ثلاثة أوجه . فمنهم مَن يراها كل شيء ، وسواء كان يعتقد بآخرة ام لا ، فهو يتجاهلها بالكلية . ومنهم من يحسب الحياة الثانية (اي الآخرة) كل شيء ويعتبر اولاه كلا

---

(١) شتوبريان (٢) شتوبريان

شيء . والفريقان في خطإٍ مُبين . ومن حيث الطول والقصر ، لا حرج ان قلنا ان الحياة ليست شيئاً بازاء الابديّة . اما المستقبل فمترتب على الحاضر في كل حال . ولما كان الامر كذلك فلا بأس من تعليق كبير الاهمية على حاضرنا لان مستقبلنا متوقف عليه

نتأفف من هموم الحياة واحزانها ونأسف ان نفارقها . نتذمّر من عذابات الحياة وآلامها ، ولا ننفكّ نتشبث بها . نتشكى من حرّ الصيف وبرد الشتاء ، ويحزننا ان نترك هذه الدنيا . نتبرّم من مشاق الحياة ومهامّها ولا نفتأ نجاهد في سبيل السلطة والقوة والمسؤولية . نتضجر ونضيق صدراً مما يميز الرفيع عن الوضيع والغنيّ عن الفقير ، ولكننا نأسف ان نذهب الى حيث لا فرق بين مُوسر ومعسر او بين ملك وصعلوك

قال مركوس أوريليوس : « اذا كان ثمّت من آلهة فما أحلى الموت . وما أمرّ الحياة اذا لم يكن من آلهة قط »

قال غوتة : « ما استمددت عون السماء في ساعة الكرب والضيقة الاّ مددت به » . ولكن مع ان الصلاة تعود علينا بالراحة والسلام اذ نحن في قبضة الكرَب ، فكذلك ينبغي أن نلجأ اليها ونحن في راحة الفرح أيضاً . « اذكر خالقك في أيام شبابك قبل أن تجيء أيام الشر أو تجيء السنون ، اذ تقول ليس لي فيها سرور » (١)

ولا بدّ لنا من توقع الحزن والعذاب ولكن اذا احتملناهما كما

---

(١) الجامعة

ينبغي فان « خفة ضيقتنا الوقتية تنشىء لنا اكثر فأكثر ثقل مجد ابدي . ونحن غير ناظرين الى الاشياء التي ترى بل الى التي لا ترى لان التي ترى وقتية وأما التي لا ترى فأبدية » « والرب يعطي والرب يأخذ » اما ما يعطيه فالخير ، وما يأخذه فالشر

* * *

لا شك اننا في جهل عميم ، ولكننا لا نعدم معرفةً هي الاعظم والأهم — كيف لا وهي معرفة الواجب . ومن المستحيل اننا لا نتوق الى الاستزادة من المعرفة . وعليه فمحاولة تأسيس الدِين على مبادىء لاهوتية ليس الاَّ امراً طبيعياً مألوفاً

على ان بعض الاديان كانت ولا تزال مما يستغرب ويُستهجن كما قد اظهرت في غير هذا المقام

ودين القوم مجارٍ لمدينتهم في النشوء والارتقاء . فالاوستراليون مثلاً يتوهمون وجود كائن شرّيرٍ أذّاء ، وضعيف ، لا خطر منهُ الا في الظلام . ومعبود الزنجي اقوى من معبود الاوسترالي الاَّ انهُ مثله مُبغضٌ مكروهٌ لدى عِباده — فهو غير منظور ولكنهُ مائت لا خالد ويتألم ويتعذَّب وتحت سلطة الانسان وسحره . ومعبودات سكان الجزر الجنوبية ، مع انها نوعان ، آلهة خير وآلهة شر ، تَرى خوف القوم من الثانية أشد من املهم في الأولى . فهم يعتقدون ان آلهتهم هذه مهدت الاراضي وهيأتها ، لا انها خلقتها وأوجدتها ، وان البحر والبرّ وُجدا قبلها لا بعدها . فهي لا تعاقب الطالح ولا تثيب الصالح .

وتراقب أمور الناس وتسهر عليهم ولكنها لا تتأثر من صلواتهم ، اذا سلمت من سطوة سحرهم وعراقتهم . زد على ذلك انها تتطلب مقاسمة عبادها مواسمهم ومحصولاتهم

فيظهر اذاً أن تقدم العلم الحقيقي والتوصل الى الحقائق الراهنة يرفعان الدين و يسموان به في كل حال . وهذا القول يتناول الشعوب المتأخرة والمتقدمة في المدنية جميعاً . فالاعتقاد في السحر والعرافة الذي طال تعلقه حجاباً كثيفاً على عقول أبناء العصور المتوسطة واستمر حتى اواسط القرن التاسع عشر مخيّماً على اذهان سكان غربيِّ أوروبا — ذلك الحجاب لم يمزّقهُ الا نور العلم ، فخدم الدين بذلك خدمة جليلة

وهاك الفرق بيننا و بين المتوحشين من حيث الدين . نحن ننعت الاهنا بالخير والصلاح ، اما هم فيعتبرون الشر والطلاح من أهم صفاته . نحن نسلّم لربنا ونثق به ، وهم يحاولون ان يتسلطوا عليه و يستعبدوه . نحن نميل الى عزو البركات والخيرات الى ذواتٍ غير ذواتنا ، اما هم فيحسبون البركات والخيرات آتية من تلقاء ذاتها و ينسبون المحن واللعنات الى ذوات شريرة يتوهمونها

واذا صرفنا النظر عن لاهوت أهل الكهنوت وتفاسيرهم ، فلا يسعنا الاَّ أن نقرّ بفضلهم في زيادة حياة الناس راحةً وهناءً . فانهم بتواضعهم وسعيهم الى خدمة الغير ومشاطرة الناس احزانهم الى غير هذه من المبرّات ، يسعون سعياً مشكوراً ، ويأتون أعمالاً محمودة .

والعائلة التقية في مدينة أو قرية ، أشبه بنـار العَلَم يهتدي بها التائه الهائم في ظلام الجهل والضلالة

وهنالك فرق بين « دين الأمة » وشيَعها وطوائفها . فالشيعة او الطائفة تمثل رأياً او زعماً او مذهباً . اما « دين الامـة » فهو الشعور العامّ بسرّ الوجود . والاختلاف لا بد منه ولكننا في غنىً عن التباعد والانفصال . والاختلافات الموجودة بين طوائف نفس المذهب المتعدّدة اعظم من تلك الموجودة بينه و بين مذهب آخر . فأحرِ بكل وطنيّ ان يكتفي من دين اخيه في الوطنية بانهُ مثله شعوراً بسر الوجود ، و بقيمة عطية الحياة المهداة الى كل منهما . وما بالنا ننشقّ ونتباعد من اجل فروقات وهمية واختلافات فلسفية ! !

وقد اجاد القائل : « عَلّم ابنك الحكمة تعلمه أدب الدنيا . علمه ما هو حسن وحكيم تعلمه ادب الدنيا والدين »

واني لآمل واعتقد مع روسكن ان الاحسان والتساهل والسلام تمهد السبيل لقيام كنيسة لا تبنى على الجهل فتكون رهن السقوط ، ولا على الانشقاق فلا تستطيع التقدم ، بل تكون النور والسلام اساسها وشعارها

قال احدهم « الايمان اسّس الكنيسة ، والرجاء تلافاها من السقوط . اما المحبـة فمنها ينتظر ترميم البنآء وتعديله وتحوير الاراء وتجديد النظامات »

ان اردنا ، عشنا في السماء قسماً من كل نهار

قال فنلون : « يجب ان تعوّد نفسك على محاولة الاختلاء بالله قلباً لقلب ، ربع ساعة كل صباح وكل مساء . وما هو ربع الساعة بالنسبة الى الأبدية ؟ » ولكن بقطع النظر عن الابدية والاخرة ، فان اتباع هذه العادة يعود علينا بالراحة والتعزية والسلام . انما الفرق العظيم لا يظهر الا في آخر العمر . « لقّنْ ابنك العلم ، تجعل حياته مفيدة ، علّمه الدين تجعل ميتته سعيدة (١)

---

(١) بستالوتزي

الفصل السادس عشر

اللاهوت

الدين والضمير — اللاهوت والعقل — سر الكون — جوهر الدين — جوهر المسيحية — تنسون والشك — التسامح — حكاية شرقية — اقوال لموسى وداود وسليمان وميخا — تعاليم العهد الجديد — العقائد معاثر في سبيل الدين — العجائب — الايمان — الاختلافات الدينية — الاضطهاد — مخاوف التساؤل — الشك والارتياب — المجادلة عبث — روح الدين — الشك الجدير بالاعتبار — اقوال كبل وجرمي تايلر — ايمان الفيجيين — تعاليم المسيح

الدين ليس بالعلم ، بل بالضمير . والدين كدليل السلوك واضح وضوح النار على العَلَم . اما اللاهوت كفلسفة الكون فمبنيّ على العقل والادراك ، ولا نزال نرى الانشقاق والنزاع قائمين على قدم وساق حتى بين أولئك المكرّسين حياتهم وقواهم جميعا للابحاث والعلوم . وعدد كبير من الناس يقولون مع القائل

(كوائن ليس يدري الكنه منها سوى مَن أمره كاف ونون)

والعلم لا يبرح يزيد معلوماتنا عن الطبيعة ، على ان اسرارها تتزايد عمقاً وخفاء كلما خطونا خطوةً وأنطنا حجاباً . ولعل اولادنا او اولاد اولادنا يكونون يوماً ما اكثر منا نوراً وهداية في سبيل استقصاء

هذه الحقائق واستطلاع تلك الاسرار ، اما نحن فلا يسعنا الاّ الاعتراف بجهلنا العميم . اننا لانكاد نعرف شيئاً ، حتى ولا انفسنا وقد قال سانت برنارد : « الشك ملح العقيدة »

قال جوبرت : « حبَّ الله ، وليحبك الله ، وحب الناس ، ولتحبك الناس هـذا هو ادب الدين والدنيا . فالمحبة هي الكلُّ في كليهما . فهي المبدأ والواسطة والغاية »

« انما نحمي الدين ونحفظ حرمته بموتنا لابقتل الآخرين »[١]

« اغلب الديانات القديمة قامت بطقوسها ومعابدها ، لاعلى المذاهب والعقائد »[٢] . والضمير رؤيا الاهية لكل صاحب ضمير . وان الله ليكلمنا اليوم كما كان يكلم انبياءه واصفياءه في قديم الزمان ، والاولى بنا ان نقول ان الرسل « أوحي اليهم » لا ان «الكتب اوحي بها » .

« وليست ميزة المسيحية باختلافها عن الديانات التي تقدمتها ، بل بمجيئها تتمة لهـا وتكميلا »[٣] وقد بشرنا جوَت ان عصر انتقاد الكتب قريب الانصرام ، وهو يكره التقييد والتقليد وينزع الى الحرية الفكرية نزوعاً شديدا . وهاك قوله ايضاً : « ليست العبرة اليوم بمجرد كلمات المسيح وأقواله ، بل بحالة المسيحية من حيث اقبال الناس عليها وتأثيرها فيهم وتأثيرهم فيها »

واللاهوتيون انفسهم يحتارون في سرّ الوجود . « ان العالم العجيب الذي نوجد فيه ولو الى حين ، سواء أُتيح لنا ان ننظر الى عالم الايمان

---

(١) لاكتنتيوس (٢) روبرتسون سمث (٣) جوت

الاسمى ام لم يُتح ، انه وحده هيكل ملوءه الاسرار والعجائب . فكيفما ذهبت تجد حولك شواهد قوة عجيبة لست لتنظرها او تلمسها او تحدها او تقيسها او تفهمها » (١) . « كمال الادراك البشري انما هو بمعرفة ان هنالك لانهايةً من الحقائق التي لاينتهي اليها ادراك » (٢) والشاعر تنسون يفرق بين الايمان والمعرفة بقوله :

وأنى لنا علمٌ بما ليس يُنظر ونحن على الايمان بالغيب اقدرُ
كأني بمن شكّوا باخلاص نيّة يقينهم في الحق اقوى وا كثر

وكثيراً مايختلف وينشق طلاّب الحقيقة رأياً ومزعماً ، ولكن تلك الاختلافات والانشقاقات لاتولّد عداوة وبغضاً « للعلم » وحبذا لو كانت هذه الحالة في ماخص « اللاهوت » . فان بعض اللاهوتين يعتبرون مخالفة رأيهم تعرضاً للدين ، وعدم الحكم فيه (٣) حُكما جائراً عليه ، ويعدون الشك في صحته كفراً وجحودا . على ان التقي يجب ان يكون مُحسناً ، وأين التعصب من الاحسان ؟

روى سعدي الشاعر الفارسي ان شيخاً اعرج قدم ذات ليلة اشتد ظلامها وعصفت عواصفها وطرق باب خيمة ابراهيم مستغيثاً مستجيرا ، فخرج اليه هذا وادخله منزله وأحله على الرحب والسعة وقدم له طعاماً فأكل ، الا انه لم يحمد الله تعالى ولا فاه بصلاة قط . فلم يتمالك ابراهيم نفسهُ واستجوبهُ سائلاً ، وما كاد يسمعهُ يقول انهُ لا يعبد الاّ النار الاهاً حتى طرده خارجاً وأرجعهُ من حيث اتى . انما

---

(١) كنون لدون (٢) پاسكال (٣) أي في رأيهم الشخصي

ما كاد الغريب يُبعد ويتوارى عن عيان ابراهيم حتى ظهر له الله وسأله عن ضيفه ، فأجابهُ : ربّاه اني طردتهُ من بيتي طرداً حالما علمت انهُ ليس من عبادك . فقال له الله : ها قد وسعتهُ ووسعتُ سواه كل هذه السنين بطولها . . . أما انت فقد ضقتَ بهِ ليلةً واحدة . . . . فندم ابراهيم على فعلتهِ واستعاد الشيخ وأكرم مثواه وقام نحوه بجميع واجبات القرى الضيافة . . . .

وترانا نعيش ، ونستعمل الموادّ ، وننير بيوتنا ، مع اننا لا ندّعي ادراك ماهية الحياة أو المادّة أو النور والكهربائية . وهكذا يظهر لي اننا نتوقع من رجال الدين اكثر مما يحق لنا ، ولعلهم هم ايضاً ينتظرون منا فوق ما يجوز لهم

واذا تصفحت الكتاب وجدت الطهارة والسلوك محورين تدور حولهما فصوله واسفاره

وهاك بعض الاقوال الكتابية دليلاً على ان طهارة القلب وحسن السلوك هما جوهر الدين ومحور آياتهِ . قال موسى : « ان هذه الوصية التي اوصيك بها اليوم ليست عسرة عليك ولا بعيدةً منك . ليست هي في السماء حتى تقول من يصعد لاجلنا الى السماء ويأخذها لنا ويسمعنا اياها لنعمل بها . ولا هي في عبر البحر حتى تقول من يعبر لاجلنا البحر ويأخذها لنا ويسمعنا اياها لنعمل بها . بل الكلمة قريبة منك جداً ، في فمك وفي قلبك لتعمل بها » [١] وقال داود : « ذبائح

---

(١) تثنية ٣٠ — ١١

الله هي روح منكسرة . القلب المنكسر والمنسحق يا الله لا تحتقره »[١] وقال سليمان : « فلنسمع ختام الامر كله . اتّقِ الله واحفظ وصاياه لان هذا هو الانسان كله . »[٢] فالآن يا اسرائيل ماذا يطلب منك الرب الاهك الا أن تتقي الرب الاهك لتسلك في كل طرقهِ وتحبهُ وتعبد الرب الاهك من كل قلبك ومن كل نفسك . »[٣] والعهد الجديد ايضاً يسهب في شرح هذه المثالة ويزيدها وضوحاً « الديانة الطاهرة النقية عند الله الآب هي هذه : افتقاد اليتامى والارامل في ضيقتهم وحفظ الانسان نفسهُ بلا دنس من العالم » .[٤] « لذلك انت بلا عذر ايها الانسانُ كلُّ مَن يدين . لانك في ما تدين غيرك تحكم على نفسك . لانك انت الذي تدين تفعل تلك الامور بعينها » الذي[٥] سيجازي كل واحد حسب اعماله . اما الذين بصبر في العمل الصالح يطلبون المجد والكرامة والبقاء فبالحيوة الابدية ، واما الذين هم من اهل التحزّب ولا يطاوعون للحق بل للاثم فسخط وغضب[٦] » ولنأخذ اخيراً قول المسيح نفسهُ : « تحب الرب الاهك من كل قلبك ومن كل نفسك ومن كل فكرك . هذه هي الوصية الاولى والعظمى . والثانية مثلها ، تحب قريبك كنفسك . بهاتين الوصيتين يتعلق الناموس كلهُ والانبياء . » وهو القائل : « فكل ما تريدون

---

(١) المزمور ٥١ — ١٧ (٢) الجامعة ١٢ — ١٣ (٣) تثنية ١٠ — ١٢ (٤) يعقوب ١ — ٢٧ (٥) اي الله عز وجل (٦) رسالة بولس الى الرومانيين ٢ - ١ - ٦ - ٧ - ٨

ان يفعل الناس بكم افعلوا هكذا انتم ايضاً بهم ، لان هذا هو الناموس والانبياء » (١)

و بعض الناس يحسبون الدين بالمذاهب والعقائد وانها هي ركنه وقوامه ، بينما البعض الآخر لا يعدُّ هذه الامور الا مصاعب ومعاثر في سبيل الدين • وهكذا يصبح الأنام فريقين منشقين بل متضادّين متعادِيين

وهنالك أولئك الذين لا يدخلون المعبد مطلقاً ، وأولئك الذين يدخلونهُ انما محتارين متألمين مما يترتب عليهم من التسليم بعقائد ومذاهب فلسفية أو غير فلسفية ، ومن جرآء تلك النعوت والصفات التي تنسب الى الناسوت الا لاهي . ولست لاذكر رأيي الشخصي في الامر ، في هذا المقام ، بل حسبي الفات النظر الى قسم من المصاعب التي يصادفها الكثيرون في سبيل الديانة

واهل تلك الايام الخالية ما كانوا ليشكوا في امر العجائب أو يرتابوا بشيءٍ مطلقاً • بل العجائب التي أتى بها موسى الكليم امام الملك فرعون ، جاء السحرة والعرّافون وأتوه بمثلها • فاعتبار العجيبة دليلاً على القدرة والسلطان انما هو قريب العهد حديثه

وليس بخافٍ ان كل اكتشافٍ علمي جديدٍ يستدعي فتوضع له مفردات وعبارات جديدة يعرف بها . ولا إخال الانكليزية ولا

---

(١) متى ٧ — ١٢ احترزوا من الانبياء الكذبة الذين يأتونكم بثياب الحملان ولكنهم من داخل ذئاب خاطفة : متى ٧ - ١٥ - (المعرب)

اية لغة سواها محتوية على الكلمات الكافية للتعبير عن حقائق الكون واسراره العظيمة باسرها . فحسبنا اذاً ، في كثير من المسائل التي تشغل عقولنا ونفوسنا، ان نُرجىء الحكم في شأنها ونؤجله ريثما زادت دائرة علمنا ومعرفتنا سعة وشمولاً . ولكن اذا كنا في ريب مما نفكر فيه ونقرره من العقليات ، فقلما يخالجنا شك او ريب في ما يوحيهِ الينا الضمير من الحقوق والواجبات

وكأني باللاهوتيين يتجاهلون صعوبة ما لا يفهم ، ويظنون ان التصديق والايمان من الامور الارادية الاختيارية . او كأنهم يحسبون التصديق بدون دليل او برهان ممدة من المحامد او فضيلة من الفضائل . فتراهم ينتظرون منك ان تصدّق كل ما يُعرض عليك أو تنكره . . . مع ان عدم التصديق شيء ، والنفي والانكار آخر . ولا شك انهُ لا يليق بنا ان نقبل ونسلّم بما لا يُقام عليه برهان ، ولا يثبته دليل ، أما متى صدق الدليل ، ودمغت الحجة فلا يسعنا الا القبول والتسليم . ولكن لا يخفى ان هنالك مواقف لا محل فيها لانكار الامر ولا للاعتراف بهِ ، وما تلك الا مواقف الاحجام عن القطع وتأجيل الحكم . زد على ذلك ان كثرة الاختلافات المذهبية لا يمكن معها تنظيم طقوس عبادية يُجمع عليها الجميع ولو نظريًّا فقط . وحبذا لو كانت الحالة غير مانرى ! اما والحالة هذه ، فلا حول ولا . . .

ومما يجدر بالملاحظة والاعتبار ان الكتاب بعهديهِ القديم والجديد

لا يظهر الدين كمذهب او كعقيدة ، بل ان جل محتوياتهِ شرائع ونواميس ووصايا واضحة كل الوضوح . فالدين فيهِ عبارة عن عواطف ، وشعائر ومبادىء سلوك لا اكثر . انما هي التفاسير المتباينة التي عبثت بآياتهِ ، والشروح والتعليقات التي أبعدت الناس وأضلتهم عن مبادئهِ وغاياتهِ . فكأني باللاهوت يقتل الدين بكثرة ما يُفصّله ويشرّحهُ

فالوصايا العشر مبادىء سلوك محضة . . . واذا قيل ان اليهود كانوا دون الغاية المطلوبة قبل المسيح ، فان الآيات الكتابية التى دوّنت بعده ، هي غايةٌ في الوضوح والحكمة

والصلاة الربّانية التي يضرع بها المسيحيون ، تشتمل على جميع الحاجيات والضروريّات الحقيقية . الا انها خالية من كل تنويهٍ بمذهب ، او تنديدٍ برأي لاهوتي ، ولا إلماع فيها الى شيءٍ ما من هذا القبيل

فضلاً عن ذلك ، لو ذكر القوم ان الخطأ ليس خطيئةً ، وان امر الدين لامر جلل ولكنهُ لا يخلو من اسرارٍ لا يستطلع طلعها ، ولا تعرف دخيلة امرها ، وأن الشك والريب لا بد منهما في بعض المواقف . . . قلت لو ذكر القوم ما ذكرنا لأمكنهم ان يتفقوا على تفرّقهم مذاهب ، ويجتمعوا على تباعدهم عقائد . وما احوج بلادنا الى الى مثل هذين الاتفاق والاجتماع . ومن جهة اخرى ، ترى ان ديانات العالم الكثيرة قد تختلف اختلافات جوهرية ، من حيث المبدإِ والتصوُّر المبنية عليهما . « فالوثنيون ألّهوا الحياة ، اما المسيحيون فقد

ألّهوا الموت — هذا هو الفرق بين الفريقين »[1]. فترى ان غايات الوجود لهؤلاء هي غيرها لأولئك، فالمسيحيون يتطلعون الى حياة ابدية والبوذيّون يأملون التمازج مع « الروح العامّة » بعد الموت • بل وحتى عند المسيحيين ترى عنوان الفضيلة في عصر من العصور غيره في آخر . فالقديس أونوفريوس اعتزل الناس واستأنس بوحشة القفار وقضى ستين عاماً لا يرى أحداً ولا يجيء عملاً . والقديسة اتلردا ما كانت تغتسل قط الا استعداداً لعيد كنائسي — وكلاهما استحقا الحرمان في نظر الكنيسة

وقريب بنا عهد زعم بعض المتدينين انهُ يجوز إحراق مخالفيهم واهلاكهم . . . فكأنهم أرادوا ان يتوصلوا الى السماء بجعلهم الارض جحيماً وجهنماً . . . ويا له من سلوك هو ضدُّ تعاليم مسيحهم على خط مستقيم !

ويظهر لي ان توماس اكمبس يشدّد النكير على المتعمقين في دروس الدين ، فهو يحذّر المتعمق بقوله :

إقنع من السرّ سرِّ الدين بالوَشَلِ فهو العميق ولا يصفو لمنتهلِ
ومن تعمق بات الشك يغمره فهو «الغريق ولا يخشى من البللِ»
الله يعلم ما الانسان يجهله والمرء يجهل ما للهِ من عمل

وهذا مما لا ريب في صحتهِ . الا انهُ بالنظر الى الآراء اللاهوتية المتناقضة المنتشرة بين ظهرانينا ، يُصبح قول شاعرنا نصيحة البائس

---

(١) مدام دي ستايل

غير الآمل ان تحلَ تلك المشاكل والمسائل

قال فنلون : «فكّر قليلاً وصلِّ كثيراً» . « ولا أحسن بك من حمل ابنتك على البساطة والسذاجة في ما خص الدين ، اذ حسبها ان تعرف منه ما يمكنها من الايمان فيه والسلوك بموجبه . واياك ان تسمح لها بالتوغّل في الابحاث الدينية » . وجوبرت ايضاً يعدّ التحقيق في الامور الدينية فضولاً مضرًّا لا اكثر ، فانهُ يقول « كم من تقيٍّ اوجده قولنا « خف الله » ، وكم من كافر جاحد اوجدتهُ « البراهين على وجود الله » . وهو نفسه القائل عن الدين : « تحدث فيه ولا تحام عنهُ ، ولا تقم حوله سوراً ، تر الناس اقل استعداداً لمهاجمته ومحاربته »

وانهُ ليستحيل على الاولاد ان يكونوا لاهوتيين وفلاسفة دين ، انما قد قيل « لمثل هؤلاء ملكوت السموات » . ولا شك ان الكبار مطالبون باكثر مما يُطلب من الصغار . ولكن اذا حسبنا هذه الدنيا مركزاً وقتياً للتجربة ، فلا بدع ان كانت محلاً للرّيب والشكوك

ومن يستطيع القول بان عقولنا ولغاتنا قادرة على احتواء اسرار الوجود باسرها ؟ الا ان رفض هذا القول رفضاً باتًّا لا جدر بنا من المصادقة عليه . فان العلم طالما عمل على تعظيم قدر تلك الاسرار في نفوسنا ، وكأنهُ بذلك يشرّف الشك ويقدّسهُ ويصيره واجباً عظيماً احياناً ، كما انهُ خطأ مُبين أخرى . فالشك لا يُبنى على احتقار الحقيقة بل على اعتبارها وقدرها حق قدرها

قيل ، العقل اشبه بالمشكاة في ظلام السجن . وكم نفتخر بكوننا نعقل ونعلل ونتفهم اسباب الامور ، ولكن ما اقلَّ المسائل التي نحلها بالمناضلة والمجادلة ! ! وقد يكون من تأثير الجدل انهُ يحمل السامعين على الاعتقاد بان المتناظرين كلاهما في خطإٍ مبين ، ولكنهُ قلما ينتهي بتغيير اعتقاد واحدٍ منهما . ونصف الانشقاقات النصرانية نتجت انما عن محاولة الاتحاد عن سبيل المجادلة والمحاورة

وفي الامور العالمية ، الصدق هو عنوان الكمال ولا اشرف منهُ ولا أقدس . أما في الامور الدينية فالروح والشعور مقدم على الصدق والحقيقة . ولا مرآء ان كل علم يجب ان يُواصل بشعورٍ حيّ وروح طاهرة ، ولا سيما اذا كان دينيّ المبحث

كل الديانات ، فيها كثير النفع او قليله ، وليس من دين فاسدٍ بالكلية . وقد صدق ما كس مولّر بقوله ان مَن يعرف ديناً واحدًا فقط فليس بعارف ديناً . ويمكننا ان نضيف الى هذا القول ، ان من لا يفهم ويعتبر الاَّ ديناً واحداً فقط فليس يمكنهُ ان يعتبر ديناً قط .

وصحيح غالباً هو قول سرولتر سكوت

ويا ليت لم يُولد على الارض قارئٌ
يشك بما يقرا وبالحق يهزأ

وما الدين دينا الاّ بقدر ما يرتفع بافكارنا من على الارض الى السماء ، ومن المادّي الى الروحي النفسي

والدين انما هو حب الله الرحيم ، وليس خوفَ الشيطان الرجيم

واذا كنا نصنع الخير ونأتي الصالح خوفاً من الجحيم او أملاً بالنعيم ،فهل كان ذلك الاّ حباً ذاتياً وحساباً تجارياً ؟ . ولأن نأتي المبرّة طمعاً بثواب او خوفاً من عقاب ، خيرٌ من اتيان الشر لا مشاحّة ، ولا سيما بالنظر الى موضوع الصنيعة ، ولكنَّ هذا لا ينفي كون الباعث المحرّك مذموماً غير محمود . فالكافر المذكور في قصيدة سر ليل يُحسب اشرف مبدءًا ومقصداً ، فانهُ قدم ذاتهُ ضحية على مذبح الحق ، لا المارب الشخصية

قال جرمي تايلر « ان الامور المذهبية لا تكون جزءاً من عبادة الخالق الا بقدر ما تبعث على حفظ وصاياه وتحمل على اتيان الاعمال الحميدة ، بقدر ذلك فقط تعتبر المذاهب اجزاءًا حيةً من جسم الدين . » والايمان لا يخرج عن دائرة الحكمة طالما يمكن للمؤمن ان يقيم عليه ويحفظهُ من كل ريب وشائبة . الا أنهُ من الخطإِ الفاحش ان نزعم كما يزعم بعض اللاهوتيون... (انظر صفحة٢٠٢) وكلنا يعلم انهُ مع ان الحقائق العلمية الراهنة راسخة رسوخ البناء الشاهق ، فالمسائل والمشاكل الاصلية الاساسية لا تزال اعمق مما تطول يد البحث ، ولا بد لنا في امرها من تأجيل الحكم وارجائه ريثما استطالت تلك اليد شيئاً فشيئاً . ولكن خطة الصبر والتأجيل هذه معدولٌ عنها متنكبة في ما خصَّ الاحكام واللاهوت . وحبذا لو اتبعت في كليهما . والكفر الحقيقي انما هو كفر أولئك الذين مهما كانت ادعاآتهم واقوالهم فانهم يفعلون ويتصرفون كانما لا حياةٌ ابدية ترجى بعد الموت ، وكأن هذه الدنيا

هي الاولى والآخرة ، أو كأنهم يدّعون الاعتقاد بوجود سماء ونعيم ، ويتصرفون على اعتقاد ان تلك السماء ليست الا مكاناً أخف احتمالاً من نيران الجحيم ، لا على اعتقاد ان النعيم اجدر بالذوق والشوق من هذه الدنيا وزخارفها

والايمان بحسب فحوى الكتاب ، انما هو بالاعمال لا بالاقوال ، كما قال الرسول بولس في رسالته الى العبرانيين . واذا كنت لا تسلك بحسب ما تعتقد وتؤمن ، فما أنت بصادق في ايمانك واعتقادك . ولنضرب لذلك مثلاً . ان النيجيين كانوا بالحقيقة مؤمنين بالحياة الثانية . وفي اعتقادهم ان المرء يبعث في العالم الثاني في الحالة التي مات فيها ، فصغيراً اذا توفي صغيراً ، وشيخاً لو مات شيخاً ، وقوياً اذا كان قضى قوياً ، واصمّ اذا اخترم اصمّ وهلم جراً . ولذلك لقد كان يهمهم جداً ان يموت واحدهم مالكاً لجميع قواه وحواسّه ، اي قبلما تفقد العضلات شدتها ، والعين حدّة بصرها ، والاذن قوة سمعها . هذا كان ايمانهم وعليه عاشوا وماتوا . فواحدهم كان يعمل على قتل نفسهِ في زهرة العمر وربيع الحياة . وقد ذكر القائد ولكس انهُ لم يجد في ذات مدينة كبيرة فرداً واحداً تجاوز الاربعين سناً

هذا ما اعده ايماناً . . . . هذا ايمان صادق بحياة بعد الموت ولكن اذا لم يكن اللاهوت وحياً ، فانهُ بالاقل أمل ورغبة . وقد اجاد پاسكال بقوله ان للقلب عللاً ومعلولات وأسباباً ومعقولات لا علم بها للعقل . على انهُ من الاحرى والاولى ان نكل العقل وحده

بآرائنا واحكامنا ، لانهُ على نقصه اقدر دليل على هدايتنا . ولنذكر انهاتهِ الاسرار العميقة الهائلة التي نخبط فيها خبط عشواء تظل جديرة بالاعتبار والوقار ولو عجزنا عن سبر اغوارها واجتلاء انوارها . ولأن يكون موقفنا فوق العقل خير من ان يكون ضدّه . فلقد نخطىء ونغلط مراراً ، اما كل ما هو ضدّ العقل فهو خطأ خارج عن دائرة الصواب لا يُتاح له دخول فيها . والاولى ان نعتبر اعتقاداتنا وقتية احتياطية ، في كل حال . وما تصديق السرّ المجهول واعتقاده الا قول فاسدٌ متناقض الدلالة والمضمون

وخطاب المسيح المعروف بعظة الجبل خطاب لا نستطيع ان نمسه بتحسين او تكميل ، واذا حاولنا ان نضيف عليهِ شيئاً فبكل الاعتناء ينبغي ان نقدم على ذلك

قال جُوَتْ : « ان في اللاهوت « كلمات » غير محدودة الدلالة وهي التي اشغلت عقول البشر لعصورٍ بعد عصور — كلمات تلقى وتقبل على عواهنها — يبرهن بها الناس ويعللون اقوالهم بدون أن يعللوها ويبرهنوها[1] وكم من التحزّبات الدينية ما قام على كلمات مبهمة المراد لا قِبل للمتحزّبين بتفسيرها »

وقال رنان « الديانات عبث كالفلسفات ، ولكن عبث الدين ليس باكثر من عبث الفلسفة »

ومحاولة الاضافة على تعاليم المسيح والتحسين فيها ، تلوح كمحاولة

(١) اي تلك « الكلمات »

العبث ، بل انها جارحة مؤلمة في ذاتها . ولا شك ، لاذّة هي الابحاث اللاهوتية ، ولكنها ليست روح الدين وجوهره ، بل درسه وعلمه . وليس اللاهوت ديناً . واللاهوت رياضة يمارسها العقل . اما الدين فعاطفة يحيا بها القلب . والخلط بين الاثنين خطأ عظيم طالما أدّى الى نتائج وخيمة . وكم سببت الانشقاقات اللاهوتية من حروب طاحنة ، ومذابح جرت فيها الدماء انهاراً ، وكم من ألوف أذيقوا حتوفهم ، وصرمت آجالهم ، وعُذبوا ولُوّعوا ونكل بهم تنكيلاً — كل ذلك في سبيل اللاهوت والعقائد . ومن سقطوا وافترسوا غنائم باردة في تلك الحروب ربما كانوا مسيحيين أو لم يكونوا . ولكن مَن ثاروا الافكار وهاجوها باسم الحقائق اللاهوتية ، أولئك لا شك انهم لم يكونوا من المسيحية الحقة على شيء . اذ مَن يستطيع ان يتصور ان عيسى كان ليوافق على تلك الافعال النظيعة ويحلّلها — تلك الافعال التي لا تزيد الاّ فظاعة بانتسابها الى الدِين وتظللها بلوائه

وتلك الحروب — التي تسمى دينية ، انما كذباً وزوراً — مهما عظم اعتبارنا للعواطف والبواعث التي أورت اوراها وأضرمت نارها ، اجل ، انها لفي عداد الحروب الوحشية البربرية التي تأنفها النفس وتأباها . والحروب الصليبية ، كثيراً ما نعدها من باب تكريس النفس والتضحية بها ، ونحسبها شريفة من اجل ذلك . والحق يقال انها لكذلك من احد وجوهها . فكثير من تلك الجنود ، وبعض من اولئك القواد كانوا مدفوعين مندفعين بعواطف ومحركات طاهرة

وسامية ونبيلة . ولكن ما كان اجهل واضلَّ واشر ، أولئك الذين كانواهم المسببين البادئين لتلك المشاغبات الرائعة التي تحولت الى هذه المعارك الهائلة ! ! ! « انظروا انظروا الى التعصبات ، الى الاضطهادات ، الى الحروب الدينية ، الى الجنون الدموي الذي لم يحسبهُ الاقدمون جنوناً . واذكروا الحروب الصليبية ، تلك المذابح والمجازر التي أجرت الدماء غدراناً وأنهاراً ، مدة مائتين من السنين الطوال ، واذكروا تلك العبارة التي كانوا ينشدونها ويترنمون بها — هكذا يريد الله — ثم انظروا الى الغاية التي كانوا يتسابقون اليها — امتلاك قَبرِ مَن علَّم الناس الحبَّ والتسامُحَ . واذكروا فظائع طرد اليهود والمورة من اسبانيا ، وقرض تلك الاقوام عن بكرة ابيها . وانظروا الى برك الدم وخلجانه ، الى تلك المحاكم (الهرتقية) . . . الى فتوحات المحمديين في ثلاث من قارّات الارض ، او فتوحات المسيحيين في قارة اميركا ، تلك الفتوحات التي أفنت اهالي كوبا عن آخرهم ، وكادت تفني القسم الاعظم من سائر السكان . والمتسمون مسيحيين ، في نحو ٤٠ من السنين قتلوا ١٢٫٠٠٠٫٠٠٠ من النفوس — كل ذلك في سبيل انتشار انجيل المسيح ، ولان القوم حسبوا كل ما خرج عن المسيحية خارجاً عن الانسانية ايضاً . . . » (١)

وحتى في بلادنا ، نحن الانكليز ، ترى اللاهوت مقسماً الدين وابناءه الى شيع واحزاب متضادّة متعادية . (٢)

---

(١) Schopenhauer (٢) اخي الشرقي ! كيف انت والتعصب الديني ياترى ؟ - المعرب

وكم يلذ لنا ان نعرف عن كيان الكون اكثر مما نعرف ! انما نقنع بما عندنا ولنتجمل صابرين . واني لاشعر مع القديس أوغسطينوس القائل : « ليتناضل الناس فيما بينهم ، اما انا فاتأمل واتعجّب »

اما الرغبة في الابحاث اللاهوتيه من حيث اعتبارها اساساً للدين، فليس يُنكر وجودها ولا بد لنا من تعرّفها والاعتراف بها . وبين جميع الكنائس ، لا كنيسة تظهر لي أوسع نطاقاً ، واكثر تساهلاً وتسامحاً أو أميل الى التقدم ، او اكثر حريّةً وشمولاً ، من كنيسة الامة »[1]

قال هكسلى : « لا يشق على ان اتصور قيام « كنيسة »[2] تكون بركة شاملة لابنائها ، كنيسة تقام فيها العبادات اسبوعاً فاسبوعاً ، انما لا لاجل تكرار تلك الطقوس اللاهوتية الرمزية ، بل لاجل نصب مثال ازاء عيون العابدين ، مثال المعيشة الصادقة الطاهرة ، كنيسة يدخلها المتعبون من احمال الحياة اليومية فيشعرون براحة زمنية بتأمل تلك الحياة العليا التي لا يعرفها الا القلائل المعدودون ، كنيسة يدرك فيها رجل الجد والمجاهدة ، رجل المال والاعمال ، حقارة الجزاء والمكافأة التي ينالها لقاء كده ونصبه ، اذ يقابل بينهما وبين «السلام» «والاحسان» . ولأوخذ بقولي « لئن قامت كنيسة على هذه الدعائم فلا يقوم لها ناقض ولا هادم »

---

(١) المذهب الانكليكاني مذهب الحكومة الانكليزية (٢) قد تستعمل الكنيسة بمعنى المذهب

الفصل السابع عشر

السلام العقلي

سلام المرء العقلي منوط به — الاضطراب الذي في غير محله — النوم والهموم — الهجس بالمصائب — مثل شرقي — قول جنسن في الاهانة — الفضول — المصاعب — القلق والاعمال — مكتبة مستر غلادستون — عمل المرء لذاته وعمله لغيره — العالم — الوصايا — الحياة الصالحة — الريب — الديانات — المضادة — الوعود الكتابية — السلام

كثيراً ما يُشبه السلام الدولي بالسلام الافرادي ، وهو تشبيه قريب من جملة وجوه . فهو صحيح ان حفظ السلام افضل من ربح معركة ، ولكن هنالك فرقاً مهماً . فالامة مهما كانت رزينة وعادلة ، لا تروم افتراءً ولا اعتداءً ، فقد يتعذر عليها ان تحمي علم السلم من التنكيس ، ذلك لانها قد تُبلى بأمة مجاورة متاخمة لها ، تكون ثائرة ، ذات مطامع ، عديمة الرزانة ، لا ترعى للجوار حقاً ولا تحفظ ذماماً ، فتناصبها العداء وتشهر عليها الحرب عواناً

اما السلام العقلي فلا أحد يستطيع ان يُعكّر صفاءه وينكّس لواءه ، الا صاحبه نفسه . ولا شك انهُ قد يصعب احياناً ان نسوّي بين الامور تمام التسوية : « لقمة يابسة ومعها سلامة خير من بيت ملآن ذبائح مع خصام . حفنة راحة خير من حفنتي تعب وقبض الريح .

القليل مع مخافة الرب خير من كنز عظيم مع هم ٠ اكلة من البقول حيث تكون المحبة خير من ثور معلوف ومعهُ بغضة » (١)

وكثيراً ما يُتعس الناس النفس و يُشقونها بتعليقهم كبير الاهمية على الطفيف غير ذي البال من الامور . وكم يتفق انهُ ، بينا ينابيع السعادة الرئيسية مترقرقة في مجاريها — اي اذ الجسم بصحته ، والاهل والخلان على غاية ما يرام ، والدخل فائض عن الخرج ، ولا داعي حقيقياً للقلق والاضطراب — قلت ، بينا هذه هي احوال المرء ، فقد تبدو له طفيفة حال ، او يزل زلةً صغيرة ، او قد يغلب في لعبة في بيته ، او يسبقهُ القطار من المحطة او تُوجه اليهِ « ملاحظة » تنكيتية او انتقادية . . فتنسدل غيمة كثيفة فوق شمس حياته وتظلم الدنيا في عينيهِ — بل قد يخيم فوقه مثل تلك الغيمة بدون اقل سبب من مثل هذه الاسباب الظاهرية الوهمية . فالعقل عرضة للمرض كالجسم وكم يضعف ويمرض . اماشفاؤه فضروري كشفاء الجسم ولكنه اصعب منه معالجة ومراساً

ومهما كثرت المصائب وتعددت فانها قد تظل اقل من ان تسبب لنا حزناً واحداً عظيما ، اذا كنا نأبى ان نجمعها بعضاً الى بعض . فالمصائب يجب أن تحفظ كلٌّ على حدة ، وتعالج كل لذاتها . لان مصائب الحياة اشبه بالعصيّ المذكورة في « حكاية الشيخ واولاده » تلك العصي التي اذا فرّقتها كسرتها واحدة واحدة ، واذا جمعتها

---

(١) اقوال لسليمان الحكيم

وضممتها معاً ضقت بها ذرعاً وعجزت عن كسرها

وكل يستطيع ان يُسعد فرداً ـ هو ذاته ـ اذا عرف من اين يأتيه . وليحرص كل انسان ان يدع فكره في سلام وطمأنينة خالياً من الهواجس والمطامع . والمرء وحده يستطيع ان يفعل هذا بنفسه وليس لسواه ان يساعده بشيء في مثل هذا من امره . « من لا يجد الراحة في داخله ، فعبثاً يبحث عنها خارجاً »

هذا فقير انما احلامه ذهبية فهو القنوع وذوالغنى
ذاكم غنيٌّ انما افكاره توليه اتعاباً وتوليه عنا

والليل يكبر اشباح المصائب ويزيدها طولاً وعرضاً . فكم مرّة يخيم الظلام ، ويسود السكون ، واذا بالمخيلة ملأى من الافكار المتراوحة ، والدماغ التعِب رغماً عن تعبه يشتغل ضد ارادتنا ويدعو المصاعب الوهمية ، ويحاول حل مشاكل لا حلّ لها ، ويستحضر الارواح والاشباح ، او لعله يقتصر على تعداد وتكرار مالا نهاية من تكراره وتعداده — فنتمنى اذ ذاك لو نستطيع غرقاً في بحر السبات او نبيت ولسان حالنا قول الملك هنري (انظر صفحة ٣٦)

اننا لنعذب انفسنا اكثر مما يستطيع الغير ان يعذبونا . وانكى المصائب تلك التي لا تقع ولا تحل بنا مطلقاً . ولنذكر اننا بقدر ما ننسى انفسنا ونهتم بالآخرين كذلك تزيد سعادتنا ويتوفر هناؤنا . وقد قيل « لا يرتاح المرء الاّ بنسيانه نفسه » . فضلاً عن ذلك اننا كثيراً ما نعذب النفس باطلاً وعبثاً . قال شيشرون : « من الجهالة

ان تقرَّ فكرك على بلية ربما تأتي ، او على بلية قد لا تأتي ابداً . فكل بلية اذا نزلت بالمرء أثقلتهُ هماً وحزنا واما من لا يفتأ يعتقد ان البلايا ستدهمه فماهو الا محمّل نفسهُ من البلايا ما ينوء به ويرزح تحتهُ. و بلاياه قد لا تقربه بأذًى ولكنهُ من جرّاء توقعه لها وحسبانه لحلولها يفقد هناءه وراحة باله، حتى كأنها اثقلت منكبيه وهدت عاتقة » . والمصائب التى تلمّ وتنزل ، قد لا نزيد خطبها الا جسامةً بصرف جملة قوانا الفكرية اليها وزيادة التحديق فيها . « والموت اذا كنا لا نفكر فيه اسهل من الخوف حيث لا خطر يتهدد »

يقول المثل الشرقي « من يدخل بيت السعد من باب المسرة ، يخرج منهُ من باب الارتباك والحيرة » « والخطيئة ، هي شرٌّ استعباد في العالم . فانها تذلُّ نفس المرء وتحطها الى الحضيض ، بل تتركه دنيئاً ووضيعاً لدرجة ان يُعدم شجاعة ينهض بها وينجو من سقطته »

ومهم هو رأي الآخرين فينا ، اما رأينا في نفسنا فاكبر أهمية

ولماذا تُرانا نسلط الغير علينا ؟ او لماذا نسلم قيادنا لشهواتنا واهوائنا ونبيت عبيداً لها واسرى؟ والمثل الشرقي يقول « الخجل عقيب الجهل ، والندم عقيب الغضب » . وهاك نصيحة الدكتور جنسن : « غض الطرف عن الاهانة واطوِ عليها كشحاً . فهيهات للحماقة ان تستحق حقداً . وافضل عقاب على الشر ، اهماله واغفاله ». واذا كنا نبدي اجتراحنا وانقباضنا فلا نكون الا مظهرين نفس ما يتمنى العدو وكأننا

بذلك نكسبهُ نصراً وفخراً . وبالعكس اذا قابلنا هجومه بابتسامة ، ولو تكلفاً وسخريّةً فانهُ يشعر اذ ذاك انهُ هو المغلوب المدحور

وقد قال توماس اكمبس :

اذا انت خلّيت الأنام وشأنهم تراهمُ قد خلّوك انت وشأنكا

وهو القائل :

اذا المرء لم يحمل من الناس اقوالاً وهذراً وأعمالاً وشأناً وافعالا
غدا مستريحاً ذا سلامٍ مكملٍ وعاش سعيداً ليس يُشغل بالا
وأنّى لذيّاك الفضوليّ راحةٌ ! كأني بهِ ساعٍ يروم مُحالا

وكأني بالذين ينعكفون على أمورهم وينصبون عليها انصباباً ، يكرّسون تلك الامور ويكرّسون ذواتهم بتكريسها (١) . وليست العبرة الاولى بنوع العمل ، بل بالطريقة التي يتمم عليها . ولما سئل تُرنرْ عن سرّ نجاحهِ في دنياه ، قال « انما السرّ — الكد والجد » . واذا كان المرء يرغب في سعادة الناس ، ولا يمر عليه يوم لا يأتي فيه شيئا من الخير ، فكيف لا يكون سعيداً

لا افراح بدون اتراح ، في هذه الدنيا . وما كانت الحياة الاّ الا لتملّ لو لا ما فيها من الصعوبات التي نتحرك لتجاوزها . والالعاب لا لذة فيها الا ما يشعر بهِ كلا الرابح والخاسر اذ هما يتنازعان جعالتها ويتباريان اليها . والنصر لا يُعد نصراً الا اذا كان الخصم من اهل الضراب والطعان وابن المضمار والميدان

---

(١) كلمة المؤلف هنا قد تتضمن معنى التقديس ايضاً

وسواء رضينا أم لم نرض ، ما الحياة الا امتحان ، يكرم فيه المرء ويُهان . وليس من عذاب نقاسيه ولا نستفيد مما فيهِ . وقليلة هي اللعنات التي اذا تدبرناها لا نجدها بركاتٍ في غير زيها . والغلطة اذا كانت غلطة شريفة (اي آتيةً عفواً) فقد لا تنتج سوءاً ، بل ربما أتت كمثالة مفيدة ، وانقلب شرها خيراً

ومن كان غنياً وكان شديد القلق على امواله ، فما ذلك لانهُ ربّها ومالكها ، بل لانهُ عبدها ومملوكها . ومن الجهل ان يتعاطى المرء عملاً لا بد معهُ من القلق والاضطراب ، بل ان ذلك العمل لا يكون تجاريا حقيقياً بل محض « مضاربة » ، ونسبتهُ الى التجارة كنسبة التنجيم الى علم الفلك . . ولا يخفى ان العمل الذي يظهر سليم العاقبة في اول الامر قد يكون وخيمها في آخره . ولست لاقول ان التاجر يمكنهُ ان يسلم من القلق والاضطراب : فالخسائر وحتى الخراب الكلي قد تدهم حتى الحازم البصير — انما هذه طوارىء حدثان ، وليست من الملحقات اللازمة لضروب التجارة . فالفلاحون مثلاً ليسوا « بمضاربين » ولا يعهدون عرضة للهواجس والاهتمامات ، ولكنها تنتابهم في اوقات القحل وأوقات الطوفان ، وحينما تهبط الاسعار أو تمحل الغلال

ورغماً عن ذلك فانهُ ممكن — ولست لأقول « سهل » — اجل ممكن للمرء ان يعيش بخلو البال وسلام النفس ، حتى في وسط كثرت حركته وعلت ضوضاؤه . ومن وجد الامر مستحيلاً فخيرٌ

له ان يعتزل الاعمال [١] والحركة ويلزم سكون بيته ، اذ ما ذا يجديه ان يُهلك « نفسهُ » فدًى للاصفر الرّنان

بعض الناس يجدون راحتهم في الحركة ، و بعضهم يكونون على اشد ما يكون من الحركة اذ هم في حالة الراحة والسكون

وليس يتسنى للمرء ان يضمن لنفسه السلام وراحة الفكر ، بمجرد اعتزاله عالم الحركة واختلائهِ في كوخ في البرية . فربما كانت صغار الامور مسببةً للقلق والاضطراب كالأعمال التجارية والشؤون السياسية. واذا خلا الفكر امتلأ الضمير . والسلام انما هو سلام الفكر . واذا كان العقل في ارتباك وهيجان فلا سلام ولا أمان . وغلادستون ذلك الرجل العظيم الذي لم يتفق لرجل آخر ان يوجد في محيط اشد ضوضاءً من المحيط الذي عاش فيهِ ، كان اذا خرج من مجلس النواب أودع ضمن جدرانهِ كل مشكل وكل مُهمة ، واتى منزله خِلواً من كل هم ، وكان يطلق على مكتبتهِ اسم « هيكل السلام » . فاذا كان وزير انكلترا الاكبر ، على عظم المسؤولية التي كانت ملقاة على عاتقهِ ، قدر ان يجعل بيته هيكل سلام ، فبالاحرى ان يقدر كل انسان سواه ان يجعل عقله معبداً للسلام مقدساً

والسلام البيتي مترتب على اهله وسكانهِ ، وسلام كل فرد منوط بهِ لا غير . قال هَايْر « جرت العادة في رومية ان العروسين يحضران أول قداس في حياتهما الجديدة في « كنيسة السلام ـ كنيسة

---

(١) يريد المؤلف بالاعمال « التجارية » منها

القديسة مريم » ويضرعان اليها ان تنشر لواء السلام فوق حياتهما الزوجية »

وربما كان العائشون في القرى والحقول اقوى من سكان المدن على احتمال المزعجات البيتية العائلية . اما التجار واصحاب المعامل الذي يقضون النهار بطوله بين الدفاتر والمناضد فمن الضروري لهم ان يخصصوا قسماً من وقتهم لاجل الخلو والراحة ، بعد ذلك الانهماك والتعب . فانهم يستمرون مع توالي الساعات وفكرهم في الريالات والجنيهات بل وفي البارات والمليمات الى غير هذه من المتعلقات والملحقات . ولنذكر ان سرّ النجاح انما هو في التأني والسكينة ، وتبعاً للمثل الصيني « الصبر والمثابرة يصيران ورق التوت حريراً يُلبس »

وهنالك ثلاثة أشياء لا تشترى ولا تباع : الصحة — السعادة — السلام . ولكن مع ان هذه الثلاثة اثمن من ان تثمن وتشرى ، فانها قريبة المنال من كل انسان يريد ان يقتنيها لنفسهِ ، وما عليهِ الاّ ان يريد ويختار

يزعم البعض ان لا سلام في الحياة . وهو زعم بعيد عن محجة الصواب . فقد قال ماركوس اوريليوس « عِش مع الالهة ! وكل امرءٍ يعيش معهم ، اذا كان يظهر لهم ان نفسه مرتاحة الى الفروض المعينة له ، وانها لا تحيد عما يريده « الملاك الحارس » . وهذا الملاك الحارس انما هو فهم المرء وعقله لا غير »

وكلنا يعلم كم يسهل على المرء ان يشقي نفسهُ بنفسه . اكثر من

الاكل والشرب ، وقلل من الرياضة وانتشاق الهواء النقي ، تسبب لنفسك علة سوء الهضم وتبيت عالةً على عائلتك . او اصرف اكثر مما تدخل — او بت حسوداً ، وسوّاء الظن ، او محباً للذات ، أو عديم الشرف والمبدأ . . . اجل لا اسهل من ذلك . ولكنهُ ليس بالسهل ان يسعد المرء نفسهُ ويصبح بركة شاملة لكل من حوله — على ان ذلك من الممكنات

واذا كنت تشتغل لاجل نفسك فقط فلا تسلم من الشعور بانحطاط قواك وخوار عزمك بحيث تقول مع سليمان : لذلك كرهت الحياة ، لان العمل الذي يعمل تحت الشمس يحزنني . لان الكل باطل وقبض الريح . ولو ان سليمان صرف همته الى اسعاد شعبهِ وعمل على انارة ظلماتهم لكان عاش سعيداً وكفي مؤونة الندم على اتعابه

وقد صدق ستيفنسن بقوله ألاّ احد يكون عديم النفع طالما له صديق . ولكن لماذا يكون المرء عديم النفع على حين المحتاجون الى المساعدة كثيرون ؟ والمرء قد يكون حقيراً وضيعاً ، ولكن ذلك لا يمنع من اتيانه نفعاً يذكر : فالفارة على ضعفها خلصت الاسد مرة من حبائل الموت

اننا عائشون في عالمٍ جميل جداً ، ولكن قليلة هي الصالحات التي تنال عن غير سبيل الاجتهاد . فانهُ ليس بعالمٍ يُفلح فيهِ خوّار العزم وسريع الفشل . الثبات والكد والجد — هذه هي الطريق الى النجاح .

ولا بأس من ذلك ، فان الشغل ضروري من اجل السلام العقلي ومن اجل الصحة ايضاً

والوصايا العشر ، هي قواعد ذهبية يجدر بنا ان نسلك بموجبها في جميع تصرّفاتنا الافراديّة والاهلية ، بل انها أوامر يجب ان نصدع بها سواء اثابتنا السماء او عاقبتنا جهنم ، لان اتباعها يؤول الى خيرنا في كل حال

والاتعاب التي نمنى بها ليست في طبيعة الامور التي نتعاطاها ، ولا هي تأتينا من الخارج ، بل انها منا وفينا . واذا هبَّت عواصف العالم ، فلا غيرنا من يثيرها ، ومن ثمَّ وجب علينا نحن ان نتقيها ونتحفظ منها صابرين . فالمصائب لا بدَّ لنا منها ، انما ينبغي لنا ان نقابلها بما عندنا من البركات مما يوازيها ويرجح عليها . وكل ماهو مطلوب منا عائدٌ علينا بالنفع لا محالة ، وكل مُنكرٍ منهيٌّ عنه لا حكمةَ في فعله ولا صلاح . فذو الحدّة والنزق يشقي نفسهُ بنفسه — والبخيل العائش بالتقتير لا يذوق لمنفعة ماله طعماً . والنَّهم والسكير يتركان ملذّة الاكل والشرب الطبيعية سبباً للشقاء والانحطاط — ومن يشتغل سبعة ايام كل اسبوع تنحط قواه ويقصّر عن شأوه — والجاهل والكسول لا يعرفان شيئاً عن عالمنا الجميل ، فتفوتهما ملذات الفنون والآداب والعلوم — وعديم الحنان ومحب الذات لا يشعران بنعمة ثقة الاصدقاء والاقرباء ولا ببركة المحبة المتبادلة . والرجل الطالح يستمر على انحطاطه وسقوطهِ من يوم الى يوم ، فلا يعتم ان يرى نفسه ألعوبة بين ايادي الشقاء والاعداء ،

بعد ما يكون قد اتلف عقله وجسمهُ جميعاً فينتبه اذ ذاك لامرهِ ويُلفت نحو المستقبل فلا يزيد شقاوءه الا شدّةً واهوالاً . وبعكسهِ الصالح فانهُ على توالي سنيهِ يرى الحياة اكثر سهولة وأوفر سعادة ، يعيش وضميره على سلام ، وافكاره وتذكاراته سعيدة وجميلة ، ويرى نفسه مُحاطاً بالاصدقاء الاوفياء ، عائشاً في بيت تخفق فوقهُ أعلام السلام والسعادة

دع ندى اللطف يُرطب لك طريق الحيـاة ، فلا تعود عينك تقذى بغبارها . وكن شديد الحكم على نفسك ، وكثير التساهل مع الاخرين . « واذا دعا داعي الموت فعندئذ لا نندم على الحلم بل على الشدّة والظلم » . واللطف في المعاملة أفعل من العنف . وجرّب دائماً ان تحسن الظن في الناس واعتبرهم موضعاً للثقة ، فقد تحملهم بصنيعك هذا على الأمانة وصدق النية وسلامة الطوية

وربما استحال علينـا ان نعرف من اين اتينا والى اين المصير ، ولكن قلوبنا لا تشكُّ في اي هو الواجب واي هو الحق . فلنصغ الى صوت الضمير ونعتبر كلا امره ونهيه

قيل ان قرويًّا سمع مرّةً عظةً جدليةً قصد فيها الواعظ ان يبرهن وجود الله ، وبعد ان استوعبها جميعاً قال انها حافلة بالافكار العلمية ولكنها لم تحدث بهِ تغييراً ، فانهُ ما برح يعتقد وجود الله كما كان من ذي قبل . وكم اشكُّ أن الابحـاث اللاهوتية تعمل على تثبيت الدين وتقوية عوامله . وقد قال احد القديسين : « أتجذبني

الى ذاتك يا الاهي ؟ ولست لاحبك اكثر مما احبك طمعاً بالسماء ، ولا لاخافك اكثر مما اخافك خوفاً من الجحيم »

قالت مدام دي ستال « اذا اردنا تسكين ثائر النفس ، فلنقدم لها مايميل بها عن مزعجاتها ويبعدها عنها ، عوضاً عن مقاومة مسببها ومحاربته — هذه هي الطريقة المثلى »

لو اننا ربنا نلقي عليك عناً به ننوء اذاً ما كان اسعدنا
كنا نعيش وترعانا بحكمتها عين الذي اوجد الدنيا واوجدنا[1]

واذكروا وعوده تعالى : « لا تخشى من خوف الليل ولا من سهم يطير في النهار ، ولا من وباء يسلك في الدجى ولا من هلاك يفسد في الظهيرة »[2] « ما لم تره عين ولم تسمع بهِ أذن ولا خطر ببال انسان ما أعدّه الله للذين يحبونه »

وقد قال المسيح : « تعالوا الي يا جميع المتعبين والثقيلي الاحمال وانا اريحكم » . ولكن لا سلام للاشرار يقول الرب . فاضطرابهم عاقبة خطاياهم

كالراحة للجسد ، كذلك السلام للعقل . والسلام انواع : فسلام داخلي ، وسلام خارجي ، وسلام ابدي ، وسلام مع الناس ، وسلام مع الله ، وسلام المرء مع نفسه . قال فنلون : « اطلب الله في داخلك تجده لا محالة ، وتجد الفرح والسلام معهُ . وان كلمة من المسيح سكنت

---

(١) ترنيمة ٢٧٦ (٢) المزمور ٩١ - ٥

ثائر البحر وهائجه ، ولنظرة واحدة منهُ تفعل بنا مثل ذلك » . واذا كنا لا نفلت من قبضة القلق والاضطراب ، فما ذلك الا لاننا لم نسلّم على مواطن السلام ولا تعرّفناها

ولكن بينما نحن نصلي قائلين « لتكن مشيئتك » نعيش ولا نفعل الا مشيئتنا

والرسول بولس يأمرنا قائلاً : افرحوا في الرب كل حين واقول ايضاً افرحوا . ليكن حِلمكم معروفاً لدى جميع الناس . الرب قريب . لا تهتموا بشيء بل في كل شيء بالصلاة والدعاء مع الشكر لتعلم طلباتكم لدى الله »

الفصل الثامن عشر

السلام الدُّوليّ

حالة اروبا الحاضرة — مصاريف التسليح والتجنيد الفاحشة — التحكيم — غمبتا — اهوال الحروب — بطلانها — مصالح الامم المشتركة — مقابلة بين البحريات — مقارنة بين اوربا والولايات المتحدة — سياسة اوربا — الحواجز الدولية — تأخير التجارة — الاتحاد الاوربي — لورد سالسبوري — مستقبل اوروبا

سلامة البلاد ليست بسلاحها ولا بثروتها بل باصدقائها — سلست

ان حالة اوربا الحاضرة لخطرٌ وعار علينا جميعا . ولقد تعذر القبائل البربريّة أن تحلّ مشاكلها بحد السيف وسنان الرمح ، اما تعويل الامم المتمدنة على الحروب فمغاير لأدب النفس ومخالف لسلامة الطبع . فحتى معدّات السلم اليوم تشتمل على ٤٠٠٠٠٠٠٠ نفس ، اما مُعدّات الحرب فتزيد عن ١٠٠٠٠٠٠٠٠ واذا تمت المشروعات المعروضة بلغ عدد النفوس ٢٠٠٠٠٠٠٠٠ ونيفاً . اما المصاريف المقرّرة فتبلغ ٢٥٠٠٠٠٠٠٠ جنيهاً واكثر . فضلاً عن ذلك لو شغلنا اولئك الـ ٤٠٠٠٠٠٠٠ من الرجال وحسبنا معدل نتيجة الواحد منهم ٥٠ جنيهاً ، لاضفنا على الـ ٢٥٠٠٠٠٠٠٠ المذكورة ٢٠٠٠٠٠٠٠٠ أخرى من الجنيهات ، فكان مصروف أوربا الحربي ٤٥٠٠٠٠٠٠٠ جنيهاً سنوياً

والمقارنة بين قوات الدول ومصاريفها صعبة جداً ولكنها غير مستحيلة واليك جدولاً احصائياً للبريات والبحريّات في اوربا وفي اميركا

المملكة	تحت السلاح	المصروف السنوي
انكلترا	٤٢٠ ٠٠٠	٦٥ ٠٠٠ ٠٠٠ جنيه
روسيا	١ ١٥٠ ٠٠٠	٤٦ ٥٠٠ ٠٠٠ »
المانيا	٦٦١ ٠٠٠	٤٣ ٨٠٠ ٠٠٠ »
فرنسا	٦٢٠ ٠٠٠	٤١ ٠٠٠ ٠٠٠ »
النمسا	٣٨٤ ٠٠٠	١٩ ٤٠٠ ٠٠٠ »
ايطاليا	٣٠٥ ٩٠٠	١٧ ٠٠٠ ٠٠٠ »
اسبانيا	١٠٠ ٠٠٠	٦ ٧٠٠ ٠٠٠ »
اسوج ونروج	٧٣ ٠٠٠	٥ ٥٠٠ ٠٠٠ »
تركيا	٣٧٠ ٠٠٠	٤ ٨٠٠ ٠٠٠ »
هولاندا	٣٥ ٠٠٠	٣ ٦٥٠ ٠٠٠ »
بلجيكا	٥٠ ٠٠٠	٢ ٥٠٠ ٠٠٠ »
البورتغال	٣٤ ٠٠٠	٢ ٦٠٠ ٠٠٠ »
السويسرا	١٤٨ ٠٠٠	١ ٣٠٠ ٠٠٠ »
اليونان	٢٣ ٠٠٠	١ ٢٠٠ ٠٠٠ »
الدانيمارك	١٤ ٠٠٠	١ ٢٠٠ ٠٠٠ »
بلغاريا	٤٣ ٠٠٠	١ ٠٠٠ ٠٠٠ »
الولايات المتحدة	١٠٧ ٠٠٠	٤٠ ٠٠٠ ٠٠٠ »

وهذه الخسائر الجسيمة من نفوس وقوى بشرية ، ليست لتسد فم المطامع المفغور ، بل اننا لا نزال نبني السفن الحربية ونجند الشبان. ولا يخفى ان هنالك اعتبارات أخرى هي اهم واسمى من امر المال في هذا الشأن ، ولكن المال نفسهُ عبارة عن عرق الجبين ودم الشرايين ، اللذين يراقان بتحصيله . ولا ندحة لمن يتأمّل معدات هـذا العصر الحربية ، البرية والبحرية منها ، عن الشعور المحزن بسوء المصير . وهب انها لن تستعمل في حرب ، افلا يكفي انها قد تؤول الى عجز الامة ، وخرابها الماليّ ؟ فديون الدول الاوربية المشهورة تتزايد وتتعاظم سنةً فأخرى . فاثناء الثلاثين سنة الاخيرة كانت :

	جنيه		جنيه
ديون ايطاليا	٤٨٣ ٠٠٠ ٠٠٠	فبلغت	٥١٦ ٠٠٠ ٠٠٠
« النمسا	٣٤٠ ٠٠٠ ٠٠٠	«	٥٨٠ ٠٠٠ ٠٠٠
« روسيا	٣٤٠ ٠٠٠ ٠٠٠	«	٧٥٠ ٠٠٠ ٠٠٠
« فرنسا	٥٠٠ ٠٠٠ ٠٠٠	«	١٣٠٠ ٠٠٠ ٠٠٠

واذا جمعت ديون حكومات العالم جميعاً لسنة ١٨٧٠ بلغت ٤ ٠٠٠ ٠٠٠ ٠٠٠ جنيهاً — ويا له من حملٍ تميد بهِ الجبال ثقلاً ! ! ولكن انظر ما اجسمهُ اليوم ، بعد ما بلغ ٦ ٠٠٠ ٠٠٠ ٠٠٠ جنيهاً ، ولا تنس انهُ ابداً متزايد متعاظم

قال سياسي ياباني : لما كان ابناء وطني لا يصدرون الاّ الاشغال

اليدوية الجميلة ، كانت اوربا تنظر اليهم نظرها الى الشعوب البربرية ، اما اليوم وقد قتلنا عدة آلاف من الرُّوس ، فانها تعترف باننا حقيقة أمة متمدنة

يقال ان كل أمة تغار على مصالحها ويجب عليها ان تحميها — ولكن اعظم مصلحة للامة انما هي « السلام » . واذا ذكرنا الحرب فغالباً ما نتصوّر أُبهتها ومظهرها ، من الحان موسيقية وملابس رسمية ، اما الحراب التي تقطر دماً فقلما تخطر ببالنا . ومخيف وهائل هو تأمّل مشاهد الحرب والقتال . ومن يقرأ وصف الحرب الروسية — اليابانية ولا يشعر بهزة الرحمة ورعشة الرعب ؟

فضلاً عن ذلك ، ان الحروب لا تنتهي بنجاح او ارباح طالما المسئلة هي اي المتحار بين اجسم خسارة من الآخر . وكما قال الديوك اوف ولنكتون « لا شيء الا معركة خسرت ، يوازي نصف الأسف لمعركة تربح . ولا شيء أتلف للبلاد من حربٍ تنجح فيها ، الاّ حرب لا تنجح فيها »

« حيثما تحلّ الجيوش ، هنالك ينبت القتاد والشوك . وفي الطريق التي يمرُّ فيها الجيش الكرّار ، ستمرُّ وتكرّ سنوُّ الخراب والدمار » . فكتور كوزان (١) ، في مقدمته لتاريخ الفلسفة ، يذكر الحرب ويقول انها آلةُ التمدن ، ولكنها آفته ايضاً . ويقول ايضاً ان الحرب مؤسسة على صخرين هما — ساحة القتال ، وخلوّ المجلس (٢) . واذا رمت

---

(١) Victor Cousin (٢) يريد المكان الذي يجتمع فيها ارباب السياسة

الحقيقة عن الحروب ، فقل ان اهوالها لا تبرح تحلُّ محل بركات الفكر والسلام . وما النصر الاّ الغلبة تحت مظهر آخر . وملتون يقول « من يغلب خصمهُ بالقوة ، فما هي الا نصف غلبة » . واذا رمت قولاً المانياً في هذا الصدد ، فاليك عبارة شلي : « العدوُّ المغلوب قد يشتدّ وينازل ثانيةً ، اما المُصالح فهو المغلوب غلبة حقة» . وجو برت الكاتب الفرنساوي يقول « ما أخذ بالحرب ، بالحرب يُؤخذ ، وكل سلبية تستردّ يوماً ، وكل غنيمة تنتثر هباءً ، وكل الغالبين يغلبون ، وكل مدينة مملوءة غنائم تؤخذ وتغتنم في دورها» . والتاريخ مؤيّد لهذا القول تأييداً صادقاً ، فكم من دول اشتهرت بغلباتها وغزواتها ، ثم دالت وانقرضت وصارت خبراً يتداول

وهلاّ نستقل مصائب الحياة واخطارها و بلاياها حتى نعمل على ايجاد سواها ؟ وهل تعوز الطين بلة ، والطنبور نغمة ؟فها الفقرمضرو بة اطنابهُ ومرفوعة قبابه — والقحل والمحل مما يجب علينا ان ننتظر ونتوقع — وتقلبات المناخ ، وعجز المناجم ، والاكتشافات الجديدة وتراوح التجارة بين زيادة ونقصان وزد تغيرات العوائد والازياء — كل هذه قد تجر خسائر جسيمة و بلاياً شديدة . اما اشد الرزايا التي قد تفجع بها الامم فهي تلك التي تجلبها بعض على بعض « وكأنما الشعوب تحب المخاطر والاهوال ، حتى اذا اعوزتها أوجدتها لذاتها »

ولقد قام ، لحسن الحظ ، في السنين المتأخرة ، شعور شريف في هذه

الجزيرة وفي القارّة [١] ايضاً ، هو الشعور بوجوب تحسين العلائق بين الدول الاوربية جميعاً — ولكن المسئلة ليست مسئلة مجرد شعورٍ ، بل انها ضرورة أولية ، وحاجة ماسة يجب الاسراع الى سدها . ونقول « البلاد الاجنبية » وفي الواقع ليس من بلاد اجنبيةٍ بعد . ان مصالح الأمم مشتبكة متداخلة بعض في بعض ، بحيث كل ما ينال الواحدة يؤثر على الاخرى ان خيراً وان شراً

ان اموال اوربا مفرّقة موزعة في جميع اطراف الارض ، والتجار الاوربيون لا يخلو منهم قطر او مصر ، وقد مددنا الخطوط الحديدية و بنينا المعامل في كل بلاد تقريباً

ولا يسعنا الا ان نتحسر ونتأسف لو جئنا نحسب الخسائر التى جرّتها الحرب الروسية على روسيا وسائر البلاد الاوربية . فاموالنا المشغلة في ارجنتين وحدها تبلغ ١٥٠ ٠٠٠ ٠٠٠ جنيهاً ، حتى قد يصح القول انها مستعمرة انكليزية . وحريقة سان فرانسسكو وحدها كلفت شركات ضمانة الحريق الانكليزية فوق الـ ١٤ ٠٠٠ ٠٠٠ جنيهاً

ولا اخالنا ندرك مقدار ما يهمنا ويوافق مصلحتنا ان تكون البلاد الاجنبية مفلحة وفائضة خيرات . فأنها تعاملنا ، ونحن نعاملها ، وهو معلوم انه اذا « صحت الغلال » في الخارج ، هبطت اسعار ضروريات الحياة عندنا وارتفعت أجور العمال

---

(١) الجزيرة يكنى بها عن انكلترا والقارة عن اوروبا عامة

ولنذكر الخسائر التي لحقت بنـا وبالاحرى بشركات الضمانة من الحريق الانكليزية ، من جرّاء نار اسطولنا في حرب القرم ، وعلى اثر غزوات الألاباما . فالاخيرة وحدها كلفتنا ٣٠٠٠٠٠٠٠ جنيهاً تعويضاً للحكومة الاميريكية

قال لورد دربي مرة ان السلام هو اكبر المصالح الانكليزية . وهو كذلك ، ولكنهُ لا يكفي ان نكون نحن فقط على سلام ، بل يجب ان تكون الممالك الاخرى مثلنـا ايضاً . فالسلام ليس مصلحتنا الخاصة فقط ، بل انهُ مصلحة كل مملكة

واذا كانت الدول الاوربية لتبقى تلقي العثرات بعض في سبيل بعض ، كما قال مرة سفيرنا في باريس ، فلا ندحة عن مؤدّى الحال . ولكن تحسين الحال ، ليس من المحال . فخذ فرنسا وانكلترا مثلاً : فحتى الآونة الاخيرة ، ظل نفور الشعبين المتبادل شديداً لا يكاد يُطاق والشر كل الشر من الصحافة التي كانت تبثُّ تلك الروح الخبيثة باقاويلها وتمويهاتها . اما اليوم فقد أزيل سوء التفاهم ، وصارت الحالة احسن منها سابقاً ، بحيث اذا عرض لنا مشكلٌ واقبلنا عليه من طريقة ودّية ، فلا اشك في اننا نتوفق الى حله على وجه مرضٍ

ومن عهدٍ اقرب ايضاً ، مثل هذا الشعور كان على وشك القيام بين انكلترا والمانيا . والامل انهُ زائل او واجب الزوال . فالاشارات الودية التي أبديناها ، قوبلنا بمثلها من الالمان . ففي برلين ، وكولون ، وفرنكفورت ، وهمبرج ، ومُينخ وغيرها من المدن الالمانية التجارية ،

عقدت الاجتماعات ، واصدرت القرارات،وعزم القوم على ان يحافظوا ليس على السلام فقط بل على الوداد مع هـذه البلاد . والالمان والانـكليز جميعاً يعلمون جيداً انهُ اذاشبّت الحرب بين القومين ، فسواءٌ انتصر الاولون ام الآخرون ، وكائناً السبب ما يكون ،فالعاقبة وخيمة على الفريقين ، وقد تتقهقر بسببها جيلاً الى الوراء ، ونجلب على الامتين شديد الوبال وضروب الشقاء

والحالة الحاضرة تلوح كفرصة مناسبة لوضع حدٍ للاستعدادات الحربية . اعتبر ذلك بحالة بحريّاتنا . وهاك المقارنة التي عملهـا لورد اڤرسلي في مقالة نشرها ، عن البحريّات الاوربية

المحمول بالطن

	انكليزية	فرنساوية	المانية
بوارج	٧٦٩ ٩٠٠	٢٤٩ ٥٠٠	٢٣٠ ٠٠٠
طرادات	٢٨٠ ٦٠٠	١٤٨ ١٠٠	٥٥ ٧٠٠
	١٠٥٠ ٥٠٠	٣٩٧ ٦٠٠	٢٨٥ ٧٠٠

هذا والسفن الحربية القديمة وما اشبه غير داخلة في الاحصاء ، وعلى فرض انها دخلت ، فالنسبة لا تتغير تغيراً يذكر

وبحث صاحب الاحصاء المومى اليه ، في لوائح بحريات هـذه الممالك الثلاث ، ووجد ان النسبة بعد تنفيذها تكون كما يأتي :

المحمول بالطن

	انكليزية	فرنساوية	المانية
بوارج	١ ١١٩ ٠٠٠	٣٨٤ ٠٠٠	٥٢٣ ٠٠٠
طرادات	٨٠٩ ٠٠٠	٣٩٥ ٠٠٠	٢٢١ ٠٠٠
	١ ٩٢٨ ٠٠٠	٧٧٩ ٠٠٠	٧٤٤ ٠٠٠

فترى اذاً انهُ اذا نُفذت هذه اللوائح ، تحملت الدول الثلاث اثقالاً عظيمة من المصاريف وظلت النسبة بينها كما هي تقريباً . واللورد اثرسلي يتساءل في مقالته المشار اليها « الا يمكن احداث ترتيب دوليّ يضع حداً للاستعدادات الحربية عند هـذه الدول الثلاث ؟ » وانا اقول حبـذا لو نحدث ترتيباً معقولاً نستغني بهِ عن كل ذلك مرة واحدة (١)

وغني عن البيان اننا لا نرضى ان تُهمل مصالحنا وتُهضم حقوقنا ولا ننتظر من الآخرين ان يرضوا بمثل هذا لانفسهم . وجل مانروم ان نقبل على المشاكل الدولية بروح ودادية ، ونحلهـا على طريقة حبية ، واذا عجزنا عن التسوية فيما بيننا وتعذر علينا الاتفاق وحسم الخلاف ، عمدنا الى دولة صديقة للطرفين واقمناها حَكماً نرضى بحكمهِ

---

(١) وحكومتنا احدثت شيئاً من هـذا القبيل منذ ظهرت هـذه المقالة (١٩٠٦) ولا شك ان القوم يودون ان يحدثوا اكثر فاكثر — هذا اذا وافقت الممالك الاخرى واقتدت بهم

وفصل خطابهِ. اجل اننا نريد ان دول أوربا المختلفة تتعامل وتتصرف بعضها مع بعض معاملة الصديق للصديق وتصرف الجار مع الجار، وكالكرام لا كلصوص البرّ، وكابناء دين لا كقرصان البحر

يقال « خير مانعٍ للحرب، هو الاستعداد للحرب » . ولا شك ان هذا القول من الصحة بمكان بالنظر الى مملكة معينة من الممالك، ولكن اذا نظرنا الى أوربا كافةً فليست هذه الاستعدادات الاّ خطرًا يتهدد السلم العام

فضلاً عن ذلك ان المقارنة بين أوربا واميركا تلمع الى اعتبارات مُهمة وخطيرة . فالمنافسات التجارية تشمل العالم كله . وأوربا حتى في وقت السلم لا تخلو من ٤٠٠٠٠٠٠٠ نفس تحت السلاح، ومصاريفها لاجل البرية والبحرية تفوق ٢٥٠٠٠٠٠٠٠ جنيها سنوياً . وبحرية الولايات المتحدة وبريتها مؤلفتان من ١٠٧٠٠٠ جندياً ونفقاتهما لا تقل عن ٤٠٠٠٠٠٠٠ جنيهاً اما سكان الولايات المتحدة فيبلغون ٩٠٠٠٠٠٠٠٠ وسكان اوربا كلها نحو ٣٥٠٠٠٠٠٠٠ نفس . فترى اذاً ان سكان اوربا اربعة اضعاف سكان الولايات المتحدة، اما جنودها فاكثر من جنود الولايات باربعين مرة . فعلى شاطىء الاتلانتيك الواحد، ولايات اميركا المتحدة، وعلى الشاطىء الآخر حكومات اوربا غير المتحدة، بل المتفرّقة، بل المتمزّقة المتميزة تحاسداً وتضاغناً — حكومات شاكية السلاح، مثقلة نفسها بالمعدّات وحملها، فتمشي غير آمنة عثاراً . فالوطنية — حب المرء لدولته —

سجية من السجايا المحمودة ، ولكن هنالك عاطفة ان لم تكن اشرف ، فبالاقل أعم واكرم ، وامسُّ لزوماً وضرورة باعتبار حالة العالم الحاضرة ، ولكنها لسوء الحظ اكثر ندوراً واقل وجوداً — الا وهي الاخلاص الدولي المتبادل

والاقتصاديّ الاميركي المرحوم مستر ا . اتكنسون يقول : « اذا اعتبرنا الضرائب والمكوس التي تضرب في أوربا ، والمنافسات الحربية بين دولها ، وقابلنا بينهـا وبين الولايات المتحدة من وجهة اقتصادية وجدنا ان هـذه المملكة تربح ٥ في المئة سنوياً قبلما تتمكن القوات المتنافسة من دفع ضرائبها وتسديد نفقاتها الحربية . هذه هي العقبة التي يجب على اوربا تجاوزها ، وهذا هو الحمل الذي يلزمها ان تنجو من ثقله ، قبلما تصح المباراة بين صناعتها وتجارتها ، والصناعة والتجارة الاميركيتين » . ناهيك عن ان المصاريف الحربية في اوربا قد زادت اضعافاً منذ كتب الكاتب حتى اليوم ، ولعل الفرق بات يبلغ ١٠ في المائة في هذه الايام . ولا يفهمنّ من قولي هـذا ان الولايات المتحدة مصيبة في امرها كل الاصابة وانها تستخدم وقتها ورجالها في الطريقة المثلى . فان الخطة الجارية عليها من صرف الهمم والقوى باسرها الى المصانع والمعامل ، وتحويلها عن ملايين الفدادين من الارض الصالحة للزراعة ، تلك الخطة مبعدة للشعب عن عيشة القرى والمزارع الصحية الطبيعية ، بحيث لا يرون بداً من الاحتشاد والازدحام في المدائن الكبرى . وهذا الخطأ وان كان يعيق التقـدم ويؤخره

بعض الشيء فانهُ لا يمنعهُ منعا . وقد كان يمكن للولايات المتحدة ان تعوّل علينا في اشتراء قسمٍ من المصنوعات ، لتصرف قسماً من اعتنائها الى اراضيها الواسعة وزراعتها

ولكن ما هو مصير اعمالنا نحن الاوربيين يا ترى ؟ لا شك اننا متمتعون بعدة امتيازات ومنافع . ولكن ينبغي لنا ان ننظر الى مستقبل امرنا . فقليل من اراضينا ما لم نمسه باستعمال واستثمار . وصحيح ان مناجمنا الفحمية لم تنفد مادّتها بعد ، ولكننا منذ اليوم مضطرون الى التعميق وخرق طبقات الارض لاستخراجها ، ولا يخفى ما في الامر من زيادة الكلفة . اما مناجم التنك والنحاس والحديد فالاولى قريبة النفاد ، والثانية غير بعيدته والثالثة غير مستحيلته . ولما كان الامر كذلك فلا بد لنا من اعداد العدة لمستقبل الايام

ولكن ما أبعد اوربا والحالة هذه عن تحقيق هذه الامنية ، فانها اشبه بمعسكر ومحلة قتال . فاين السلم واين السلام ؟ حرب دائمة ، تستنزف من اجلها الاموال وتبتزّ دراهم العمال ، ولكن لا دمٌ يراق او يهرق والحمد لله . اما النتيجة فهي اننا عوضاً عن توفير راسمال نتركه لاولادنا ، ها نحن نثقل عواتقنا بديون نورثهم اياها

فقد تبين ان اصحاب المعامل الاوربية ، مظلومون من هذا القبيل ظلماً لا قِبل لهم معه بمباراة المعامل الامريكية ، واذا لم تتلاف الامر زادت الحال اشكالاً . فضلاً عن ذلك ان انتشار الاشتراكية ، وقيام الفوضى في اوربا إنذار دائم بالخطر المحدق بحكوماتها وحكامها ، اذ قد اصبحت

حالة العمال اشد ضنكاً مما يحتمل و يطاق ، و بحيث اصبح اكتفآء مؤُونة الثورات موقوفا على العمل على زيادة الاجرة ، وتقليل ساعات العمل ، وتنزيل اسعار الحاجيات والضروريات

وخير الوسائط الى هـذه الغايات ، انما هي تخفيف مصاريف البحريات والبريّات . ومن الواجب على اوربا ان تنظر الى نتائج التسليح والتجنيد ، البادية والخافية منها جميعاً . فان الخوف من الحرب والاهتمام لاتقاء شرها مما يشغل الافكار عن اتقان الصناعات وتحسينها بل مما يغل الايدي عن العمل

ومصاريف الولايات المتحدة ومصاريف مستعمراتنا على بحرياتها و بريّاتها ليست بشيءٍ يذكر بجانب ما تصرفه دولتنا وسائر الدول الاوربية في هذا السبيل ، بحيث لا تزيد المباراة الصناعية والتجارية الاّ صعوبة فوق صعوبة . ذلك لان الصنائع تتحول بحكم الضرورة الى البلدان الأخف ضرائب ومكوساً ، تحوّلاً تدريجياً يظهر فرقه مع الايام . وذلك مما يزيد الطين بلة والامر إشكالاً ، بحيث اذا كانت اوربا لا تعدل عن منهجها هذا وتنهج نهجاً جديداً ، حق لهـا ان تتوقع سوء المصير وتخشاه . و بالحقيقة نظل كأننا على فوه البراكين ، ما دمنا هذا دأبنا في الاستعدادات الحربية

ولنذكر ان ضنك حال العمال والمشقات التي يكابدونها ، لا تفتأ تمهد السبل لانتشار الاشتراكية ، وانهُ لا يرجى اصلاحٌ لاحوالهم المعائشية ، مع الاستمرار على تحمل هذه المصاريف الحربية . واني

اخشى ان الاشتراكية ستزيد الأمر خطراً وإشكالاً ، ولكن ما الحيلة وهي النتيجة الطبيعية لتذمّر الشعب من قِسمهم واقدارهم . واذا لم يتدارك الحال باصلاح ، زادت حالة الفقير في أوربا شراً وسوءاً . ولماذا التجاهل ؟ وحتى مَ التعامي ؟ فالثورة ان لم تقدح شرارها عما قليل ، فانها كامنة كمون النار في العود ، ولا بد من انفجار بركانها انفجاراً لم يسبق له مثيل . فاذا كانت ملوك اوربا تريد البقاء على عروشها ، واذا كنا لنود استتباب السلام ، فليشرع الساسة الاوربيون في تحسين العواطف وليعملوا ما يؤول الى تخفيف الاثقال التي ينوء بها الصناع والعمال ، والتي تزيد مصائب الحياة ومصاعبها زيادة هائلة

وكثيرٌ من الممالك تحاول ان تحارب سواها بكثرة ماتقيم من الحواجز والتضييقات والتحديدات التجارية . اعتبر ذلك بالتحاسد ، ومبادلة سوء الظن وزيادة الرسوم على الواردات وما اشبه

فلا يخفى ان اغلب البلدان الاوربية تزيد الرسوم وتعمل بغير مبدإ حرية التجارة . على ان هذا القول لايصدق علينا وعلى القليل من الممالك المتنوّرة كهولاندا وسويسرا . والولايات المتحدة نفسها عاملة بسياسة حماية التجارة ، سياسة الحصر والتضييق التي تعيق التقدم وتوءخره ، مع ان تجارتها الداخلية من كندا شمالاً الى مكسيك جنوباً حرة مطلقة بين ولاياتها . فلتتأمل ! لماذا يا ترى يجوز ان تكون التجارة حرّة بين ولاية مستشوزتس وولاية كاليفورنيا ، وبين ولايتي ماين وتكساس ، فقط ، ثم يوضع الحد الفاصل ؟ واذا كان وضع الرسوم

على واردات كندا « وبريطانيا العظمى » يعود على نيويورك بالنفع والفائدة، فلماذا لا يتقاضى مثلها على واردات كاليفورنيا ؟ ولماذا تجري حرية التجارة بين مرسيليا وكالاي ، وفي عموم الامبراطورية الالمانية ، ولا تتناول لندرا ايضاً ؟

ان وضع الرسوم على البضائع الاجنبية لا يعوّل عليه زيادةً للمدخول . لان ثروة البلاد وتوفير مدخولها لا يأتيان عن سبيل تقاضي الرسوم ، كما يمكن ان يأتيا عن طريق حرية التجارة . اعتبر ذلك بحالة داخلية البلاد الاميركية والالمانية ، فان حرية التجارة فيها لتأتي بالنتائج الحسنة . والولايات المتحدة من هذا القبيل اصبحت اوسع ميدان لحرية التجارة في العالم باسره . بينما الولايات (اي الحكومات) الاوربية تنصب حبائل الرسوم بعضها لبعض ، وتقيم الحواجز المتينة في وجه الصناعة والتجارة وتضرّ بعضها بعضاً

واليك فقرة من خطاب فاه به مركيز اوف سالسبوري (١٨٩٧) مصيباً من الحقيقة كبدها : « والاتحاد الاوربي هو الوسيلة الوحيدة لاتقاء شرّ الحرب . لا يخفاكم ان آلات الفتك الذريعة ومعدّات القتال تتزايد عدداً وتحسناً في كل قطر من الاقطار ، وكل سنة لنا اختراع جديد ، وطريقة جديدة ، لفتك الانسان باخيه الانسان . وكل امة عاملة على حفظ كيانها ، ومنخرطة في سلك المتنافسين المتبارين في هذا المضمار ، مضمار الخراب والدمار . فاذا كنا نأمل ان نوقف هذا التيار عند حدٍّ محدود ، ونخلص المدنية من ضربة الحرب

القاضية ، فما املنا الا بتحقيق امنية تقارب الدُّول بعضٍ الى بعض ، وإحكام عرى المودَّة والاخاء بين هـذه وتلك ، بحيث تصير تحسم الخلاف على طرائق حبية ، حتى اذا تم وئامها ووفاقها اصبحت اخيرًا كيانًا دولياً واحداً ، واظهرت للعالم باسره ، عجائب لم يحلم بها من نتائج حرية التجارة والسلام العام ذلك بفضل قوتها المتحدة اذ ذلك . وهاك ما صرّح به المرحوم سَرْ هنري كمبل بنرمان في خطاب ألقاه عام ١٩٠٥ ، «وفي ما خص المانيا ، اني لا ارى داعياً ولا سبباً لتعطيل مصالح الامتين المتبادلة ، ونحن أبداً نرّحب ونسرُّ بالمظاهرات الودية ولو غير الرسمية التي يتبادلها القومان . واني لواثق من ان زيادة الاهتمام بالتسليح والتجنيد ، خطر عظيم على السلام العامّ . فان سياسة زيادة المعدّات ، تؤول الى تثبيت الاعتقاد بان القوة هي الطريقة الفضلى ان لم تكن الوحيدة لحسم الاختلافات وحلّ المشاكل الدولية . ولعمر الحق انها لسياسة تؤول الى ايجاد حزازات جديدة ونكء جراح قديمة . واني لقائل لكم انهُ لا يتمكن مبدأ السلم والتحكيم من النفوس مع توالي الايام ، حتى تنصرف همم الساسة والوطنيين الى كيفية تغيير جميع هذه المعدّات الحربية بحيث تصير موافقة لحالة السعادة والسلام . واي دور اشرف تمثيلاً لبلادي على مرسح العالم ، من دور قيادتها وترأسها لمحالفة سلمية تدأب وتسعى الى هذه الغاية النبيلة ؟ »

وها قد بحثنا الآن في المسئلة من وجهتيها المادّية والاقتصادية ، انما لا يحسن بنا ان ننسى اننا امة مسيحية . ولو كانت الامم المسيحية

اماماً من المسيحيين ، العاملين بمبادىء رأس دينهم ، لما كان هنالك حرب ولا قتال. وحالة اوربا الحاضرة عار وشنار على الاوربيين كبيران شديدان ، وما ذلك لان القتال مما يمجه الطبع السليم فقط ، بل لان الحرب ومبادئنا الدينية على طرفي نقيض . وحتى اليوم لسوء الحظ لا يخلو الصحافة ولا البرلمانات من رجال لا دأب لهم ولا شأن الا في زرع بذور سوء الظن وتكبير اسباب الخلاف وتعظيمها ، وإيغار صدور الشعوب ضغائن واحقاداً ، والنتيجة ما ترى من تلطخ صفحات تاريخ الانسانية بدماء بني الانسان مراقةً بيد اخوانهِ في البشرية . على ان مصالحنا اهم من خلافاتنا. وكأني بالدول لا تدرك شدة ارتباط مصالحها بعض ببعض ، وان الامم على اختلافها اعضاء جسم سياسي واحد ، تتقدم الواحدة او تتأخر فتؤثر حالتها على حالة اخواتها بدرجات متفاوتة

في قديم الازمان ، كان كل فرد يثأر لنفسه، ويحصل حقه بيده . اما اليوم فقد اصبح ذلك محظوراً ، بل جرماً يعاقب فاعله . فعلى الفرد اليوم ان يلتجىء الى شرائع بلاده ويستعين بها على تحصيل حقوقه المهضومة . افلم يأت بعد الوقت الذي تصير فيه الدول في حكم الافراد ، اي محظوراً عليها ان تثأر لنفسها ومنتظراً منها ان تتقاضى بعضها الى بعض ؟

فالامة كامة ليست افضل من الفرد كفردٍ من حيث الحكم في الاحوال الشخصية ولا يليق بالامم الراقية ان تهبّ الى السلاح ، كما يفعل البرابرة عند ادنى خلاف . وأخلق بكل قومٍ يدخلون بلاد قومٍ

رأساً بالسيوف والمدافع ، وقبل عرض امرهم على مجلس تحكيم ، ان يُعدّوا مخلين بالنظام ومكدّرين لصفاء السلام العام

والامر مهم من كل الوجوه وفي جميع الاحوال — بل انهُ واجب وضربة لازب . اجل انهُ لمن الضرورة باعظم مكان ان نبذل المستطاع لتجنّب سوء التفاهم الدوليّ ، ولتمكين عرى المودّة والإخاء بين امم الارض جميعاً . والتوقف عن مواصلة التجهيزات والاحتياطات الحربية يكون بركة عظيمة للعالم عموماً ولأوربا خصوصاً — بل انهُ قد ينجيها من تيار الثورات وينتشلها من بين براثن الشقاء . لانهُ اذا تمّ خفّت اذ ذاك اثقال المكوس والضرائب ، وخفّت مشقات ساعات العمل ، وارتفعت اجور العمال وهبطت اسعار الضروريّات والحاجيات ، فتمت بذلك سعادة الشعب وانتفى شقاؤه . واني لامل اذاً اننا سننتهز الفرص للشروع في تحقيق هذه الامنية . ولا بأس ان كنا نشرع ونحبط سعياً ، فما علينا الاّ ان نفرغ ما في الوسع ، وحسبنا الشعور باننا بذلنا الجهد والطاقة . على انني لا أعزّز هذا الخوف من الخيبة والفشل ، لانني واثق من حسن طوية اوربا وسلامة طبعها . واذا تكللت اعمالنا بالنجاح ، وقامت هذه السياسة مقام سياسة التحاسد واساءة الظن ، فقل هي نصرة سلمية ، لا حربية ، وبركة عظيمة لأوربا وللعالم اجمع . عندئذ ، وعندئذ فقط ، يحق لنا ان نرجو لأوربا مستقبلاً باهراً وعظيماً . ولأسمى مطمع يمكن لامة ان تطمح اليه ، انما هو السبق في مضمار تأييد « السلام على الارض وحسن الطوية بين الناس »

كلمة

في تقريظ هذا الكتاب (١)

عنيت منذ اشهر الصيف الماضي بمطالعة هـذا السفر الجليل الموسوم بالسلام والسعادة لمؤلفه العظيم اللورد اڤبري باللغة الفرنسية فاعجبني ما حوى من درر الحكم الغوالي و بدائع الكلم الثمان بين منثور ومنظوم حتى رأيتني مسوقاً بدافع الاعجاب بالمؤلف والمؤلف الى طلب الاذن من جناب اللورد بنقل كتابه هذا الى اللغة العربية خدمة لابناء وطني الاعزاء . وقد نشرت بالفعل منـه قطعة بالمؤيد الاغر بعددين من اعداد شهر دسمبر سنة ١٩١٠ وما كنت احسب ان حضرة الشاب الاديب وديع افندي البستاني يفرغه في هذا القالب الذي عني بافراغه فيه . ولكن حضرته لما اطلع على ما عربت واطلعني

---

(١) بعد ما اوعز اليَّ حضرة اللورد بترجمة كتابه هذا وبعد ما عزمت على ذلك اتفق ان حضرة الكاتب الفاضل والوطني الغيور صالح بك حمدي حماد اطلع على ترجمته الافرنسية فاستأذن المؤلف بنقله الى العربية هو ايضاً ظناً منه انني مترجمه باختصار فاجابه بالايجاب . ولكن لما اطلع حضرته على فصول الكتاب وهو على وشك الصدور تكرَّم بكتابة هذه الكلمة فلم يسعني الا نشرها مقدماً لحضرته خالص الشكر لاجل حسن ظنه بي ومردداً بعض ما قلته في حضرته بعد ما تشرفت بمقابلته

فصالحٌ صالح للمدح امدحه والمدح للذات لا للاصل والنسب
اني خبرت سجاياه وشيمته فان حمدت فحمدي غاية الارب

على هذه النسخة من ترجمته سررت منهـا ورأيتهُ لم يبعد عما قصده المؤلف وان ترجمته قد جاءت وافية بالمرام لا سيما وانهُ لشاعريته قد ترجم الشعر شعراً . فلهذا لا يسعني سوى اطراء هذا الشاب الاديب والثناء على همته ونشاطه وحسن اختياره في خدمة الشبيتين المصرية والسورية واتحافهما بامثال هذا الكتاب الثمين بل هذه الدرة اليتيمة . ولا غرو فخضرة وديع افندي فرع تلك الدوحة البستانية التي جلت خدماتها للغـة العربية الشريفة وعظمت آثارها في النهضة الحديثة السورية والمصرية :

وزندك من زناد واريات اذا لم يحمد الزند الصلود

القاهرة في ٨ دسمبر ١٩١٠ صالح حمدى حماد

كلمة اخرى

وحضرة الصديق نقولا افندي الحداد كان يطلع على الترجمة والاصل والكتاب تحت الطبع وكنت اشكر له اهتمامه بالموضوع كما اشكر له كتابه التالي :

حضرة الكاتب الشاعر وديع افندي البستاني

جاء كتابك في « السعادة والسلام » وهما يكادان ينقضيان من المجتمع البشري . فعسى ان يكون الكتاب رسولاً يبشر الملأ بهما او رذاذاً يروي غرسهما

اما السعادة فهي شعور في النفس يؤثر لذةً في الجسد . فاذا رقينا النفس الى ما شاءت لها المطامع والاميال وتركنا الجسد مغلولاً باغلال المجتمع البشري بحيث يعجز عن نيل تلك الاميال وينوء تحت الهموم فلعمرك اين السعادة ! اننا بترقية نفسهِ وعقله نزيد وايم الحق شقاءه

اما السلام فهو تفاهم بين الافراد ينشىء وئاماً في المجتمع . فاذا رقينا تفاهمهم الى ما شاءت لهم المصالح العامة والمنافع المشتركة وتركنا القوانين والشرائع تطلق العنان للتنازع والتحاسد بين الافراد وبين الامم بحيث يبقى الاحتكاك شديداً فأي سلام نرجوه بين البشر

اشكر الله ان كتابك قد يشفي العلتين ويروي الغلتين ؟

ايها الاديب — ما دمنا نرى ربع القوى الاجتماعية — العضلية والمالية — موقوفة للتسليح استعداداً لرد الغارات والتكافؤ في الحروب فهل نعتقد ان بين الامم تفاهماً ؟ واذا لم يكن ثمت تفاهم فاين السلام ؟

وما دمنا نرى المحاكم غاصة بالمتقاضين والسجون ملأى من المجرمين وسواد الناس يكابدون شديد العناء لحفظ الرمق ويرون ان الارض على رحبها ضيقة بهم ولولا ان الحياة عزيزة لتهافتوا الى الانتحار — ما دمنا نرى ذلك فهل نجد السعادة اذا نشدناها بين الانام ؟

متى تحولت السيوف والبنادق والمدافع الى محاريث وآلات صناعية والمدرعات والرعادات والغواصات والمدمرات الى سفن تجارية والجنود وضباطهم الى عمال والحصون والمعاقل الى مرافئ ومعامل واموال الحروب والتجنيد الى الملاجئ — قلنا حينئذٍ ان بين الامم سلاماً

ومتى تحولت المحاكم الى أندية ومجالس والسجون الى مكاتب ومدارس والمشروعات الكبرى الى يد الامة بحيث ينال العامل اجره لقاء عمله — قلنا حينذاك ان الانام في سعادة

قد تقول اني أبتغي هذه السعادة من حلم والحقيقة من وهم لان التنازع سنة فوق كل سنة والمطامع شريعة فوق كل شريعة ، فأقول لماذا نغشّ اذاً انفسنا باننا عالم متفاهم ومجتمع متوائم ونحن بالحقيقة جمع متخاصم في نزاع دائم . وما فضل القوانين الدولية اذا لم ترمِ

السلاح وتكسر السيوف والرماح وتصرف الجنود وتمزق البنود .
وما شأن القوانين المدنية اذا لم تساوِ بين اهل السعى وتحمي الضعيف من القوي وتنصف العامل من صاحب العمل ؟

ولماذا نرى مثل ركفلر يجمع في حياته ثروة مليون من البشر وهو لو أعطي أجره بالحق جزاء حذقه وجهاده لما نال اكثر مما ينال رئيس جمهوريته في حين ان الوفاً من الناس يتوسلون الى جزاء تعبهم فلا ينالونه ؟

ولماذا نرى مئات لا همّ لهم الا ان يتفننوا في قصفهم ولهوهم ويتنافسوا في بذخهم وترفهم والوفاً يتمنون الردى هرباً من شقائهم فلا يجدونه ؟

ولماذا نرى الذين يساومون على الاعراض ويتاجرون بالفساد — يبيعون الخمور سماً للعقول والاجساد ويدعون الى القمار لتخريب الديار — لماذا نرى هؤلاء يجمعون الثروات وينعمون في الملذات والذين يتمسكون بالفضيلة ويجاهدون في سبيل الاستقامة يتسولون عملاً من الهيئة الاجتماعية فتبخل عليهم بهِ ؟

وما هو فضل الشرائع الادبية ونحن نرى النفوس تتمادى في اغوائها وتتطوح في شهواتها وتقسو في مطامعها ؟

لعمرك ما تلك القوانين الدولية والمدنية والادبية الا قيود واغلال في أرجل وأيدي الافاضل لكي يستحكم من مص دمائهم الاراذل

وما تلك القوانين الا خيالات وأشباح بلا نفوس ولا أرواح فلا قوة لها ولا حول

لا ترجع الانفس عن غيها ان لم يكن منها لها زاجرُ

فترقية الافراد والمجتمع تقوم بتقويم النفوس وتدميث الطبائع لا بسن القوانين والشرائع . فيجب ان يُطرد الرجيم قبل ان يستفتى الحكيم

وكتابك أعزّك الله قد عبرته بسرور فرأيته قد تسدد الى هذا الغرض . فاذا أصاب من الناشئة العزيزة رحابة علمتْ منه فضل أدبك وفائدة درسك والا فلك من ضميرك ثناء على قيامك بالواجب عليك وأنت عامل من جملة عوامل الاصلاح التي أنتجها المجتمع وبستاني في عداد البستانيين الذين ما فتئوا يشتغلون في حديقة العلوم والآداب التي غرس غراسها كبيرهم الخالد الآثار

فاقبل ايها الصديق ثناء من يتمنى ان يكون عاملاً اهلاً بين عوامل المجتمع الصالحة

مصر ١٠ ديسمبر سنة ١٩١٠ نقولا الحداد

فهرست

الموضوع	صفحة	الفصل
في السعادة	١	١
الجسم	٢٢	٢
العقل	٣٩	٣
الأمل	٥٢	٤
القناعة	٦٦	٥
الدهر	٨١	٦
المعروف	٩٢	٧
التهذيب	١٠٦	٨
الاصدقاء والاعداء	١١٧	٩
المال	١٣٣	١٠
الخوف من الطبيعة	١٤٢	١١
حب الطبيعة	١٥٠	١٢
الوقت	١٦٨	١٣
الحكمة	١٧٦	١٤
الدين	١٨٨	١٥
اللاهوت	١٩٦	١٦
السلام العقلي	٢١٣	١٧
السلام الدولي	٢٢٦	١٨

حقوق اعادة طبعه محفوظة للمعرب

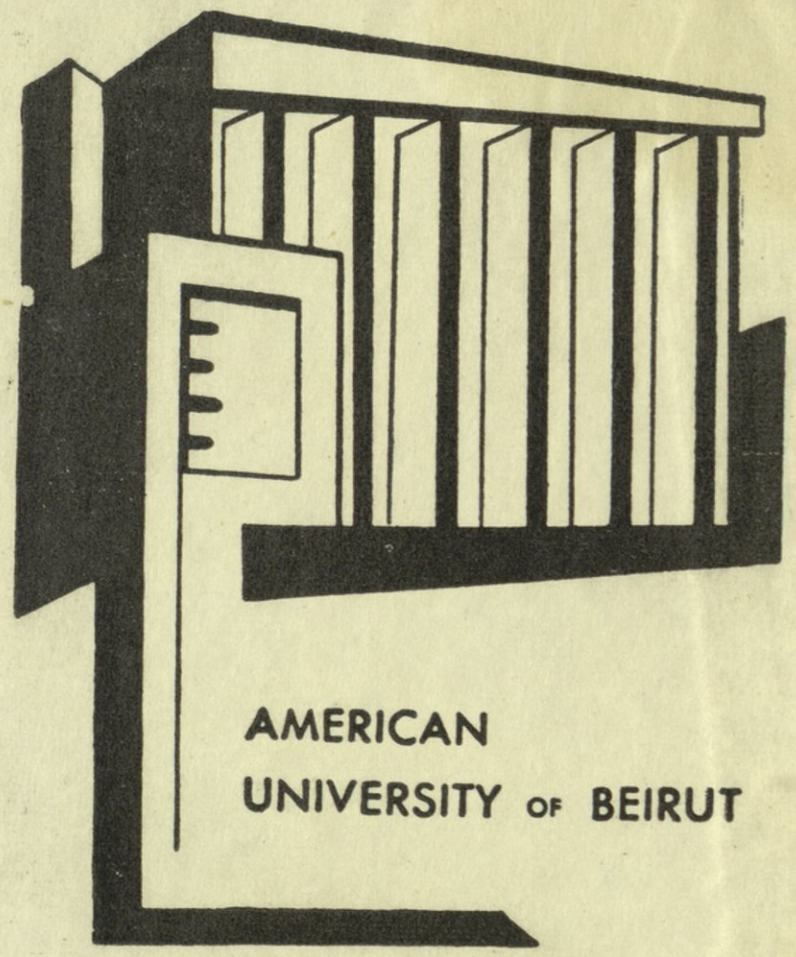

AMERICAN
UNIVERSITY OF BEIRUT

17.4
A94oA
C.1